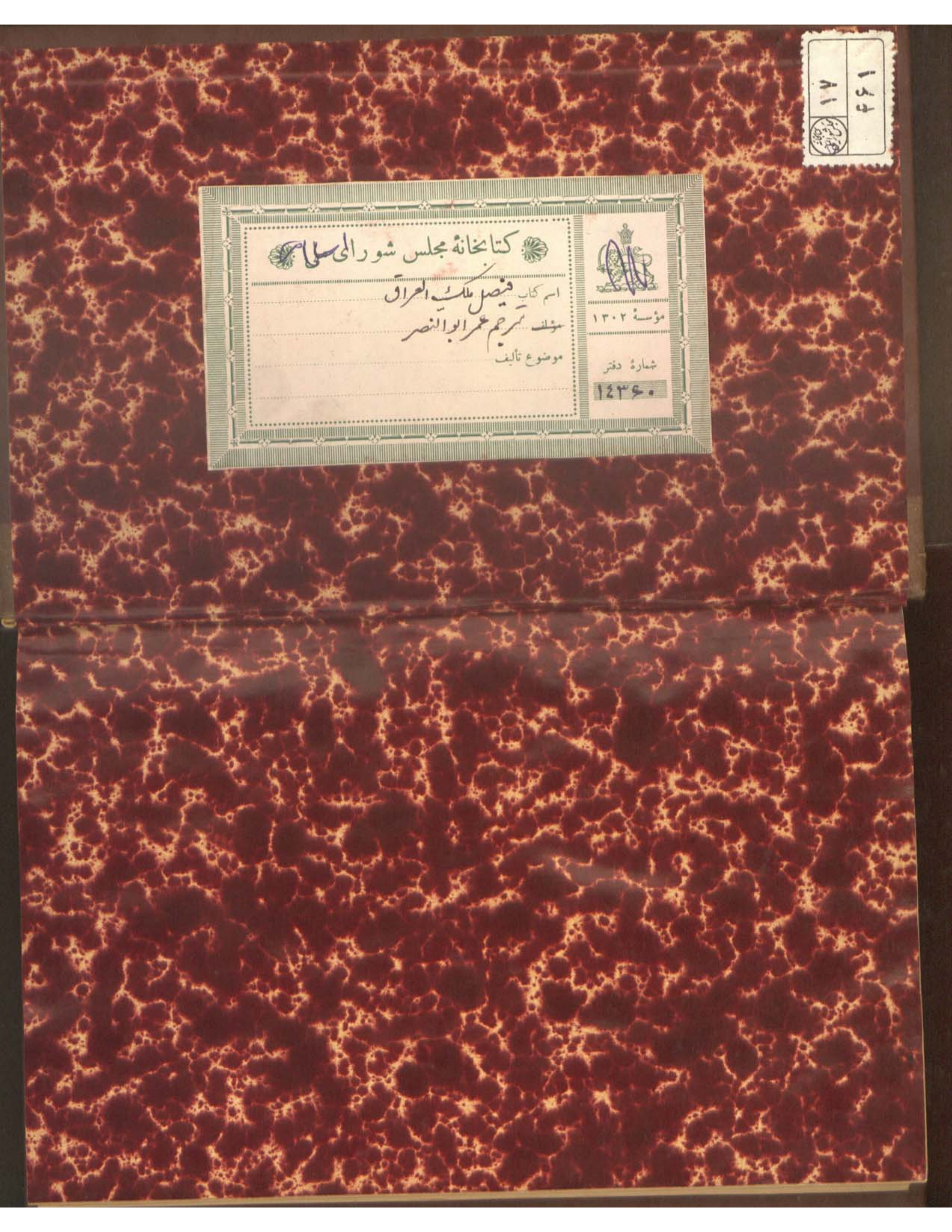
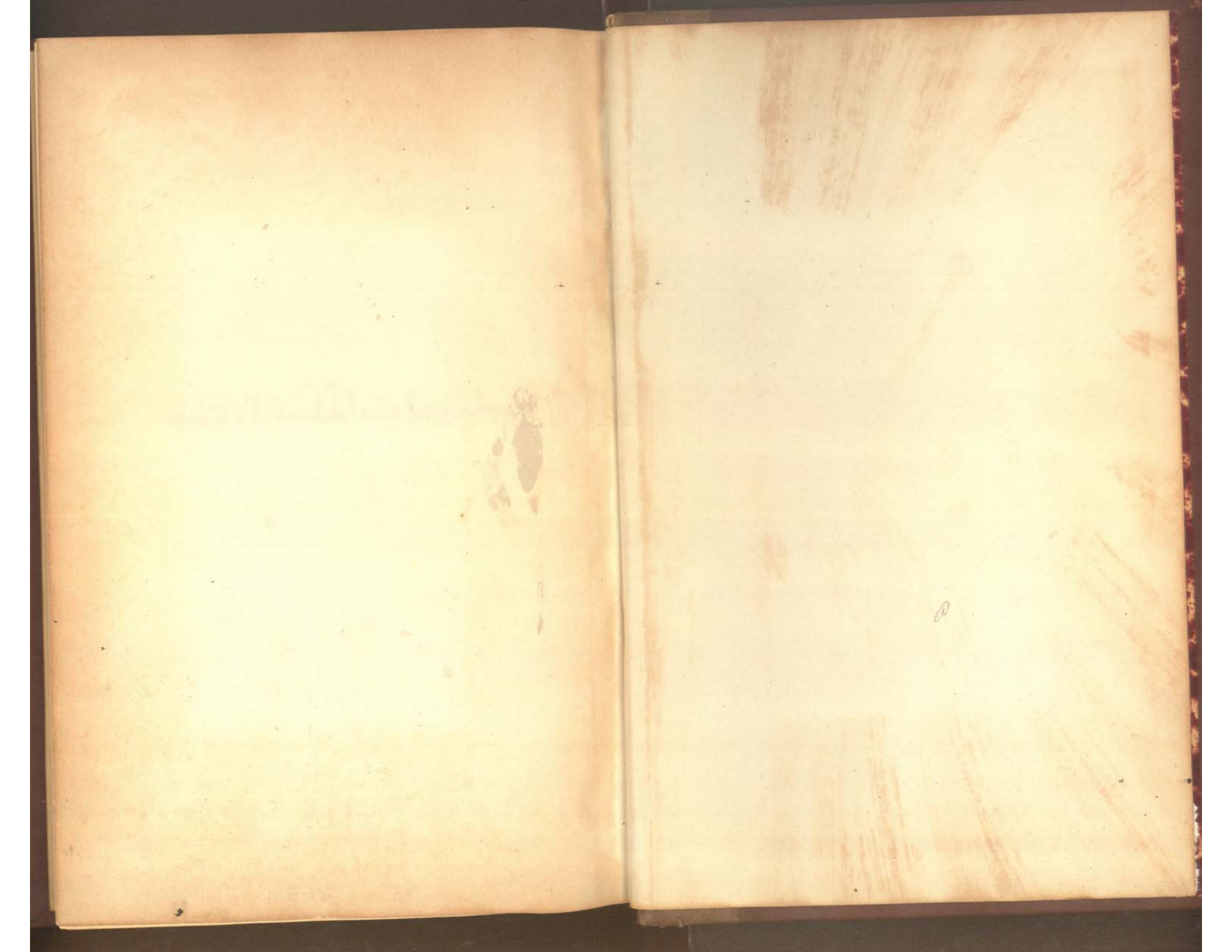

کتابخانهٔ مجلس شورای ملی
اسم کتاب فیصل ملک العراق
مؤلف ترجمه عمر ابو النصر
موضوع تألیف
مؤسسهٔ ۱۳۰۲
شمارهٔ دفتر
14360
۱۷
۴۶۱



عني بطبعه ونشره
محمد جمال
صاحب المكتبة الأهلية

فيصل ملك العراق

تأليف :

مسز ستورث ارسكين

مؤلفة { كتاب : (المدن العربية المختفية)
وكتاب : حياة الفونس الثالث عشر ملك اسبانيا }

عربه عن الانكليزية

عمر أبو النصر

مزين بعدة رسوم فريدة

وفيه كلمة للمارشال اللنبي ، وأخرى لجعفر باشا العسكري

اهداء الكتاب



الى روح الملك المجاهد الشهيد الخالدة

المعرب

بيروت في ربيع الاول سنة ١٣٣٥ - تموز سنة ١٩٣٤

مقدمة المؤلفة

لقد كانت وفاة الملك فيصل خسارة ألمت بالعالم جماعاته وافراده ، صعق لها قوم وبكى لها آخرون ، وصعب علينا ان نجد كلاماً يتوفر على وصف هذا الخطب الفادح ، وهذه الضربة المفجعة

لقد كانت هذه الفصول التي تناولت حياة مليئة بالاعمال والامجاد في المطبعة لما وقع النعي ، فرحت افكر في مراجعة الكتاب مرة أخرى واعادة طبعه من جديد ، ثم بدا لي ان اترك ما كتبته اولاً وان اتبعه بفصل يصل بالكتاب الى النهاية المحزنة .

ولم يكن الغرض من هذه الدراسة التي رحت اتخير فصولها واجمع ابوابها بين نيسان وآب ، ان ألم بتاريخ فيصل وحياته كل الالمام ، ذلك ان هذا من الامور التي تحتاج الى كثير من المستندات ومثلها من الابحاث ، وهو عمل لا يتم بالاشهر القليلة التي صرفتها في كتابة هذه الفصول ، ولكن غرضي من كتابة هذا الكتاب هو ان اجعله مقدمة لدخول العراق في جمعية الأمم وان اتناول فيه وصف هذا الرجل الذي عمل بمهارة زائدة على ادارة دفة السفينة العراقية حتى وصل بها الى مرفإ السلامة حيث الحياة والحرية والاستقلال .

لقد كان فيصل زعيماً كبيراً ووطنياً مخلصاً ، وكل املي ان يصدر كتاب في المستقبل لا يقتصر فيه كاتبه على بحث حياة فيصل وتاريخه بل يتناول فيه ايضاً هـذا السحر الذي كان يتدفق منه ، والذي لم يتوفر هذا الكتاب على وصفه كل الوصف .

والواقع ان تاريخ فيصل ليس امراً سهلاً ، ذلك انه يضطرب في تاريخ الثورة العربية منذ اول نشـأتها حتى وصولها الى بعض غاياتها ، وذلك انه يعرض لتاريخ الجمعيات السرية ايام الحكم التركي وجهود فيصل في ابان الحرب العامة ، فنزوله الى دمشق ، فمغادرته لها ، فهبوطه العراق وما تخلل كل ذلك من ادلهام السحب ، واضطراب الاحقاد ، وتشتت الآراء ، وتفرق الاحزاب .

لقد جربت ان اتحدث عن فيصل في حواره والوان حياته ، وتناولت هذه الميزات الخاصة بهـذه المملكة التي دعي للجلوس على عرشها ، بدلاً من تناول المذاهب السياسية والآراء المتباينة التي لا يصح تناولها بالبحث الا بعد الاطلاع على المستندات والاوراق السياسية واكتفيت من كل ذلك بان عرضت لهذه الفرص السانحة التي صادفها فيصل في حياته ، وهذه الصعاب التي لاقاها في طريقه ، وهذه المشاكل التي عرضت لهذا الملك الذي كان من اكثر الملوك اجتهاداً وفي طليعة اصحاب التيجان اخلاصاً .

فيصل ملك العراق

بقلم الفيلد مارشال الفيكونت اللنبي

اذيع في الراديو يوم الجمعة في ٨ ايلول ١٩٣٣ الساعه ٩ والدقيقه ٤٠ مساء

لقد عرض الموت موٴخراً لكثيرين من كبار ابطال العالم ، وبوفاة الملك فيصل تطوى شخصية من اجمل الشخصيات التي كان لها شأن في الحرب العامة والتي لعبت فيهـا دوراً مهماً .

قامة طويلة في جلال ظاهر وجمال رائع ، وعينين جميلتين تضيئان وجهاً كله جلال ووقار .

وان في مظهره هذا كل مظاهر الملك والسلطان .

لقد اجتمعت به لاول مرة في دمشق في اليوم الاول او الثاني من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٨ ، لما دخل تلك المدينة على رأس جيشه الحجازي الذي قطع به الصحراء محافظاً على جناحي الأيمن والذي ساعد به في المعارك التي كان من نتائجها انهزام الترك وتراجعهم بمساعدة شباب من الضباط الانكليز المخلصين .

ونشر فيصل في الشام راية الحجاز ، وبتأييد الحلفاء تولى الحكم فيها

كملك سورية ، وفي سنة ١٩٢٠ حصل جفاء بينه وبين الدولة المنتدبة فانتهى بها حكمه ، وفي سنة ١٩٢١ تولى فيصل عرش العراق تحت الانتداب الانكليزي ، ولما انتهت مدة الانتداب في هذه السنة زار الملك فيصل لندن رسمياً كملك مستقل

ولقد صار لي الشرف ان اكون بمعيته مدة زيارته هذه فهو رجل يجمع بين حسن القيادة العسكرية ، وبراعة السياسي الحاذق ، بعيد النظر ، سريع الاقرار لما يعرض له من امور ومسائل ، مخلص صريح جريء .

لقد خسر العراق بموته ملكاً عظيماً شريفاً ، وخسرت بلادنا صديقاً مخلصاً



مقدمة الكتاب

بقلم

حضرة صاحب الفخامة جعفر باشا العسكري

وزير العراق المفوض لدى بلاط سانت جامس

لم يبق لي ما اقوله بعد كل ما جاء في هذا السفر النفيس الذي وضعته مسز ارسكن والذي احسنت فيه التعبير عن آرائها كل الاحسان ، ولكنني اضيف بسرور بعض كلمات تتعلق بشخصية المغفور له الملك فيصل واعماله

وعليّ ان اذكر اولاً الخسارة العظيمة الشخصية التي اصابتني بموت جلالته ، ذلك انه كان صديقي ومليكي ومولاي ، كان اقرب الرفاق اليّ واكثرهم دماثة ولطفاً ، ما تعبت قط في صحبته ، ولا تولاني السأم قطعاً في الساعات التي كنت اقضيها معه

كان ناعماً هادئاً ، ما رأيته قط غاضباً على احد ، واني لاذكر اني اغضبته غير مرة ولكنه كان دائماً متلطفاً لايملكه الغضب ابداً

كان يعرف اعداءه وكان بطوقه ان يعاقبهم ، ولكنه راح يتحرى اكرامهم منتصراً عليهم بنبله وكرم خلقه وشهامته

كان يستطيع ضبط نفسه وعواطفه ، وكان كثير التأثير على الاشخاص الذين يتصلون به ، لقد ولد قائداً حاكماً فما كان يستطيع شخص ان يملي عليه ارادته او يسيره وفاقاً لرأيه ، كان دائماً ابداً يسير الاشخاص ويضطرهم الى قبول رأيه ولو كان في ذلك ما يخالف آراءهم ومذاهبهم

ولم يكن له غرض شخصي ، فكان يعمل دائماً للوصول الى المثل العليا التي تصبو لها بلاده ، وقد اثبت موته عظم الخسارة التي المت بالعالم العربي ؛ وشدة حب الناس له وتعلقهم به ، حتى ان بعض الكتاب الفرنسويين الذين يعدون من خصومه راحوا يعترفون بمقدرته وذكائه

لقد كان الملك فيصل رجلاً عظيماً ولا شك ، اثبت في ايام الحرب كفائته الحربية وبراعته ايضاً في تصريف الامور ، واذا ما كانت امامه خارطة جغرافية فقد كان سريعاً في الاشارة إلى مواطن الضعف ، واماكن القوة ، فكان يقود رجاله اليها بنجاح دائم مستمر ، وكانت احكامه غاية في الصدق وبُعد النظر ، علم ان الترك أقوى منه في المدينة فتوجه الى الوجه ولما وجد أن العمل هنا محدود وافق على ارسال فرقة من رجاله الى العقبة ، فشلّ بذلك الخطط التركية الالمانية ، ثم انتقل من معان الى درعا ، وكان انتقاله خدعة عسكرية قطعت على الترك مواصلاتهم والقت الرعب في

قلوبهم وحملت الكثيرين منهم على الفرار والتسليم

ولما دخل الى دمشق خلق جواً مشبعاً بالصداقة وحسن التفاهم بين العرب والحلفاء ، حمل الجميع على العمل معه ومساعدته ، وكان جلالته أكثر ميلاً للتفاؤل فما كان يتسرب اليأس الى قلبه بسهولة وإني لا ازال اذكر ما وقع في الأيام الأولى من الثورة العربية ، يوم جاءه بعض مشايخ العرب يتذمرون من عجزهم عن مهاجمة المعاقل التركية المحصنة دون ان يكون لديهم بعض المدافع والذخائر الحربية ثم زادوا على ذلك قائلين : أن الموقف أصبح حرجاً وانه ليس في طوقهم الاصطبار طويلاً

ومن محاسن الصدف ، اننا كنا ننتظر مدفعين صغيرين من المدافع المصرية ، وقد وصل المدفعان المذكوران والمشايخ يقصون ظلامتهم

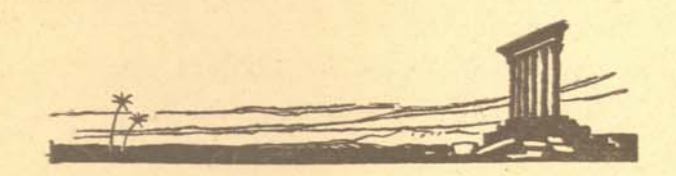
فوقف فيصل وامارات الغبطة ظاهرة على وجهه وراح يقول:

— انظروا يا أصدقائي .. ان لدينا مدافع كما للعدو وإذا كان لديهم (باشا) قد حصر نفسه في المدينة فان لدينا باشا مثله (وأشار إلي) هو بيننا

وبهذه الطريقة أزال مخاوف المشايخ واكتسبهم اليه ، وكذلك كانت بسماته وبشاشته وجرأته امام المخاطر سبباً عظيماً في اكتسابه محبة العرب وتزعمه عليهم

أما في السياسة فكان جلالته يرمي الى توحيد العالم العربي ، وتكوين امبراطورية عربية أو تحالف عربي ، ولكن مثله الأعلى هذا لم يكن يروق لبعض رجال السياسة الاوربيين ، كما أنه لم يكن يتفق مع اغراض بعض الجماعات السياسية العربية القصيرة النظر

وإذا كان الملك فيصل قد فشل في تحقيق اغراضه السامية العالية ، فانه قد ترك وراءه نواة لتحالف عربي في المستقبل وذلك في البلاد التي فجعت من الفجيعة بمليكها ، وقد بذر بذوراً ستنمو ثمارها الطيبة في المستقبل وكل أملنا أن تستفز سيرته كما قصت في هذا الكتاب، وذكرى فجيعتنا به ، قوانا للعمل في سبيل تحقيق الغرض الذي كان يريده ويعمل له .



كلمة المعرب

اما بعد فقد تكلفت لشباب العرب كتاباً فيه من الوان التضحية ، وحب الوطن ، وبذل الجهود في سبيل امة ، وتحمل الخطوب ليحيا شعب وتتحرر جماعات وافراد ، الواناً واشكالاً ، وقد توفرت على تخير البعض من فصوله ، فتركت بعضها وتصرفت في البعض الآخر وانشأت سواها ، ليخرج هذا الكتاب كاملاً في اخباره ، سليماً في اسلوبه ، فلا يعتوره نقص ، ولا يطوله خلل ، فان مرّ بالقارئ فصل او صفحات لا تتعلق من الكتاب وتاريخ صاحبه بسبب مكين ، فليعلم ان لذلك اسباباً احدها ضرورة البحث الذي عرضنا له وقلة ما جاء في الكتاب عنه مع الحاجة اليه ، ومنها رغبة المعرب في ان يجتمع في هذا الكتاب ما لم يجتمع لغيره من الاخبار والاحداث والفقر والروايات التاريخية وكل مايتصل بالثورة العربية وجهاد العراق في سبيل الحرية بسبب مكين ، وسبيل قويم

وشيء آخر ايضاً وهو ان الكتاب والمؤلفين في الغرب انما يكتبون لبني قومهم ، ويصنفون للرأي العام فيهم فلا تهمهم عقلية الشعوب التي يكتبون عنها بقدر ماتهمهم الاعتبارات الخاصة بأبناء بلادهم ومشارب القوم عندهم ، فيذهب واحدهم يتبسط فيما لا نرى نحن فائدة من التبسط فيه ، ويذهب آخر بتخير القصد في ما نحن باشد الحاجة الى التبسط به ، وهو ما حملنا حين ذهبنا نعرب هذا الكتاب على التبسط في ما عرضت له المؤلفة في شيء من الخفة واليسر كثيرين ، كما رحنا نتجاوز ما رأينا فيه تبسطاً ليس يفيد الغرض المقصود ، ونظن اننا وفقنا في تخير ذلك ، وقد اردنا الاشارة الى هذا ليعرف القارئ المذهب فيه والمراد به

***

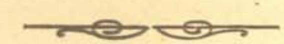
وان من حق ملك العرب فيصل الاول على ابناء العرب في مشارق الارض ومغاربها ان يرثوه ويبكوه ، ومن حقه على ابناء العراق عامة وشبابهم خاصة ان يعرفوا قدره ويذكروا فضله ويؤرخو له وهو الآن في ذمة التاريخ ، لانه رافع نهضتهم ومجدد حضارة الاسلام في مواطنهم ، وخالق حرياتهم ، ومؤسس هذه المملكة الفتية التي تسير بين أمم العالم وهي تعمل ما وسعها العمل وساعدتها التقادير الى اعادة الامجاد الغابرة ، والحضارات السالفة ، حضارات الاسلام ، والامجاد العربية ، وقد كانت في عهدها وماضيات ايامها تغمر العالم عمراناً وتنير ما حولها من الامصار والمواطن علماً وثقافة وعدلاً ونبلاً وجلالاً

* * *

وبعد فقد سبق هذه المقدمة مقدمات كان حقاً عليّ ترجمتها ونشرها ، ولذلك فاني مختصر كلمتي هذه ، فان اكثرت قبلاً فقد خففت آخراً ، وان اطلت سابقاً فقد اختصرت حالاً ، واني اسأل الله ان يوفق ابناء العرب الى تفهم سيرة المجاهد الشهيد ملك العراق فيصل الاول تغمده الله برحمته ورضوانه ، ليسيروا سيرته ، ويحتذوا اثره ، فانهم واصلون الى اغراضهم الاستقلالية حتماً ما تمسكوا بهديه ، وارتضوا حياته واعماله لهم قبلة ومصلى .

عمر ابو النصر

بيروت في ربيع الاول سنة ١٣٥٣ – تموز سنة ١٩٣٤



القسم الاول

الشريف فيصل والحرب العامة

تمهيد

بغداد — مارس — ١٩٣٣

غرفة في القصر الملكي في بغداد .

كبيرة منبسطة ، رفيعة الدعائم عالية ، بسيطة الاثاث يستلفت النظر فيها ديوان عربي اخذ مكانه على مقربة من موقد ضاحك النار ، ملتمع الشرر .

الستائر المخملية السوداء مرسلة فوق النوافذ العالية التي تطل على الحديقة ، وأكر الكهرباء تضطرب مشتعلة ، والنهار قاتم ، ثارت عواصفه واشتدت رماله فغلبت وجه الشمس وحجبت عن الارض ما فيها من نور ونار ..

ولكن ثورة العاصفة ، وجلال الغرفة كانا ابعد من ان يدفعا المرء الى التفكير بهما ولو فترة قصيرة من الزمن ، امام هذه الشخصية التي وقفت في وسط القاعة تستقبل اضيافها .

ذلكم فيصل ملك العراق .

طويل القامة ، دقيق الجسم ، جميل الوجه مستطيله ، عينان سودوان جميلتان ، تضيئان مظهراً كله روعة وجلال

لقد ترك الملك لسنوات خلت لباسه الحريري البدوي ، وعقاله العربي ، وراح يرتدي اللباس الاوربي ، وهو في اللباسين حقاً عظيم الهيبة ، شديد الوقار ، كبير الجلال

وان هو اخذ مكانه على الديوان العربي وراح يتكلم بالافرنسية ، او ترك نفسه على سجيتها وراح يتحدث بالعربية في لهجتها البدوية الفخمة ، رأيته وانامله الجميلة لا تكاد تستقر في مكان فهي ابداً تتلمس ما امامها او قريباً منها من المزاهر وغيرها ، او هي تتناول لفافة من التبغ تشعلها فيندفع دخانها الى سماء الغرفة هادئاً ساكناً

فان خرج المرء من مجلسه راح مطمئناً بانه كان امام رجل يسعى لاقرار ما هو مؤمن بانه واجبه ، وكان هذا شأنه في سالفات الايام ، وفي ابان الثورة العربية (١٩١٦ — ١٩١٧ ، اليس يقال انه كان ابداً منصرف الفكر الى استكمال معدات الفلاح والنصر في ما اعتزمه من عمل ، وراح يهيء له الاسباب من مناوشات ومعارك .

وهو اليوم على عرش العراق مثله في الصحراء ، يندفع لاقرار مختلف الوان الاتقان في مملكته الفتية الناشئة ، هذا واجبه مسطور امامه ، وهذا ما هو معتزم ان يقوم به حتى الثمالة .

وفيصل الملك لا يزال شاباً .. والمستقبل امامه ، وان كان الوقت رطباً موفقاً يستطيع معه الكاتب المؤرخ ان يتحدث عن

مصاير العراق وفاقاً للمظاهر والاحداث السياسية التي سلفت والتي سيكون لها اكبر الاثر في تاريخ العراق ومستقبله

***

لقد كان الوقت الذي توفر لي لتصحيح هذا الكتاب قليلاً ضئيلاً ، ففي الكتاب فصول لم اوفق الى التبسط فيها لقلة مصادرها ومستنداتها ، وهناك غيرها مما تبسطت فيه وتوفرت لي الاسباب في انشائه

والفصول التي تفضل جلالته وراح يحاورني بشأنها يتعلق اكثرها في ماضيه وسابقات اعوامه ، وقد نشرتها في كتابي هذا كما املاها علي جلالته ، وراح يحدثني بها اما في غرفة الضيوف في القصر الملكي ، او على شرفة مصيفه في (الحارثية) .



- ١ -

الطايف

تبسطت الطائف ، المدينة المسورة ، على انجاد مرتفعة في الجنوب الشرقي من مكة المكرمة ، وراحت تضرب في الارض في ما يبعد عنها بنحو من اثنين وسبعين ميلاً ، ثم استقامت على طريق القوافل التي تمر بارضها الى مرتفعات اليمن وانجاد العسير .

واذا لم تكن المدينة جميلة فتانة لضيق شوارعها ، وقيام دورها من طين وجص فان ما حولها يضطرب في جمال وفتنة غير عاديين

وهي بعد بلد توفر له من الخطر الجغرافي شيء كثير ، فان هذا الوابل الذي ينتابها في فترات السنة وينهمر مدراراً ما بين حاشيتي الايام من فصل الشتاء قد مكن لارضها خصباً وجودة ، فقامت فيها اشجار الصمغ التي تقتنص الهواء من مرتفعات الجبال ، مكان اشجار النخيل التي تكثر في المناطق الحارة ، وانتظمت في ارضها الاشجار المثمرة ، والكروم الغنية ، والوان الحبوب ، وامتدت منها الى ضواحي الصحراء ، و كثرت فيها الورود ينتفع منها اصحاب صناعة العطور من تجار مكة .

وتنعم المنازل الخاصة في الطائف بالحدائق الفريدة من نوعها في هذه الارض المجدبة فليس عجباً والحالة هذه ان يقصدها تجار الأودية الأغنياء، يقضون فيها فصل الصيف ويستمتعون بما فيها من لطيف الهواء ولذيذ الفاكهة، واصناف العسل والزبدة، والوان الأشربة مما ينتظم في الطائف وحدها فلا يزاحمها فيه سواها

ولقد كانت الطائف عاصمة الحجاز في الصيف، وكانت من اعمال مكة، وللشريف فيها قصر يقع بين اسوارها، فاذا اشرف موسم الحج راحت تمر في ارضها قوافل الحجيج الى حيث تقام الشعائر الاسلامية في المدينتين المقدستين مكة والمدينة.

وهو منظر بديع هذا الذي تظهر به اسواق الطائف وطرقها في ايام الحج وغيرها، فتكثر الحركة وتزداد الجلبة وتتوفر التجارة بما يحدثه هؤلاء التجار في حلهم وترحالهم من حركة وضوضاء، كما ان تجار اليمن انفسهم كانوا يمرون في ارضها في نزولهم اليها ومآبهم منها، فكان يقصدها والحالة هذه اصناف الناس كل يتعلق فيها بسبب، حتى البدو كانوا يهبطونها يعرضون اغنامهم في اسواقها

***

في هذه البيئة الضاحكة الباسمة، التي رحنا نتوفر على تصويرها وفي فصل من فصول الصيف، حيث تكون الارض فيه ضاحكة

زاهية، كثرت اشجارها وزهت فروعها، ابصر النور صبي في قصر الشريف، فاسماه والده (فيصلاً) اي السيف، وكان ذلك في اليوم العشرين من شهر مايس سنة ١٨٨٥، وما هي الا ايام سبعة حتى حمل الصبي من حضن امه — كما تقضي التقاليد العربية الارستوقراطية — الى مرضع تعني بتربيته في الصحراء، وتتوفر على نشأته الاولى بين فتيان القبيلة البدوية.

وكان الشريف حسين بن علي والد الطفل، احد افراد الاسرة الهاشمية، ومن آل بيت النبوة، وكان كثير الرغبة والحرص في ان تنتظم له الامارة على مكة وحراسة الكعبة، كما انتظمت لوالده في ماضيات الايام.

ولكن سلطان تركيا وخليفة المسلمين في ذلك العهد اراد هذا المنصب لغيره من ابناء الاسرة الهاشمية، فوجد الشريف لذلك وجداً شديداً، والقي في روعه انه قد خدع ودافع عن حقه، وابى على نفسه ان لا يكون رأساً في بلده، وفضل النزوح الى البادية يقيم في ارضها ويعيش بين قبائلها وينتقل في مفاوز الصحراء ورمال الحرية، هذا الى ما كان يجده في نفسه من اطمئنان لتقاليد البداوة وانصراف عن ترف العيش الى شظفه وشديده.

ولئن وجد الحسين نفسه في موقف غير عادي، فما كان عرب الحجاز اقل منه اضطراباً في ما يتصل بمصايرهم الحاضرة وحالتهم

الراهنة .

ولئن ذهبت الايام بتاريخ الحضارات الاولى ، فما راح يعني بها احد ، ولا ذهب يبحثها باحث ، ولا هي راحت بدورها تثير في النفوس حب الاستطلاع برغم ما كانت تظهره الحفريات الاخيرة من تاريخ اثيل ومجد باهر ، فان تاريخ الاسلام ونشأته الاولى كانت لا تزال ملء السمع ملء البصر

لقد كان الزحف العربي الاسلامي الذي غمر العالم مدهشاً حقاً غلب الارض من اقصاها الى اقصاها في فترة من الزمن ، وامتد من الهند الى اسبانيا وهذه الخلافة التي شاد امجادها خلفاء محمد (عليه السلام) في الحجاز والشام والعراق والقاهرة قد استقرت اليوم على ضفاف البوسفور وتمثلت في شخص الخليفة العثماني ، وسلطان الترك ، ولكنها في رحلتها هذه ، وفي طوافها السريع العظيم ، لم تعد الى منشأها فظلت بعيدة عن الحجاز ، غريبة عن العربية

كان الحجاز في هذا العهد اقليماً بعيداً قصياً من اقاليم الامبراطورية العثمانية ، يقوم فيه حاكم تركي ، ولم يكن له من الشأن والخطورة الا بمقدار ما للمدينتين المقدستين من شأن في الاسلام وتقديس في نفوس المؤمنين ، وكان الى ذلك بلداً لا تضرب فيه ضريبة ولا توضع عليه جزية يعيش اهله من موسم الحج ، وتقوم فيه الحكومة التركية بمصاريف الادارة والحكم . واما من الوجهة

السياسية فقد كان ضعيف الاثر قليل الشأن .

***

كان الحسين في الثلاثين من عمره لما ولد له « فيصل » ثالث ابنائه ، وكان ضعيف الجسم هزيله ذا عينين حادتين في مهابة وجلال عظيمين .

مقداماً ، طموحاً ، تقياً ، قليل الاكتراث لالوان الحياة الضاحكة .

جريحاً في عزته ، غضوباً للحيف الذي لحقه ، كبير الامل في نفسه ، شديد الاطمئنان الى مستقبله ، كثير التقديس لمثله الاعلى .

واذا اضفنا الى ذلك ما راح يحاوله من ارسال فتاه الى البادية يعيش بين قبيلته (بني العبادية) وانصارهم من (بني عتيبة) فيقيم بينهم سنوات سبعاً ادركنا السبب الذي من اجله اخذ يهتم السلطان في ذلك الحين بامر هذا الشريف العربي وشأنه واغراضه

ولقد كانت حياة البادية في هذا المهد لا تختلف كثيراً عما كانت عليه في سالفات الايام ، فكان زعماء القبائل وشيوخها يتحكمون في آلاف الرجال ، وكانوا يعيشون في الخيام على عادة البدو ، ويعتمدون في معيشتهم على ما تنتجه لهم ماشيتهم من لحوم والبان ، اما اصوافها فكانوا يبيعونها او يتخذون من اوبارها خيامهم وكانوا يعتمدون في تغذية هذه الماشية على الطبيعة ، يخرجون بها

في مواسم المطر الى منابت الكلاء، فلا يستقرون في مكان ، ولا تنتظم لهم منازل ولا دور .

حياة بسيطة على الفطرة، فيها جمال وعلو نفس ، وفيها اباء وشمم والبدوي ينعم بمزايا عديدة ، فخور كريم ، محب للحربة، حقود لا يترك ثأره حتى يناله ، يشيد بذكره المرأة في شعره ولا يرى كبير امر في استخدامها كاحد الخدم في اعمال النهار ومصالح العيش.

وهو شاعر بكل معنى الكلمة ، وانك لتجد في حواره العادي من الشعر شيئاً كثيراً ، يتداول شعر اسلافه ويشيد بذكر شعرائه واقوالهم، بينه وبين نفسه وبينه وبين قومه حين ينزلون منزلاً ، او يجلسون الى نارهم في البادية كلما كان الى ذلك سبيل.

ونشأ فيصل في هذه البيئة طويلاً قوياً كثير الحركة يقضي حياة الطفولة بين اترابه من فتيان البادية وابناء القبيلة ، ويتعرف على الروح البدوية التي كانت معرفتها ضرورية له في مستقبلات اعوامه، ولما استوى رجلاً كان قليل التفكير في ماضيات ايامه هذه، فقد اخذت ضروريات الحياة الحاضرة تملأ كل افكاره، لا تمكنه من التحدث عن حياته السالفة ، وطفولته الجميلة البريئة

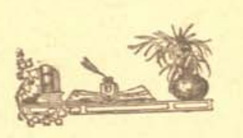
لقد رح احد اصدقائه يسأله يوماً عن حياته هذه فقال له:

« ماذا تريد ان احدثك عن طفولتي ... ان ما اذكره قليل

ضئيل ... لقد عشت في احدى الخيم البدوية في الصحراء ... فلما اشتد ساعدي رحت العب مع فتيان القبيلة

واني لاذكر يوماً كسرت فيه احد ساعدي وانا اتسلق بعض الصخور ، ولا يزال في وجهي اثر من ضربة حجر اصابتني في معركة مع بعض اترابي ... والواقع اني لا اذكر من هذه الامور شيئاً الان !!

واما اول ما طرأ من تبدل خطير في حياة فيصل ، فهو يوم صدر الامر بنقل والده مع اكبر ابنائه الى القسطنطينية ، وكان فيصل في ذلك الحين في الثامنة من عمره.



- ٢ -

القسطنطينية

كان عبد الحميد خليفة المسلمين وسلطان العثمانيين يحكم الامبراطورية العثمانية التي كانت مهددة بالانحلال والتمزق لتسرب الفوضى الى نظمها الحكومية ، واستفحال الخلاف بين الشعب وحكومته ، لما وصل الحسين بن علي وابناؤه الى القسطنطينية

وكان عبد الحميد في استدعائه للحسين واولاده اليه يسير وفاقاً لذهنيته وسياسته من ضرورة ابعاد الشريف عن الحجاز مخافة ان يثير فيها الفتن، ويبعث في جوها القلاقل لاستعادة حقه المسلوب في الامارة الحجازية.

وخصص الخليفة لضيفه داراً تطل على القرن الذهبي ، كما انعم عليه بعدة رتب منها رتبة الوزارة وعضوية المجلس الاعلى للامبراطورية العثمانية ، وهي وظيفة كان والد الحسين ينعم فيها قبله وما ان وقعت الفريسة في يده حتى راح عبد الحميد يبقيها في عاصمته ثمانية عشر عاماً .

وليس اصعب على المرء من المقارنة بين هذين الرجلين ، فقد

كان عبد الحميد داهية ماكراً اكثر منه لبقاً ذكياً ، وكانت افكاره منحصرة في سلامته، وما الى ذلك من الرغبة الملحة في المحافظة على هذه السلامة، فراح بقتل كل شخص يقف في طربقه ، وكان خوفه هذا يسيطر على افكاره وحياته سيطرة عظيمة.

واما الحسين فكان قوياً عنيداً جسوراً زاهداً في هذه الحياة المترفة التي كان ينعم بها السلطان ، وكانت اقامته في العاصمة التركية حيث كان الناس يحنون الرأس نزولاً منهم عند ارادة رجل واحد سبباً في تغذية عواطفه الاستقلالية وحبه للحرية

ولم يكن عبدالحميد رجلاً غبياً ولكنه اضاع الفرصة السانحة فقد كان بطوقه ان يكون رجلاً مصلحاً عظيماً يحبه شعبه، ويعززه التاربخ ، فراح يفضل على هذا ان يحكم المملكة وفاقاً لمشيئته وهواه ، وان كان هذا مما يدعو الى نفرة شعبه منه ، وابتعاده عنه.

لقد جلس على العرش سنة ١٨٧٦ بعد خلع عمه عبد العزيز الذي انتحر بعد ذلك ، كما خلع شقيقه قبله لظهور امارات الجنون عليه .

وكان الناس ينظرون اليه قبلاً ، كامير من اصحاب المبادىء الحرة ، لذلك راح يساعده السياسي المعروف مدحت باشا للجلوس على عرش اجداده ، ثم راح ينشيء له دستوراً يساعد على

قيام حكومة منظمة في هذه الامبراطورية الواسعة الاطراف، ولما عرضه على عبد الحميد وافق عليه ، ولكنه لما جلس على العرش انكره وراح يعارض اقراره وتنفيذه .

بيد ان الحوادث نفسها راحت تساعد مدحت باشا لاقرار ما اعتزمه من اصلاح في الامبراطورية ، وقد اظهر مدحت باشا ذكاء في الاستفادة من الظروف والتوفيق بينها وبين اغراضه

فقد كانت اسواء الحكم السابق واخطاؤه في مختلف الاقطار العثمانية قد اثارت العواطف ولفتت انظار الدول الاوربية ، ودفعتها الى المطالبة بعقد مؤتمر في الاستانة بعد شهرين من جلوس عبدالحميد وكانت اغراض هذا المؤتمر ترمي الى حمل تركيا على الاصلاح والاحسان في معاملة رعاياها على اختلاف المذاهب والعقائد

وهو امر اجفل السلطان واخافه ، ولكنه اثنى على مدحت لما راح هذا يعرض عليه رأياً فيه صلاح له وللامبراطورية وقضاء على الاغراض الاجنبية التي كانت الدول تحاول استثمارها من عقد المؤتمر المزعوم

ولما عقد المؤتمر ، واجتمع مندوبو الدول في احدى قاعات الاميرالية التي تطل على القرن الذهبي للبحث والمداولة ، اسقط في ايديهم لما سمعوا طلقات المدافع تدوي في فضاء العاصمة ، مئة طلقة وطلقة، واجفلوا وراحوا يتساءلون عن الخبر ، فاذا بقائل يقول :

هي تحية العهد الجديد ، فان السلطان قد اصدر دستوراً جديداً اعلنه على شعبه .

وقفل وفود المؤتمر الى بلادهم ، وليس من يثق منهم بدوام الدستور الجديد والحرية العتيدة ..

اما الامة فقد تقبلت الدستور الجديد بفرح وحبور عظيمين ، ودعى مجلس النواب الجديد للاجتماع ، وافتتح جلسته الأولى الخليفة بنفسه ، وسار في موكبه الفخم في شوارع العاصمة ، بين اصوات الجموع وتكبير الناس ، والدعاء بحياته وطول عمره

***

لقد كلف هذا الحلم الجميل مدحت حياته ، واما المجلس الجديد فلم يعمر طويلاً ، واقفله السلطان بعد شهرين من اجتماعه ولما تمكن السلطان من الدول ومن الامة ومن مدحت نفسه ، راح يحكم البلاد وفاقاً لهواه وذهنيته ، ولئن كان اسلافه يحكمون بواسطة وزرائهم ، فقد رأى عبد الحميد ان يحكم بواسطة مكتبه الخاص وموظفي قصره

ونقم السلطان على مدحت الذي ساعده على الوصول الى العرش والذي كان بامكانه ان يمكن له في الملك ويزيده رفعة ومجداً فاتهمه بالاشتراك في مقتل عمه السلطان عبد العزيز — وان كان هذا قد مات منتحراً — ونفاه الى الطايف ، حيث قتل بعد ذلك

بأمر من السلطان نفسه

ولما وصل الشريف وابناؤه الى الاستانة كانت المذابح الارمنية التي بدأت سنة ١٨٩٤ قد اثارت عاصفة شديدة من الاستياء في المحافل الاوربية السياسية وفي الصحف العالمية

وكان عبد الحميد قليلاً ما يأبه لاقوال الصحف ونزعات الرأي العام.

فقد كان يعيش في قصره الابيض البديع وحوله الحرس الكبير من الجند والشرطة والخدم والحشم والعبيد والخصيان والعيون، ما يقرأ غير هذه التقارير التي يحملها اليه عيونه في صباح كل يوم، فاذا انتهى منها راح يقرأ بعض الاسفار البوليسية، او ذهب يتمرن على اصابة الهدف، او مشى الى مقاصر الحرم، او انصرف الى اعماله اليومية من ادارة المملكة الواسعة ودراسة تقارير رجاله وحكامه وموظفي قصره، والواقع ان عبد الحميد كان سلطاناً كثير العمل جلوداً ذكياً، وليس ادل على ذلك من تمكنه من حكم الامبراطورية ثلاثين سنة ونيفاً برغم المساعي التي كانت تنصرف اليها الدول المختلفة لحمله على تبديل خططه وتغيير طراز الحكم في امبراطوريته.

***

لقد كان الحسين بن علي يعرف القسطنطينية قبل زيارته لها

في عهد عبد الحميد فقد وفد اليها سنة ١٨٥٥ وتثقف في مدارسها، فلما وافاها مكرهاً في ما قصصنا خبره قبلاً، ضم الى بنيه مربياً، وما هي الا اشهر قليلة حتى اخذ الامراء الفتيان يتعودون هذه الحياة الجديدة، ويحاولون التنعم بما في مظاهرها من الوان تختلف عن حياة الحجاز والبداوة

ولما راح فيصل الملك يتحدث عن حياته في الاستانة قال :

« كانت ضيقة شاقة، لم يكن يتوفر لنا اللحم فيها الا مرة في الاسبوع » الواحد

وما لبث ان زاد على ذلك قائلاً :

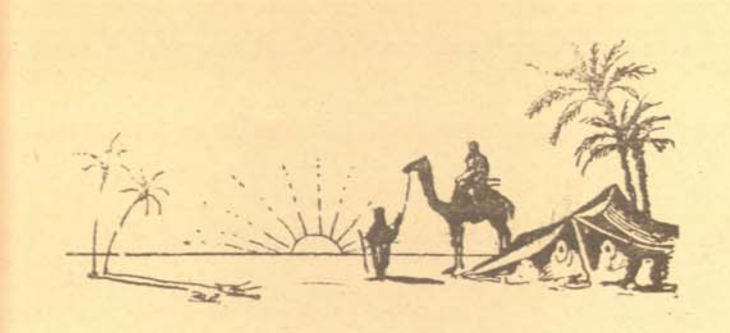
« ولعل هذا من ضروريات التربية الصحيحة »

لقد كانت القسطنطينية في هذا العهد بلداً مليئاً بالاحلام، ولا بد انها اصابت من فؤاد الشريف الفتى اثراً قوياً، لاختلافها عن الحجاز وبداوة العرب في كل مظاهر الحياة والعمران، هذا الى ما كانت تنعم به من جمال طبيعي لم يكن من السهل تجاهله وانكاره

ولا بد انها كانت في عهد عبد الحميد، اكثر لطفاً، واشد تأثيراً منها في عهد مصطفى كمال لما تناولتها المدنية الغربية بكثير من «الرتوش» والاحسان، ولا بد انها كانت في ذلك العهد، عند نزول الحسين بن علي فيها، موطناً شرقياً نادر المثال،

بملابس ابنائها، وقيافة سكانها ، وعمارة دورها ، واضطراب شوارعها ، وغير ذلك مما كان جديداً غريباً عند ساكن الصحراء وابن القفار

واما نحن فالذي يهمنا من كل ذلك هو ان فيصلا قد تمكن في القسطنطينية من ان يتوفر على الدراسة والاستفادة، وهو ما كان كثير الخطورة في مصايره وفي المستقبل القريب



- ٣ -

من استعباد الى آخر!!

لقد صرف الحسين بن علي شطراً كبيراً من عمره في القسطنطينية، وان كان قد عاد الى الحجاز بعدوفاة والده وقضى فيه الباقيات من ايامه.

وكان عمه عبد الله شريفاً لمكة في هذا الحين ، وكان الحسين قد تزوج ابنة فولدت له اولاده الثلاثة ، وتوفيت لما كان فيصل في الثالثة من عمره ، فتزوج الحسين سيدة تركية من عائلة شريفة محترمة ، هي حفيدة فواد باشا الكبير الذي كان بعيدالصيت، عظيم الشهرة لما راح ينصرف اليه من بث الروح الوطنية والاستقلالية في بني قومه وبين صحبه وانصاره.

وقد ولد للحسين من زوجه الثانية زيد ولده الرابع وابنتان .

وكان الوقت صعباً على بعض الجماعات التي كانت تسكن الامبراطورية العثمانية ، فان المذابح الارمنية ، كانت امراً واقعاً في هذا العهد (١٨٩٥ – ١٨٩٦) وقد اراد المارشال فؤاد باشا ان لا يسمح بهذه المذابح في المنطقة التي كان حاكمها العسكري فكاد

موقفه هذا يذهب بمركزه ويقضي على حياته.

***

ونشأ فيصل نحيفاً رقيق الجسم، ولكنه كان ذكياً مندفعاً تمده ذاكرة قوية، وتدفعه رغبة ملحة الى تلقي مختلف العلوم وشتى الوان المعارف.

و كان محيطه مليئاً بالمخاطر ما يستقر الا بمقدار، فكان من اثر هذا المحيط المضطرب القلق في نفسه ان وطد من عزمه وزاد في انتباهه ويقظته، ومكنه من تلقي فنون السياسة وما يجب ان ينعم به السياسي من لباقة وحسن تصريف للامور، وتعلم كذلك مبادىء الفنون العسكرية من اختلاطه في الجيش التركي الذي كان يقوم على تدريبه ضباط من الالمان

و كانت تركيا في هذا على اتفاق مع المانيا واغراضها السياسية، فزار القيصر السلطان سنة ١٨٩٨ وتمكن من الحصول على امتياز سكة حديد الاناضول، وفي السنة التالية نالت المانيا امتيازاً بمد خط حديدي بين الاستانة وبغداد، وفي سنة (١٩٠٠) شرعوا في مد خط حديدي يربط الحجاز بالبلاد السورية، وفي سنة ١٩٠٣ احتفلوا بافتتاح القسم الاول من خط بغداد

و كان عبد الحميد يرى في الخط الحجازي عملاً من اكبر الاعمال التي قام بها في عهده، وان كان عبد الحميد لم ينشئ الخط المذكور

من ماله، بل من تبرعات المسلمين المؤمنين في انحاء العالم الاسلامي، حتى لقد ذهب بعض ذوي المعرفة يتهمون السلطان او عزت باشا باستثمار بعض هذه التبرعات لمصالحهما الخاصة، والواقع انه كان بامكان السلطان ان يؤيد ملكه ويوطد سلطانه بصفته خليفة المسلمين وخادم الحرمين الشريفين، لو اتصل شره بالمسيحيين من رعيته فحسب، ولكن ظلمه واستبداده واضطهاده كانت اموراً عامة لا خاصة، حاقت بالمسلمين كما حاقت بغيرهم، فذهب منهم العدد العديد لوشاية كاذبة، او لامر تافه، او لغير ذلك من الامور التي لا تشكل جرماً، ولا تعد شيئاً مذكوراً، فنشطت لذلك الجمعيات السرية الاسلامية في باريس وسويسرا ومقدونيا ودمشق التي اصبحت مركزاً للشغب والدسائس، وكل يعمل لاثارة الرأي العام والعمل على قيام حكم دستوري وطني حر في البلاد

ثم تألفت لجنة مركزية في سالونيك، واخرى في باريس برئاسة احمد رضا بك، وانصرفوا جميعهم لحمل السلطان على بعث الدستور، الذي اقره مدحت باشا وصادق عليه مجلس النواب

ولقد اشترك المسيحيون واليهود مع اخوانهم المسلمين في تأييد هذه الاغراض الوطنية، واخذت الثورة الفكرية تأخذ مكانها في الصدور والقلوب التي جرحتها السياسة الاستبدادية القائمة.

وظهرت للوجود جمعية الاتحاد والترقي ، وهو الاسم الذي اطلقه على جمعيتهم طلاب الاصلاح من الترك وغيرهم ، وسارت الثورة سبيلها في البلاد ، وايد بعض افراد الجيش الحركة ، وراح يقود هؤلاء الافراد نيازي وانور .

وكان من الحق على هؤلاء المنفيين من الحجاز ان يؤيدوا حركة الاصلاح ويتولوها بعطفهم وثقتهم ، خصوصاً وقد اثارت هذه الحركة في نفوس العرب فكرة جديدة ترمي الى تحرير العربية واستقلالها . وبتمكن هذه الفكرة الجديدة في نفوس المنفيين اخذت تضطرب قلوبهم وترتعش افئدتهم وتحترق انفاسهم لما وجدوا انفسهم امام حلمهم الذهبي الجميل ، ولكن اضطراب عبد الحميد كان يختلف عن اضطرابهم وشعوره لا يتفق مع شعورهم خصوصاً لما نقلت اليه اسلاك البرق ما اعتزمه ملك الانكليز ادوارد السابع من الاجتماع بقيصر الروس في (ريفال) لبحث قضية الاصلاح في مقدونيا ، ولكنه لم يؤمن بخطورة الموقف الا حين تناول برقية من سالونيك تطلب منه اعلان الدستور او اعتزال الملك ، وراح الوزراء مدة ايام ثلاثة يبحثون الامر ، ويقلبون وجوه الحوادث وليس من يجرأ منهم على حمل الخبر المفجع الى السلطان ، ثم اجتمع الرأي على ان يعهدوا لاحدهم بذلك ، وفي مساء اليوم نفسه ابرقت الوزارة الى رجال الثورة بان الخليفة قد رضي باعلان

الدستور

واخذت القسطنطينية جنة ، فراح اهلها على اختلاف المذاهب والاجناس والمنازع يهزجون ويهتفون ، ويقبل بعضهم بعضاً ، وقد غمر الفرح والمرح قلوبهم لما علموا بزوال الحال ، وتبدل الاحوال ، وخلوصهم من الظلم ، ونجاتهم من عيون السلطان ورجاله

ومشى عبد الحميد في موكبه يفتتح المجلس فتنادى الناس يقفون في طريقه ويهتفون بحياته ، وقد القي في روعهم انهم في عهد جديد وان مليكهم وقد اقسم ليصونن الدستور وليدافعن عنه ، ليس بعائد عن قسمه ، ولا حانث بيمينه

***

وكان المجلس ثقيل الظل ، عظيم الشغب ، كثير الفضول ، فقد راح اعضاؤه يعرضون للسلطان نفسه ، وذهبوا يتناولون بالحذف والطرح فصول موازنته ، وابواب نفقاته ، ثم عمدوا الى وزرائه يرمونهم بكل فرية ، واندفعوا الى ماضيات الاحداث يبحثونها ويتناولونها اخذاً ورداً ، وليس هذا مما يسر عبد الحميد ويرضيه ، فراح يدعوهم الى مأدبة عشاء في قصره ، وراح يتكلف لهم الواناً من العطف والرضى ، وعبد الحميد اكثر ما يكون خطراً حين يكون ضاحكاً باسماً .

ومثل الامير عبد الله مكة في المجلس ، وناب شقيقه
فيصل عن جدة ، وحضر الاميران حفلة افتتاح المجلس الجديد ،
وراحا يكثران من التردد على قاعاته حيث كانت تعرض للبحث
المسائل العربية بين فترة واخرى من الزمن ، وكان رجال
جمعية الاتحاد والترقي يذهبون في سياستهم الجديدة الى تتريك
العناصر التي تؤلف الامبراطورية العثمانية ، وكانوا في سياستهم
هذه اشد شراسة واستبداداً من اسلافهم من السلاطين والوزراء ،
وعندئذ تحرك عبد الحميد يؤيده العلماء والفقهاء الذين راحوا يتنادون
بان الدستور الجديد مناقض للشريعة مخالف للدين ، وقام بعض رجال
الجيش من مؤيدي عبد الحميد يعملون على اقرار هذه الفكرة بالقوة
والسيف ، ووقف بعضهم في طريق المجلس يمنع النواب من الوصول
اليه ، فاختفى بعضهم واعرض سواهم ، واندفع فريق يحاول الوصول
الى المجلس ولو بالقوة ومنهم النائب الدرزي الامير محمد ارسلان بك
فذهبت بحياته طلقة نارية القته صريعاً يتخبط بدمه .

وثبت رجال جمعية الاتحاد والترقي ، وتقدم احد كبرائهم
شوكت باشا يزحف على القسطنطينية على رأس فرقة من الجند ،
فاسقط في يد عبد الحميد ، واحس بانفراط انصاره ، وتضعضع شمله ،
فاعتزل الحكم وتنازل عن العرش لشقيقه

وبقيام سلطان جديد على عرش القسطنطينية استطاع الشريف

حسين ان يعود الى الحجاز مع اولاده وعائلته ، فمنحه رجال تركيا
الفتاة لقب (امير مكة) وهو لقب كان سيعود اليه حتماً بعد وفاة
عمه الشريف عون الرفيق ، وظل ابناه يمثلان مكة وجدة في
المجلس ، ويركبان طريق البر اليها كلما دعت الحاجة الى ذلك ، فاذا
ماعادا الى مكة كان امر الشريف اليهم بالذهاب الى الصحراء يعيشون
فيها عيشة بعيدة عن مظاهر الترف ، والوان الحياة الحاضرة .



— ٤ —

في سبيل الوحدة العربية

اصابت الحركة العربية الاستقلالية — بنجاح تركيا الفتاة — حظاً من التقدم والفلاح ومثله من الفشل والمعاكسة ، فقد القي في روع الناس جميعهم في اول الحركة ان الاقليات في الامبراطورية العثمانية واجدون حظهم من الاستقلال اللامركزي ، ومثله من الحرية والديموقراطية ، ولكنهم وجدوا ما املوه سراباً خلباً . ذلك ان جماعة تركيا الفتاة كانوا رجالاً اشداء مستبدين ليس بطوقهم مجابهة الحوادث التي عرضت وتعرض لهم ، وليس بميسورهم ان يقوموا بالمهمات التي ستلقى على عواتقهم لان الامبراطورية العثمانية التي كانت تعج بمختلف الجماعات والشعوب لم تكن من الحكومات التي يستطاع حكمها بسهولة ونجاح ، خصوصاً وقد ذهب جماعة الاتحاد والترقي الى اقرار ما جعلوه شعار حكمهم من بذل الجهود في تتريك هذه العناصر المنوعة المشارب المختلفة المذاهب ، وهو ما كان يمقته العرب ولا يتقبلونه ابداً . ولم يكن الترك قد فكروا في هذا الوقت بترجمة القرآن الى التركية وتلاوته

في المساجد وغير المساجد، ولكنهم راحوا يكتبون اسماء الشوارع بالتركية ويصدرون القرارات بالتركية ، وهي لغة لم تكن اكثرية العرب تقرأها ولا تعرفها

ولقد كان من مظاهر الحكم الجديد في تركيا ان اصيبت هذه بنكبة قوية ، فان ايطاليا راحت تحتل طرابلس الغرب ، واخذت دول البلقان تحارب اسيادها السابقين

ولم يفكر الترك بالمسألة العربية وبمطالب العرب الا بعد هذه النكبات التي اصابتهم في الصميم فراحوا حينئذ يفكرون في ما يستطيعونه لاكتسابهم وتوفر المودة بين الحكومة القائمة والشعب العربي

وليس هناك شك في ان الامم العربية كانت محقة في غضبها وسخطها ، وكانت هذه الاقطار التي تشكو من نير تركيا الثقيل اكثر من سواها وغيرها قد اخذت تعقد المؤتمرات، وتدرس الخطط وتبحث الموقف ، في العراق والحجاز وفلسطين وسورية وكانوا يتصلون مع بعضهم بواسطة رسل تركب الخيل في البادية وتنقل البرد والرسائل من مكان الى آخر .

وهذه البادية التي كانت منذ فجر الحضارة حجر عثرة في سبيل المواصلات كانت رحبة الصدر في ما يتصل ويتعلق بهذه المراسلات السرية التي كان يحملها رسل امناء من موطن عربي الى

شقيقه في الطرف الاخر من الصحراء

***

وكانت دمشق مركزاً لهذه الدعايات ومقراً لاصحاب الدعوة ، وهي بلد جميل يقع على اطراف الصحراء ولا يبعد كثيراً عن البحر . والسوريون كانوا ولا يزالون اصحاب ذكاء وحذق ومخاطرة ، وبلغت الحركة الوطنية اشدها لما دعا كامل باشا رئيس الوزارة التركية الى عقد مؤتمر وطني في شهر كانون الثاني من سنة (١٩١٣)

وكان من سوء حظ العرب اعتزال هذا السياسي الوزارة وقيام وزارة جديدة برئاسة شوكت باشا ، لم تؤيد شيئاً من اغراض الوزارة السابقة فيما يختص بالتوفيق بين العرب والترك ، ولكن المؤتمر العربي الذي اجتمع اعضاؤه في باريس وعقد جلساته في حزيران من سنة ١٩١٣ حمل الحكومة التركية على الاهتمام بالمشكلة العربية ، بيد ان الوزارة القائمة بالحكم لم تكن تحاول من اهتمامها هذا ان تذلل العقبات وتوفق بين الاراء المتناقضة ولكنها راحت تحاول ذر الرماد في العيون ، فدعت الى العاصمة ثلاثة من اعضاء الوفد ، واستبدلت حاكم بيروت التركي بسواه ، وتقدمت الى بعض الزعماء العرب ومنهم بعض اعضاء الوفد برغبتها في تحقيق المطالب ، واحسان الحال ، وعهدت اليهم بوظائف

سامية في مجلس الاعيان وغيره ، وبذلك هدأت الافكار موقتاً وانتقض المؤتمر .

وفي سنة ١٩١٤ دخلت تركيا الحرب العمومية ، وما هي الا اشهر ، حتى راحت تمعن في رجالات العرب شنقاً ونفياً ، وقد كان من الحق — وهي في حالتها هذه بحاجة الى تأييد شعبها وعطفه — ان تعمل لاكتساب وده لالتقتيل رجاله وتشتيت شمل افراده

وفي هذه السنوات اخذت الفكرة الاستقلالية العربية والثورة في سبيلها تأخذ شكلاً جديداً في قلوب العرب خصوصاً الحسين ابن علي واولاده ، ويذكر القاريء ولا شك ان الامير عبد الله كان نائباً عن مكة في مجلس النواب التركي ، وان فيصلاً كان ينوب عن جدة ، وكان عليهما والحالة هذه حين يقومان بواجباتهما النيابية ان يزورا دمشق جيئة وذهوباً

ولا بد ان يكون الامير فيصل قد اخذ يفكر في هذه الثورة وفي ضرورة العمل لتحرير قومه في هذه الزيارات المتتابعة ، ومن الحق ان نقول انه اخذ يتناول بالفكر والدرس ايضاً مصاير خطته ، وما يكون حظها من النجاح ، وما مصاير هذه الرغبة التي اخذ زعماء العرب يعرضونها على الحسين بن علي وعليه ليكونا سيدي الحركة وحاملي لواء الثورة

ولا بد من القول ان سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ كانتا من اشد

السنوات حراجة وخطورة في حياة الامير فيصل ، فكان والده كثيراً ما يعهد اليه فيهما بامور سياسية خطيرة كان عليه للقيام بها ان يضرب الارض بين مكة ودمشق والقسطنطينية ، وكانت آخر هذه المهمات المهمة التي كلفه للقيام بها لما صار الاتفاق على اعلان الثورة ، ولم يوفق فيصل للنجاة من مخالب جمال باشا قائد الجيش الرابع في ذلك الحين الا باعجوبة ، وقد قال جمال باشا في كتابه الذي نشره بعد الحرب العامة والذي اسماه « مذكرات سياسي تركي » بانه لو كان يعرف ما كان يخبأه العرب من الانتقاض على الترك في ذلك الحين لكان قبض على فيصل في دمشق ، وارسل فرقة للقبض على والده في مكة ولكن قضى على الثورة في مهدها

وكان الحسين بن علي شريف مكة قد وعد بارسال فرقة من الجمالة لمساعدة الجيش التركي في صحراء سيناء ، فتمكن لذلك من تأليف جيش قوامه الف عربي ، وكان الترك قد ارسلوا فرقة من جندهم الى المدينة على ان تذهب الفرقتان معاً الى صحراء سيناء وان تكون الفرقة العربية بقيادة الامير فيصل

والواقع ان المباحثات التي كانت تدور بين فيصل ورجال الحكومة التركية في ذلك الحين كانت تحتاج الى كثير من اللباقة السياسية يتوسل بها فيصل ليدفع الشكوك من نفوس رجال الترك ولم يكن فيصل يجهل والده ، وكيف انه كان شديداً جريئاً

فكان كثيراً ما يخشى ان يبرق هذا الى اركان الحكومة التركية بما يجهله فيصل ، وبما لا يسر ويرضي ، فكان لذلك كثير الحذر يعمل المستحيل ليلقي في روع جمال باشا ان القوم مخلصون له مؤيدون لسياسته

وفي سنة ١٩١٥ راح الترك يحاكمون بعض زعماء العرب ثم يسوقونهم الى المشنقة ، كما انهم راحوا ينفون عدداً كبيراً منهم الى اقصى الاناضول بحيث كان يستحيل عليهم مكاتبة انسبائهم وعائلاتهم وكان مما انكره جمال باشا على الامير ما رآه من رغبته الملحة في الدفاع عن رجالات العرب والتماس الاعذار لهم ، كما انه لما زار السلطان محمداً السادس في قصره راح يؤكد له وعد والده بمساعدة الحملة التركية

ولما عاد فيصل في شهر كانون الثاني سنة ١٩١٦ الى دمشق لم يأتها منفرداً وانما دخلها في حرس من رجاله ، كما انه راح يطالب من والده مدداً من الجمالة ذراً للرماد في عيون الترك ورغبة منه في لن يستعين بهؤلاء الجمالة حين الحاجة ، وكان الموقف حرجاً ، واهون الخطأ يذهب بكل شيء ، فتنهار بذلك احلام الثورة ، وينتقض الامل في استقلال العرب .

كما ان حياة فيصل كانت نفسها تحت الخطر ، وشرارة واحدة تكفي لتذهب به وبعائلته وبآمال امة باسرها .

ولقد تمكن فيصل من كبح عواطفه — مع انه بطبيعته كان عصبي المزاج — وبتغلبه على عواطفه، راح يلعب دوراً دقيقاً كان يحتاج الى كثير من ضبط النفس، لقد كان يقامر على امور عظيمة ومصاير خطيرة تتعلق بامته وحرياتها، فكان والحالة هذه باطاعته لاوامر والده، وبتصريف اموره واغراضه يخاطر بحياته مخاطرة عظيمة

***

ولما ارسل جمال باشا في سنة ١٩١٦ القافلة الثانية من رجالات العرب الى الاعدام، كتب في مذكراته يقول :

«لقد اقام فيصل الدنيا والارض لكي يمنع وقوع الفاجعة وينقذ الاسرى من العرب كان كثير العتب والغضب على الاشخاص الذين احجموا عن بذل نفوذهم لانقاذ العرب من القتل.

ولقد ذهبت جهود فيصل عبثاً وظل جمال يقتل من يشاء ويشرد من يريد وينفي من يرغب في نفيه ممن لم يتمكن من اقامة البرهان عليهم ليتمكن من ادانتهم وشنقهم

وقد جنى جمال من اعماله هذه ان نقم العرب على الترك وانهار النفوذ التركي في الشرق كله

وكان ان وصل انور باشا في هذا الشهر (كانون الثاني

١٩١١) الى دمشق ليعمل على جمع الجنود ومهاجمة العراق واسترجاع بغداد، فطلب منه جمال باشا ان يذهب معه في زيارته التفتيشية للمدينة، وكان هذا الخبر مما لا يرضي فيصلاً ولا يسره ذلك انه كان يعتزم العودة الى الحجاز، فان اصبحت هذه الزيارة امراً منظوراً فهو ولا بد مضطر الى مرافقة الرجلين.

وليس من يعلم ما كان يجول في خاطر الرجلين الذين كانا يحكمان تركيا لما راحا يستعرضان بعض افراد المتطوعين من الفرقة العربية التي كانت تعمل لاستكمال تدريبها العسكري، واما افراد الفرقة فكانوا ينظرون اليهما نظرة خاصة ويودون لو يكون بامكانهم وضع حد لحياتهما والقضاء عليهما

سأل انور فيصلاً :

— هل جميع هؤلاء المتطوعة للحرب المقدسة ؟

فقال فيصل — نعم

— وهل هم يرغبون في حرب اعداء المؤمنين حتى الموت؟

فقال فيصل — نعم

***

وهو يعني حقيقة ان رجاله يحاربون رجال انور وجمال، وهل هناك من هو اشد عداوة منهما للمؤمنين

ولكنهما اصبحا اليوم ضيوف والده !!

فلما همس احد رجاله في اذنه قائلاً :

— هل نقتلهما يا مولاي ؟

قال فيصل :

— كلا فانهما ضيوفنا

ورافق فيصل الرجلين حتى المدينة، وعاد معهما الى دمشق . وكان حريصاً كل الحرص ان لا تمتد اليهما يد عربي بسوء، فراح يحرسهما بنفسه ليلاً نهاراً لان المحافظة على حياتهما كانت من شروط الضيافة العربية .

وفي اواسط شهر مايس عاد فيصل الى دمشق كرة اخرى فوجد جمالا شديد الحذر منه، كثير الشك فيه، وكان قد بعث بثلاثة الاف مقاتل الى المدينة بقيادة فخري باشا ليكون بطوقه قمع الثورة اذا ما ذرت قرونها، كما ان الذخيرة التي كان جمال قد وعد بها المتطوعين من العرب كانت محفوظة في المدينة لم تسلم الى اصحابها، وكان الجو مكهرباً فرأى فيصل ان يترك الشام فاستأذن جمالا بالالتحاق بشقيقه الامير علي ليقوم بواجبه مع فصيلة المتطوعين من العرب، واسرع فيصل نحو الحجاز حيث اعلنت الثورة في

شهر حزيران

وكان جمال كثيراً ما يقول حين تذكر امامه الثورة العربية :

« ليس بامكاني الا ان اطلب سخط السماء ونقمتها على الشريف واولاده»



- ٥ -

رسول الملك

فيصل يتحدث عن الحركات الثورية العربية

لقد كان مليك العراق فيصل الاول ، لما نزلت بغداد في ربيع سنة ١٩٣٣ كثير اللطف شديد العطف بحيث راح يستقبلني غير مرة في قصره وزاد ندى فراح يسمح لي بالتوفر على مخاطبته والتحدث اليه بما اريده وارغبه ، فاستغنمت هذه الفرصة ورحت اسأله ان يتبسط في حديث الثورة العربية، وان يعرض لموقفه فيها وشأنه في مصايرها بشيء كثير من الايضاح والتفصيل

وقد زادني جوابه ثقة في ما رحت اسمعه قبلا من انه اذا انصرف الى عمل من الاعمال انصرف اليه بكل عواطفه وقلبه وجنانه، وهو ينعم بقوة الملاحظة وشدة الدقة في ما يريد بحثه وقصه من اخبار واحداث ، واذا ما راح يحدثك بامر او يقص عليك خبراً جل او خطر، وقل او ضعف ، فانه يتناوله من كل اطرافه ،ويتوفر على بسطه وقصه بكل قوته ، وبحسبك ان تنظر اليه وهو يتناول بالحديث اياماً سلفت ، ووقائع غبرت ، لتستشعر امارات القلق تعتور

جبينه ، او تتألق على وجهه ولكنه يعود الى نفسه وحواره فيعرض له كما يعرض المؤرخ لما بين يديه من اخبار ومصادر ، دقة وتبسطا واهتماماً .

وكان جلالته يحدثني بالعربية وكان صديقه وصديقي الامير عادل ارسلان يترجم لي حديثه بالافرنسية ، لان عربيتي لم تكن من القوة والبيان بحيث استطيع تفهم فصاحة جلالته وجلال حديثه، وقد عرضت هذه الاوراق بعدها على جلالته فاقرها ، وهي تنشر في هذا الكتاب كفصول يقصها جلالة المليك نفسه .

« لم يكن والدي الملك حسين يفكر قبل الحرب بالانتقاض على الترك والاستقلال عنهم ، فكان يرغب — كما كان يرغب كل المفكرين في ذلك الزمن — ان ينال من الحقوق والامتيازات ما يسمح له بالاحسان في ادارة شؤون الحجاز تحت ظل الامبراطورية العثمانية .

« وكان لقب امير مكة وراثياً تاريخياً يتوارثه آل هاشم اباً عن جد ، وكان مركزه ككبير العائلة الهاشمية يدعو العرب الى النظر اليه كزعيم يستطيع ان يقف في وجه الترك ، وان يضع لسياستهم ونزعاتهم التركية حداً وان يمكن للعربية في الاستقلال والحرية .

« وقد عقد العرب مؤتمرهم الاول في باريس ، وكان الغرض

منه المطالبة بحقوقهم ، وقداحس الترك بخطر هـذه الحركة فعمدوا الى استرضاء بعض زعماء الحركة يمنونهم بالوعود والامال ويتحدثون اليهم عن رغبتهم في الاتفاق واياهم ، مما حمل بعضهم على القبـول ببعض المناصب التي عرضت عليهم في مجلس الاعيان وغيره ، وهوا مر لم يرض العرب ، كما ان الترك لم يقوموا بالاصلاح الذي وعدوا به

« ولقد انصرف رجال الترك بعد ذلك الى الشغب على العائلة الهاشمية ، والى العسف في البلاد السورية والعراق وفلسطين مما حمل ابناء هذه البلاد على التفكير بوضع حد لالوان العسف التي تنزل بهم ، فكانت دمشق مركز الحركة العربية وانتشرت منهـا الاحزاب السياسية التي كان حزب العهد اشدها خطراً وشأناً

« فلما اعلنت الحرب العامة ظن الترك ان الفرصة سانحة للقضاء على الحركة العربية باقصى الوسائل ، فراحوا يحيلون رجالات العرب من طلاب الاصلاح الى المحاكم العرفية تحكم عليهم بالاعـدام وينفذ الحكم فيهم ، كما انهم عمدوا الى غيرهم فنفوهم الى اقصى الارض .

« ولقد جرب رجال جمعية الاتحاد والترقي قبـل الحرب التخلص من الامير حسين فلم يوفقوا فعمدوا الى وسيلة اخرى ترمي الى حمل الحجازيين على الانفضاض عنه فلم يفلحوا لانّ العرب كانوا يعرفون اغراض الترك الحقيقية والخفية فراحوا يؤيدون اميرهم .

فجرب مركز حزب الاتحاد والترقي الذي كان في مكة تدبير مكيدة ضد الامير وايده قائد الحجاز التركي وتبودلت الرسائل بين مكة والقسطنطينية بهذا الشأن . واراد الله اخفاق المؤامرة فوقعت بعض هذه الرسائل بيد الامير وفشلت المكيدة .

« وبرغم ذلك فقد ظل الامير على رغبته الاولى في الاتفاق مع الترك ولم يزد لما عرف بالمكيدة على اعطائي الاوراق المثبتة طالباً مني ان احملها بنفسي الى رئيس الوزارة في العاصمة

« وكانت الاستانة في هذا العهد — وفي اول الحرب العامة — تضطرب في امرين اولها موقف السياسة الانكليزية من الترك والثاني احتجاج العرب على المظالم والعسف الذي كان ينالهم

« وقد اشرت قبلاً الى ان السياسة التركية في تتريك العرب قد اثارت الخواطر وخلقت بعض الاحزاب العربية السرية التي كانت غايتها مقاومة هذه السياسة التركية والثأر للعرب الذين ذهبوا ضحية هذه السياسة

« وانا وان كنت في طريقي الى القسطنطينية لتقديم الرسائل التي عهد الي بها والدي الى رئيس الوزارة التركية ، الا انه كان قد عهد الي ايضاً ان ادرس الحركة العربية في سورية وان اقف على النفسية العربية فيها لاعلم فيما اذا كانت مظالم الترك قد وصلت الى حد يساعد على الثورة ولأعلم الخطط التي اتخذها هؤلاء الذين

كانوا يعملون للثورة

« وكان الامير عبد الله يمثل مكة في البرلمان العثماني وكان دائماً على اتصال مع رجالات العرب من الذين كانوا يعملون للثورة . وكان كذلك ناقماً على السياسة التركية وكثيراً ما كان يحمل الى والده حين قدومه الى الحجاز آراءه الخاصة وآراء زعماء العرب الذين كانوا يكلفونه التحدث الى والده بنياتهم وآرائهم وكيف انهم كانوا يطلبون من الامير حسين ان يكون رأس الحركة

« وقد اجتمع الامير عبد الله في مصر الى اللورد كتشنر في طريقه الى الحجاز قبيل الحرب العامة ولم يتناول حديثهما السياسة ، لان احداً لم يكن يفكر في الحرب العامة في ذلك الحين ، ولا كان واحدنا يحلم باستقلال العرب عن الترك كل الاستقلال

« والواقع ان زعماء العرب في ذلك الحين كانوا ينقسمون في مذاهبهم السياسية الى قسمين ، قسم كان ينادي بالاستقلال العربي خطوة خطوة ، لان الثورة على الترك قد تقضي على الامبراطورية التركية والبلاد العربية معاً ، وكنت انا وشقيقي الامير علي من هذا الرأي ، وقسم كان يرى الثورة على الترك حالا دون ما استعداد ولا تريث وبينهم الامير

عبد الله .

« فلما رأى والدي نفسه امام فكرتين متناقضتين فضل الانتظار وارتقاب الحوادث لعله يوفق الى الرأي الاصح والاصوب .

« وفي اول الحرب العامة ، وقبل ان يدخل الترك فيها ، وصل رسول الى مكة يحمل كتاباً من اللورد كتشنر الى الامير عبد الله يقول فيه : « ان الاتراك سيدخلون الحرب العامة حتماً لتأييد الالمان فيها ، وان انكلترا تريد ان تعرف موقف العرب من هذه الحرب ، وهي تعدهم انهم اذا لم يساعدوا الترك فيها تركت للعرب حرياتهم واستقلالهم ، وانها لن تضع الحصار على بلدانهم وامصارهم طيلة الحرب العامة .

« فكان جواب الامير عبد الله على هذا الكتاب بعد ان اخذ رأي والده ، ان عرب الحجاز سيقفون موقف الحياد ، وان رجال البلاد العربية الاخرى سيعملون على حمل الترك على عدم الدخول في الحرب ، وانهم لن يسعدوا الترك بالرجال الا اذا اكرهوا على ذلك

« وفي شهر نيسان من سنة (١٩١٥) كنت بدمشق في طريقي الى العاصمة التركية لاقوم بالمهمة التي عهد الي بها والدي والتي سبق لي وتحدثت عنها ، وفي دمشق اجتمعت الى كثيرين من اصحاب

الزعامة ورجال الدين والادباء من مختلف الطبقات وشتى الاحزاب وبعض ضباط العرب ايضاً ومنهم ياسين باشا الهاشمي الذي كان احد رؤساء اركان حرب الجيش ، وكلهم كانوا يعملون على ان اطمئن من جهتهم ويقولون انهم على استعداد لرفع لواء الثورة ، وانهم ينتظرون اشارة مني لذلك .

«فاجبتهم اني اليوم موفد من والدي لبحث الحالة السياسية في دمشق والعاصمة ودرسها ورفع تقريري اليه عنها ، وانه ليس بطوقي ان اتحمل مسؤولية الثورة دون تأييد من جهة قوية او مساعدة من احدى الدول — وكنت غير مغرق بالتطرف معتدل الرأي — وان علي الذهاب الى القسطنطينية ، ثم اعود الى سورية ومنها الى مكة لرفع تقريري الى والدي

«ولما وصلت الى العاصمة وجدتها في اضطراب عظيم على اثر الهجوم الذي كان يقوم به الحلفاء على الدردنيل ، فقدمت الاوراق والمستندات التي كانت معي الى (الباب العالي) الذي انكر المؤامرة وامر ان يصار الى التحقيق في اسبابها ونشأتها والاشخاص الذين عملوا على ترويجها

وقد اجتمعت في العاصمة الى قائدين من كبار قواد الترك ومن الذين كانوا على جانب عظيم من الثقافة والمعرفة بالفنون الحربية فلفتوا نظري الى ضرورة العودة سريعاً الى مكة ، وتنبيه والدي

الى خطة جماعة الاتحاد والترقي وسياستهم التي كانت ستدفع الامبراطورية الى الخراب العاجل

« وزادوا على ذلك قائلين : ان واجب والدي يقوم بانقاذ الاقطار العربية من المأزق الذي زجها به جماعة الاتحاديين ، وكان الترك في ذلك الحين قد اخذوا ينقلون اوراقهم الرسمية ومستنداتهم الخطيرة الى الاناضول ، مخافة ان يتمكن الحلفاء من اقتحام الدردنيل واحتلال العاصمة

« فقررت عند ذلك العمل مع المتطرفين والرجوع الى مكة لانقاذ البلاد العربية

«وكنت احس بالخطر الذي يهدد الامبراطورية والذي اصبح قريباً جداً منها ، خصوصاً بعد ان تحدثت الى بعض كبار رجال السياسة بالامر ، فرجعت مسرعاً الى دمشق فوجدت الافكار في غليان شديد ورأيت ما يشبه الاجماع بين رجالات العرب من ضرورة تحرير البلاد العربية باسرع ما يمكن فوعدت اعضاء الجمعيات السرية باني ساقنع والدي بضرورة الاتفاق مع الحلفاء ، ثم اعود الى سورية لاعلان الثورة

وقد قمت بما وعدت به فتحدثت الى والدي بكل ما رأيته وسمعته ، ثم عدت الى سورية دون ان اثير الشك في نفوس الترك

«وكان الترك قد طلبوا من الحجاز فرقة عربية تعمل تحت قيادتي، وتنضم الى الفرق التركية التي كانت تزحف الى جهات صحراء سيناء، ونظراً لخطورة الموقف، ولاضطراب الاسباب، ولما يهدد حياتي نفسها من خطر فقد رضيت مع الترك بذلك، ولما غادرت سورية الى الحجاز كنت على مثل اليقين من ان سكان هذه البلاد في خطر داهم، وان مصير اكثرهم لا يبعد ان يكون مصير السالفين من الذين شنقهم الترك اوشردوهم في انحاء البلاد من رجالاتهم وادبائهم وكبارهم

«وقبل مغادرتي دمشق اعطاني العلماء (مضبطة) سرية باسم كل العلماء وبينهم كبيرهم الشيخ بدر الدين «والد الشيخ تاج الدين رئيس الوزارة السورية» يعترفون فيها بملكية والدي الحسين بن علي على البلاد العربية، وكان بين الذين وقعوا امضاءهم على هذه العريضة الركابي باشا الذي كان رئيساً لبلدية دمشق في ذلك الحين، وناب عن ضباط العراق في امضاء العريضة الجنرال شكري باشا الايوبي والكولونل ياسين باشا الهاشمي، وناب عن الدروز سليم باشا الاطرش ونسيب بك، وعن العرب من البدو نوري باشا الشعلان، والشيخ نوار الفهد، والشيخ محمد المهان

ولما وصلت الى مكة سردت كل ما سمعته وتحدثت بكل ما رأيته الى والدي، واعلمته اني قد اصبحت من الحزب المتطرف

— بعد ما كنت من المعتدل — نظراً لما رأيته من الموقف الخطير في البلاد العربية، فقرر والدي ان يعمل حالا لمصلحة العرب وللوصول الى ما يرتجيه لبلاده من استقلال وحرية.

«ومع كل الصعوبات التي كانت تعترض طريقه للوصول الى مراسلة دولة اجنبية فقد تمكن من ارسال كتاب الى المندوب السامي البريطاني في مصر السر هنري مكماهون، يسأله فيه عن موقف الحلفاء من العرب الذين كانوا يرومون الثورة على الترك، وذكر له ايضاً ان اغراض العرب تنحصر في ضمانة وحدتهم واستقلالهم من جبال طوروس الى بلاد فارس

* * *

«اما جواب بريطانيا على هذا الكتاب فقد وصل الينا بعد ثلاثة اشهر، كان الترك في خلالها قد قضوا على بعض رجالات العرب وشردوا الآخرين، ومزقوا الفرقة الثانية والخمسين العربية فارسلوا رجالها وافرادها الى بلاد البلقان وغيرها، وبذلك ضاعت فرصة الثورة التي كانت تحمل لواءها في سورية هذه الفرقة وضباطها.

«تناول والدي جواب بريطانيا وانا لا ازال في الحجاز، وكنت في غضون هذه الفترة اتناول الكثير من التحارير المتعلقة

بالحالة في سورية وكيف ان جمال باشا كان يضطهد الذين كانوا
على اتصال بي حين امر في دمشق ، كما راح يكتب الى
والدي بضرورة ارسال الفرقة العربية التي وعد بها والتي كانت
ستساعد الترك في جبهة سيناء

« اما جواب بريطانيا على كتاب والدي فقد كان مطاطاً لا
يعترف بشيء راهن ، فراح والدي يعيد الكرة على مندوب
بريطانيا في مصر بكتاب آخر

« ومع ان عودتي الى سورية كانت شديدة الخطر ، فقد قررت
الذهاب اليها لعلي استطيع مساعدة اخواني العرب ، ولم يمانع والدي
في عودتي ، خصوصاً وهو يرجو ان تخفف هذه العودة من الشك
الذي كان يساور قلب جمال باشا ورجاله في موقفنا واغراضنا

وعدت الى دمشق بعد غياب خمسة اشهر عنها ، فوجدت الحالة
قد تبدلت ورأيت الترك قد مزقوا الجماعات العربية والاحزاب
السياسية التي كانت تعمل في الخفاء على الثورة ، فكتبت الى والدي
اقول ان الثورة العربية ستعتمد بعد اليوم في نهوضها وانتشارها على
الحجاز وحده

ودامت المخابرات بين والدي والحكومة الانكليزية مدة ستة
اشهر اخرى ، كنت في خلالها متعرضاً في دمشق لكل انواع الخطر
وكان كثيرون من اصدقائي في السجن يسامون الوان الحيف

والاضطهاد ويسومهم الترك الوان العذاب لعلهم ينالون منهم اعترافاً
بعلاقاتهم معي ، وقد اظهر هؤلاء الرجال رغم ما اصابهم في الحبس
وما تعرضوا له بعد ذلك من الاعدام بانهم اهل للتضحية في سبيل
حرية بلادهم واستقلالها

« ورأيت بعد ذلك الضرورة تقضي برجوعي الى مكة لمساعدة
والدي في ثورته ، ولكن الترك كانوا يرفضون السماح لي
بمغادرة دمشق

فطلبت من والدي ان يرسل الي قسماً من فرقة الحملة العربية
التي وعد ان يساعد بها الترك ، وقد جاء قسم من هذه الفرقة الى
دمشق ، وكانت غايته المحافظة على سلامتي ومساعدتي في الخروج من
دمشق عند اللزوم ، وكتب الي والدي يقول ان الحكومة الانكليزية
قد رضيت بالمحافظة على استقلال العرب وانه سيعلمني عن موعد
اعلان الثورة

« وفي مايس سنة ١٩١٦ تمكنت من الوصول الى المدينة
بطريق السكة الحديدية ، وبعد اسبوع غادرتها الى مكة حيث
اعلن الملك حسين الثورة

« وقد بدأت الثورة بمحاصرة القوات العربية القليلة العدد لكل
المراكز التركية وبدأوا بالقلعة التي تطل على مكة ثم غيرها من المراكز ،
ساعدت المرأة العربية الرجال في هذه الحرب كما ان الترك في القلعة

كانوا يطلقون نارهم على قصر الملك حسين نفسه ·

« ولقد سقطت كل المراكز التركية في الحجاز بايدي العرب الا المدينة التي كان فيها عدد كبير من جنود الترك يقدرون بنحو من اثنين وعشرين الفاً والتي سلمت بعد الحرب

« ولقد كان الغرض الاساسى من الثورة العربية ان يصل العرب الى استقلالهم ، وكان العرب يعتقدون ومنهم الملك نفسه ان كلمة من بريطانيا تكفي لاطمئنانهم ، خصوصاً وقد كانت هذه الكلمة مؤيدة بتحارير رسمية من رجال رسميين ، وقد اعتقد الملك حسين ان هذه الوعود التي اعطيت اليه تكفي لكي يحمل لواء الثورة ولكي يعرض نفسه وبلاده لكل انواع التضحية في سبيل المثل الاعلى الذي كان يسعى اليه



= ٦ =

الحرب

وقف عربي واهن على شرفة قصر الشريف في مكة وبيده بندقية يستعد لاطلاق النار ، وكان في مظهره ما يدل على رغبة العرب بالحرية والاستقلال ، ولما اطلق العربي رصاصته ، كانت هذه الرصاصة اشارة الى ان السيطرة التركية في الحجاز قد انتهت ، وان الثورة العربية قد بدأت ·

ولقد اظهر الشريف باطلاق رصاصته هذه التي تردد صداها في الطائف وجدة ومكة انه قد اعلن سياسته بصراحة ، وانه لم يبق هناك من مجال للابهام ، وهي بعد دعوة صريحة الى حمل السلاح وعلى اثرها راح ابناء الشريف يقومون بواجبهم في مختلف الساحات والجهات وفاقاً للخطة المرسومة ·

وقد وفق الامير عبد الله والامير زيد الى اخراج الترك من الطائف وجدة ومكة ، واما الامير علي وفيصل ، فقد كان عليهما محاصرة المدينة ودفع الترك منها ، وهو امر كانت تعتوره صعوبات

كثيرة و كان فوق طاقة الاميرين ، ذلك ان الترك كانوا مسلحين
ليس فقط بالبنادق التي كانت ارسلت لتوزع على الفرقة العربية
من الجمالة ، وانما ببعض المدفعية ايضاً ، و كانوا الى ذلك يعدون
عشرين الفاً ونيفاً بقيادة قائد تركي ماهر . مما اضطر فيصلاً للتراجع الى
البادية يعمل فيها على جمع الرجال وتدبير الامور ، وتغذية النفوس
ولقد حاول مرة صد قوة تركية في (وادي صفرا) فلم يوفق فارتد الى
(هامارا) يرتب فيها قواته ويضم مسالحه ويجمع ما تيسر له من
البدو والمتطوعة ، وكان الموطن كثير الماء كثير الخضرة فاقام
فيه مدة يستقبل القبائل البدوية التي كانت تعرض عليه النصر
والتأييد

وقد اظهر فيصل انه قائد ماهر بارع ، فان تأثيره بين القبائل
كان شديداً قوياً ، وقد ظهر تأثيره عليهم واثره فيهم منذ اختلاطه
بهم واجتماعهم اليه ، وبحسبك ان تعلم ان مظهره الجميل ، وصوته
الموسيقي ، وما ينعم به من جرأة وشجاعة كانت تمكن له في نفوس
اشد القبائل بداوة ورعونة ، واذا اضفنا الى ذلك معرفته باخلاق
البدو ومنازعهم واغراضهم وذهنيتهم — وقد ربي بينهم — ادركنا
بعض الاسباب التي جعلت من فيصل قائداً محبوباً بين هذه القبائل
المختلفة الاغراض والنزعات ، ولا بد من الاشارة ايضاً الى انه كان
يعنى بمشاكل البدو وخصوماتهم حين تعرض عليه ، كما يعنى باشد

المسائل السياسية خطورة واهمية .

وبرغم ذلك كله فان موقفه لم يكن من المنعة والقوة بحيث
يسره ويرضيه ، ولم يتبدل الموقف كثيراً بامداد الانكليز له ببعض
الضباط المصريين وغيرهم ، وبحصوله على اربعة من مدافع كروب
العتيقة فان رجاله كانوا قليلاً عددهم ، ضعيفة ذخائرهم بحيث لم يكن
بوسعهم مهاجمة الترك هجوماً يؤمنون معه انهم واصلون الى
ردهم و كسرهم .

وكان الترك لا يزالون يعتصمون بالمدينة ، ومدفع الثورة لم يكن
بعيد الصدى بليغ التأثير ، وهذا ما كان يدفع بفيصل الى اليأس في
بعض الاحايين .

وفي شهر تشرين الاول بلغ فيصل وهو في مقره ان هناك
رجلين قد هبطا جدة يزوران والده ، المستر رونالد ستورس السكرتير
الشرقي لدار المندوب السامي في مصر ، وآخر كان موظفاً في
الدائرة العربية في دار المعتمدية في القاهرة ، وهو رجل يدعى
لورانس كان كثير الرغبة على ما يظهر في زيارة فيصل في مقره
في الصحراء

وسر فيصل بهذا الخبر ، فقد كان يعتقد ان كل شيء
افضل من خطة الجمود والانتظار التي راح يستقر فيها ، وايقن
فيصل ان زيارة كهذه يؤيدها والده لا بد وان تكون خطيرة

بعيدة الاثر ، ولا يبعدان يكون فيصل قد توفر له بعض الشك لما علم بخبر الزيارة ، فان قضاءه الاعوام في العاصمة التركية في عهد عبد الحميد ، وانتظامه مع جمال باشا مدة من الزمن في دمشق قد جعله كثير الشك شديد الحذر خصوصاً وان لورانس هذا لم يكن قائداً عسكرياً ، وانما كان كما يقولون رجل علم ينصرف الى الحفريات وغيرها .

وليس من يجهل الوصف البليغ الذي توفر لورانس على اعطائه لفيصل في كتابه ، فان هذا الرجل الذي هبط الحجاز يبحث عن قائد يتزعم الحركة العربية ، لم يكن يجد بين ابناء الحسين الثلاثة من يستطيع ان يكون ذلك الرجل ، ومع ذلك فان الشريف وامارته لمكة كانت تجعل منه ومن اولاده رجال الحركة وزعماء الفكرة ، فكان من اثر ذلك ان جاء بنفسه يجتمع بفيصل ليرى فيما اذا كانت مؤهلاته ومزاياه تساعده على ان يتحمل الحمل ، ويقوم بهذه الزعامة .

وقد وصف لورانس ركوبه من جدة الى المنزل الذي يقيم به فيصل في قرية (هامارا) وكيف اجتمع بفيصل ، وكيف انه لما نظر اليه النظرة الاولى احس انه وجد الرجل الذي سيقود الحركة العربية الى النصر ، وما كان من استقبال فيصل له وجلوسهما يتحدثان اولاً عن المكان في (وادي سرفا) ثم عن الموقف

قال فيصل يسأل لورانس :

— كيف ترى هذا المكان الذي نحن فيه ؟

— انه بعيد عن دمشق كثيراً

فرفع الامير عينيه وقال باسماً :

— ان هناك امرا كان اقرب الينا من دمشق نفسها .

***

ولما سألت فيصلاً عن لورانس بعد سنوات خلت ، قال بالافرنسية :

— لورانس ؟؟ لقد قال عني اموراً كثيرة لا تتصل مع الواقع في شيء ، وقد اقول عنه مثل ذلك ... لقد كان عبقرياً ، ولكنه لم يخلق لعصرنا هذا !!

فقلت :

— لزمن سالف اذن

— كلا بل لزمن مقبل ، بعد مئة سنة ، او بعد مائتين ، فقد يكون بطوق الناس ان تفهمه وتتعرف على ما فيه ولكن ليس في الزمن الحاضر .

كلمات غريبة ، وطريفة حقاً ، ينطق بها رجل يفهم الذهنية الانسانية كل الفهم ، كالملك فيصل .

- ٧ -

القاهرة

وجد الكبتن لورانس = كما كان في ذلك الحين — الاميرال ويمس في جدة فركب البحر على طراده الى السودان ، وكان الاميرال صديقاً للعرب ، مؤيداً لنهضتهم ، مساعداً لهم ما كان الى ذلك سبيل ، فكان يدهم بالمدافع وبالجنود احياناً ، وقد سره سماع تقرير لورانس بشأن القضيــة ، وكذلك كان موقف السر ريجنالد وينغت السردار في السودان لما تحدث الى لورانس في الخرطوم ، وكان الجنرال حريصاً على تأييد النهضة العربية لسنوات خلت ، فراح لورانس يقنعه بضرورة ارسال بعض الضبــاط الانكليز ليساعدوا فيصلاً ويتولوه بمشورتهم في مــا يحاوله في حربــه مع الترك ، كما الح عليه في ضرورة مساعدة فيصل بالمــال والرجال ايضاً

وذهب لورانس بعد ذلك الى القاهرة حيث اطلع الجنرال كلايتون على الموقف وتحدث معه بالحالة ، فرأى الجنرال الضرورة تقضي بان يعود لورانس الى فيصل ريثما يصل المساعدون من

الانكليز الذين كان المندوب السامي البريطاني قد ابرق يطلبهم من لندن للقيام بخدمة فيصل ومساعدته بارائهم والذين كان يتطلب قدومهم وقتاً من الزمن

وقد اضطرب لورانس في اول الامر لهذه المهمة الجديــدة وكان يفضل عليها البقاء في الدائرة العربية السياسية في القاهرة وهي الدائرة التي كان يحبها حباً جماً والتي عمل كثيراً في سبيل تحسينها وتنظيمها ، خصوصاً وانه لم يكن رجلاً عسكرياً ، ولا كان على المام وافر بفنون القتال وتعبئة الجيش .

وكانت الدائرة العربية قد اسست سنة ١٩١٦ وراحت تعمل على تتبع الحركات السياسية وغيرها في مختلف المدن العربيــة التي كانت مما يتصل شأنها بالمندوب السامي في مصر .

وكان موظفوها قد اختيروا من الاخصائيين الذين يعرفون هذه البلاد ولغتها معرفة تامة وكانوا يعملون برئاسة الجنرال كلايتون وكان من اغراض هذه الدائرة جمع الاخبار السياسية المتعلقة بهذه البلاد العربية المختلفة ، وقد بلــغ مسامع هذه الدائرة ان هناك سخطاً ونقمة عظيمين قد تمكنا من نفوس الجيش التركي ، وان هناك جمعية سرية سياسية قد انشئت بين الضباط العرب ، كما انــه كان يوجد مثلها بين غير الضباط ، وانها ترمي الى انشاء خلافــة اسلامية تمتد من الجزيرة العربية الى العراق وسورية . فكان

الوقت والحالة هذه صالحاً للتوفيق بين هذه الجمعيات المختلفة، والاغراض المشتتة لتقوية المثل الاعلى الذي كان يسعى اليه كافة العرب .

وقد اجتمع لورانس وهو في القاهرة باسير عربي، هو الجنرال جعفر باشا العسكري الذي قام بقيادة جند الامير فيصل فيما بعد . وقد كتب عنه لورانس يقول : « انه قوة عظيمة لنا » وكان هذا البغدادي العربي من عائلة محترمة وينعم بثقافة عالية، تخرج من الكلية العسكرية في القسطنطينية وخدم بنجاح في الجيشين الالماني والتركي ، وكان قد اختاره انور باشا لتدريب المتطوعة من السنوسيين، وكان وصل الى السلوم لهذا الغرض مع شقيق انور في شهر مايس من سنة ١٩١٥

وكانت المسئلة السنوسية تشغل القائد العام للجيش الانكليزي في مصر ، ذلك انه اذا كان في مصر جيش قوي فخطر السنوسيين والحالة هذه لم يكن من الخطورة بحيث يبعث على النظر وانشغال البال ، ولكن الجنود الذين كانوا يردون الى مصر من مختلف مشارق الارض ومغاربها ، كانوا دوماً يطلبون للعمل في جهات مختلفة ، فلم يكن يبقى منهم غير بعض الهنود وغيرهم من الذين لم يكونوا قد تدربوا على الفنون العسكرية كل التدريب ، فكان على القائد العام ان ينظر للامن العام في البلاد وعلى الحدود بعدد

قليل من الجنود

وكان الترك والالمان يسعون لاكتساب السنوسي الاكبر اليهم وحمله على مهاجمة الانكليز في مصر برجاله الذين كانوا منتشرين على الحدود بين مصر وطرابلس الغرب ، رغبة منهم في ان يكون لاعلان الجهاد الديني صداه في الاقطار الاسلامية النائية ، وقد راح السنوسي يحارب الانكليز دون ما سبب وتعدٍ منهم عليه .

وقد قال جعفر باشا يعلق على موقف السنوسي هذا :

« ان السنوسي الاكبر لم يكن ميالاً للحرب ، نظراً لموقفه من ايطاليا وفرنسا ، ولكنه اضطر الى ذلك اضطراراً بسبب ضغط انور باشا عليه وتحريض دعاة المانيا له ، وهم الذين امدوه بالمال والسلاح »

وكان جعفر باشا العسكري مدرباً بارعاً للجند فتمكن في مدة قصيرة من تحسين حالتهم، وتنظيم صفوفهم ، ودفعهم الى القيام باعمال حسنة موفقة على خطوطنا وطلائعنا ، ولكنه فشل في موقعة (اكاجيا) وسقط جريحاً فاخذه الانكليز اسيراً الى مصر .

ولكن الباشا لم ير الاسر مقاماً هيناً فراح يعمل مع رفيق له على الفرار ، وتمكن الاثنان من ان يصنعا من ثلاثة ملابس عسكرية حبلاً ينزلان به الى الارض، وقد تمكن الاول من الوصول سالماً الى الارض والفرار، ولكن الحبل لم يقو على حمل الباشا الذي كان ضخم

الجثة كبير الجسم ، فانقطع وسقط الباشا الى الارض مكسوراحد الساعدين فنقل الى المستشفى ، ثم اخرج منه ، بعد ان اخذوا منه وعداً بان لا يعود الى مثل عمله الاول

ومن غرائب ما حدث للباشا وهو في سجنه ان السلطة العسكرية قدمت اليه بياناً يطالبه فيه بثمن الملابس العسكرية الثلاثة التي مزقها ليصنع منها حبلاً لفراره .. ولا ندري اذا كان الباشا قد دفع ثمن هذه الملابس ام لا ..

وقد زار الباشا وهوفي السجن احد ضباط العرب العراقيين، هونوري باشا السعيد، وكان شاباً عاملاً في حقل الثورة العربية فراح يحدث الباشا بمظالم الترك في البلاد العربية واطلعه على اسماء الذين اعدمهم الترك من رجالات العرب ظلماً وعدواناً وكان منهم سليم بك الجزائري احد اصدقاء الباشا ، فاضطرب الباشا لهذه الاخبار ، واعتزم ان يعمل مع اخوانه الوطنيين في سبيل الاستقلال العربي



- ٨ -

ابتداء آمال

رجع لورانس من القاهرة راضياً عن مساعيه وسفرته ، فنزل الى ينبع حيث سمع اخباراً سرته عن اندحار فرقة تركية ، ثم واصل سيره حتى (نخل المبارك) ومنها الى وادي ينبع .

فوجد فيها عدداً كبيراً من العرب والجمال في حالة اضطراب وقلق ، وابصر فيصلاً جالساً على سجادة على الارض .

وكان الليل قد اقبل ، وفيصل لا يزال جالساً في مكانه ، والى جانبه عبد يحمل مشعلاً وامامه كاتب يأخذ ما يمليه الامير عليه .

وكان الليل هادئاً لا تضطرب في سمائه نسمة ولا ريح ، والهواء ثقيلاً ضيقاً ، والشعلة لا تكاد تتحرك فهي ثابتة مكانها .

ولما انتهى الامير من املائه ، قص على لورانس ما حدث ، واذا هو يتلخص في ان الترك قد قطعوا عليه خط الرجعة في وادي صفره ، وان قبيله بني حرب قد تراجعت بغير انتظام ، وقد تركوا الترك احراراً في النزول الى بئر سعد حيث تمكنوا من اخذ الامير زيد اسيراً ، وكسروا جماعة من بني حرب كانت معه

ولكي يتمكن الامير فيصل من المحافظة على خط رجعته فقد جاء الى هذا المكان ليقطع الطريق الى ينبع

ولما انتهى من حديثه ، راح ينظر في الاختلافات التي كانت تعرض عليه فيفصل فيها .

يقول لورانس « ان فيصلاً ظل على شأنه هذا حتى الساعة الرابعة من الصباح ، وكان هواء الليل قد اصبح قراً بارداً ، وغلب التعب على اكثر العرب فراحوا يفترشون التراب وينامون ، ولما انتهى فيصل من شأنه اكلنا بعض الثمرات ، ثم افترشنا السجادة التي امامنا ، وانا انتفض برداً ، فرأيت عندئذ احد خدم فيصل يضع عليه بعض الملابس محافظة منه عليه من البرد الشديد »

وافاقا بعد ساعة من الزمن ، فاشعلت النار لهما — لان البرد كان شديداً — وتناولا طعاماً بسيطاً ، ثم تنادى الجميع الى سيرهم .

وقد صرف لورانس يومين مع الجيش وراح يقص في كتابه (ثورة في الصحراء) حياة الجيش واعماله ، وكيف كانوا يتنادون للصلاة ، ثم يتناولون الطعام ، ثم يذهب الامير الى خيمته فيقضي بين اصحاب المصالح ، وينظر في شؤون الجيش ، وقد كان فيصل لا يمنع احداً من التحدث اليه ، ويستمع الى كل شخص .

قال لورانس يكتب عن الامير فيصل في هذه الفترة :

«صرف فيصل سنتين واصلاً ليله بنهاره عاملاً على وضع هذه

القطع المتبعثرة من الجماعة العربية الواحدة مكان الاخرى ، ثم دفع هذه الجماعة لمحاربة الترك وصدهم عن البلاد العربية ، فلم يترك اختلافاً الا ازاله ، ولا انتقاضاً الا اصلحه ، ولا ثوباً الا رتقه ، فلم يبق خلاف في موطن ، ولا عداوة بين قبيلة واخرى ، فكان حكماً فاصلاً في المناطق الغربية من الجزيرة العربية

وليس عجباً بعد ذلك ان لا يبعث هذا المثل الاعلى الذي كان يعمل له ويسعى اليه ، والذي ينحصر في استقلال البلاد العربية واتحادها ، اقول ليس عجباً ان يتصل هذا الحماس الذي كان يتولى فيصل الى نفوس اصحابه وافئدة رجاله ، وان يجعل من الفكرة العربية والثورة الاستقلالية قوة وامراً واقعاً بشخصيته البارزة واخلاقه الفذة .

وكان اذا ما قصده الاشياخ من بني قومه يطلب منهم ان يقسموا له بالقرآن الكريم ، ان يقفوا حيث يقف وان ينظروا حيث ينظر ، وان يسيروا حيث يسير ، وان لا يعترفوا بالطاعة لتركي ، وان يتولوا كل الناطقين بالضاد ، من العراقيين والسوريين وغيرهم ، بالعطف والحب والاكرام ، وان يجعلوا الاستقلال فوق انفسهم وابنائهم ...

الاستقلال ... الحرية ... قبل كل شيء !!

وكثيراً ما كان يحدث ان يطلق فيصل نظره في جيشه فيجد

ان فريقاً من رجاله قد اختفى اثره ، فيرتـد وهو لا يدري سبباً لاختفاء القوم ثم يظهر بعد ذلك انهم ذهبوا ناحية يتناولون فيها قدحاً من القهوة فاذا عادوا الى مكانهم في الجيش وجدوه خالياً واذا الجيش كله ليس في مكانه ، فيبحثون عنه حتى يجدوه مستقراً في مكان آخر ، وفي هذا ما يدل على هذه الذهنية العربية في حب الحرية الشخصية وتقديسها وعدم المبالاة بما تفرضه قوانين الحرب عليهم وهو ما كان فيصل يعمل لاظهاره فيهم وتغذيتهم به .

وكانت ينبع في ما يشبه الحصار ، وكان الكابتان بويل من مصلحة خفر السواحل البريطانية قد اقام في مرفأها خمسة مراكب للمحافظة والحماية ، تطلق انوارها في الليل الى اقصى ما يجده الطرف لتعرف فيما اذا كان الترك يحاولون التقدم نحو ينبع ولكن هؤلاء لم يظهر لهم اثر لا في الليل ولا في النهار .

وفي اوائل سنة ١٩١٧ رضي الامير فيصل بان يغادر ينبعاً الى مرفأ وهج وهو على مئة وثمانين ميلاً من ينبع ، ويجعل منه مركزاً لاعماله العسكرية ، وكان لهذا المكان خطورته الحربية لانه يهدد مؤخرة الجيش التركي في المدينة ولم يكن لهؤلاء من سبيل الى تأمين مواصلاتهم الا بالخط الحجازي

وقد اسف الامير لمغادرة ينبع ثاني موانيء الحجاز اهمية ولكنه لم يكن يستطيع انكار ما في خطته الجديدة من اهمية وخطورة كما

انه طلب من اخيه الامير عبد الله ان يأخذ مركزه في وادي ايس على بعد سبعين ميلاً من المدينة ، وقد صار كل ذلك امراً منظوراً في كانون الثاني سنة ١٩١٧ ، وسار فيصل برجاله الى حيث المكان المتفق عليه .

وكانت قوة فيصل تبلغ عشرة آلاف مقاتل ، خمسة آلاف من الجمالة وخمسة آلاف وثلاثمائة راجل ، ومعهم اربعة من مدافع كروب ، وعشرة مدافع صغيرة ، يضاف الى ذلك ثلاثمائة جمل كانت تحمل الحاجيات الضرورية للجيش فقط .

ومسير هذا الجيش الصغير خلف قائده من موطن الى آخر ، كان معناه انتقال المعارك من ارض الحجاز الى مواطن اخرى كان من شأنها فيما بعد ان تصل بفيصل وجيشه الى دمشق ، وبانتقال فيصل من السياسة الضيقة التي كان يسير عليها في الحجاز الى سياسة عربية عالمية زاد الخلف بين الوالد والولد ، لان الوالد (الحسين بن علي) كان يريد ان يعود اليه الفضل كله في تحرير العرب وقيادتهم وكان يضيق صدره كلما زادت شهرة ابنه الثالث ، واستطار شأنه وعظم خطره

وكان الحسين (في تشرين الاول سنة ١٩١٦ قد حمل لقب ملك البلاد العربية وكان كبير الحرص في الاحتفاظ بلقبه هذا ، حتى انه كثيراً ما كان يعارض في اقرار بعض الامور التي كان من

شأنها القضاء على الترك في الحجاز بالاسرع من الوقت ، والظاهر انه كان يعارض فيها خوفاً من نقمة المسلمين عليه فيما لو سمح بنزول بعض الجنود الانكليزية الى الحجاز .

ومشى الامير كما قدمنا على رأي رجاله ، والطبول تصوت ، والشعراء يغنون ، والحوار يسير سبيله بين افراد الجند ، وصوت فيصل الجميل يعلو الاصوات جميعها حين يحيي شيخاً في طريقه قائلاً له :

— السلام عليكم

فيقول له هذا :

— وعليكم السلام



— ٩ —

الجيش الشمالى

كان الجيش الشمالي .. موفقاً في قيادة فيصل الذي تمكن من توحيد المنازع المختلفة والنزعات المشتتة التي كانت تضطرب في جيشه ، بلباقته وحسن تصرفه وبقوة شخصيته المحبوبة

وكان الجيش موفقاً ايضاً في وجود جعفر باشا العسكري بينه ، وكان هذا قائداً عربياً يتفهم ذهنية الجيش الذي يقوده ، وهو الى ذلك كله رجل يعرف الفنون العسكرية المعاصرة ويعرف كيف يستعمل السلاح الجديد

ووجد الجيش في لورانس عضداً جريئاً وفي (جويس) رجلا لا يعرف التعب ولا النصب في تدريب الجيش كما ان الجيش كان موفقاً ايضاً في ان القائد العام عرف ضرورته وخطورة شأنه فايده كل التأييد

تاريخ الحرب الرسمي —

—▫—

لما وصلت طلائع جيش فيصل الى مقربة من (الوجه) في مساء اليوم الخامس والعشرين من شهر تشرين الاول ، سمعوا صوت

اطلاق المدافع بدوي الى مسافات بعيدة ، فعلموا ان المعركة قد بدأت، ولما ابصروا الهاربين من البلد ، علموا ان المدينة قد سقطت ، وكان الكبتن جويل قد وصل في الوقت المناسب الى الوجه واخذ يضرب الحصن بمدافعه ، ثم تمكن من اقتحامه بمساعدة جماعة من العرب

وبهذا الانتصار زاد الامل في ان يتمكن فيصل وجنده من طرد الترك من البلاد العربية ، وقد اخذ مشايخ القبائل المجاورة يتقدمون بطاعتهم الى الامير ، ومشت القبائل بدورها ايضاً تعرض طاعتها وقد اخذها الحماس وغمرها الفرح ·

واصبحت الوجه في هذه الفترة بلداً كثرت فيه الحركة ، وفشت له خطورة واهمية ، بما اخذ يقصده من زعماء العرب ورجالات القبائل ، كما ان بريطانيا ارسلت بعثة عسكرية بقيادة (الليوتنان كولونل نيوقومب) وهو ضابط بارع كان يعمل مع لورانس في الدائرة العربية ، وتربطه به صداقة قوية · ووصلت كذلك من مصر كميات وافرة من الذخائر وغيرها ، فكان هناك في الوجه والحالة هذه ما يدل على حركة عظيمة ·

وبعد ايام وقع حادث له اهميته بوصول جعفر باشا العسكري الى الوجه ، فعهد اليه فيصل بقيادة الجنود النظاميين من جيشه، وكان من نتائج سقوط (الوجه) في يد فيصل ان احتصن الجند التركي في

المدينة وقطع كل امل في استرداد مكة ·

وقد كانت الضرورة تقضي بمنع هذا الجيش الكبير الذي كان يقوده قائد بارع من القيام بعمل شيء او ان يأتي بضرر ، ولم يكن هناك امل باقتحام المدينة نظراً لضعف القوات العربية ، بل لقد كان من مصلحة الجيش ان يترك الجيش التركي يعتصم فيها وخلف اسوارها ولا يكون من طرق المواصلات بينه وبين دمشق الا الخط الحجازي ، وكان هناك في تبوك ، وعلى بعد ثلاثمائة متر من المدينة قوة تركية يقدر عددها بخمسة آلاف محارب ثم زيدت بمثل هذا العدد ايضاً للمحافظة على الخط من العدوان ، ولتأمين المواصلات بين المدينة ودمشق

وكان بين هذين المركزين القويين مراكز ضعيفة لتأمين سلامة الخط البعيد المدى، فقد رأى فيصل ومستشاروه من الانكليز ان يعرضوا لهذه القوات المتفرقة بين حين وآخر عرضاً خفيفاً لا يقطع المواصلات ، ولا يمنع وصول المؤن الى الجنود مخافة اضطرار الجيش الى الخروج من المدينة ·

***

ولا بد من كلمة في ما يختص بهؤلاء المستشارين ، فان في تعيين صلاحياتهم بعض الصعوبة ، ولو سئلوا هم انفسهم ان يقوموا بذلك لما استطاعوا اليه سبيلاً

لقد كانوا رجالا من الاخصائيين كل في فنه ، وكانوا
قد تعودوا على الحياة العسكرية الاوربية ، وانه لامر يذكر لهم
بالفخر ، ان يعودوا انفسهم على حياتهم الجديدة وان يقوموا بواجبهم
بلباقة وحسن تصرف .

اما الكولونل ويلس فظل في جدة ، يقوم بمهمة المستشار
الملكي للحسين بن علي ، ولكن تأثيره كان يظهر في (الوجه)

واما الكولونل نيوقومب الذي كان قد تعود على الحياة
العسكرية في افريقيا ، فقد راح يكيف نفسه لحياة الصحراء
ومعارك البادية .

و كان من واجب الانكليز الذين لم يكونوا يعملون مع
جعفر باشا في تدريب الجنود العربية ، ان يعلموا العرب
كيفية استعمال القذائف اليدوية ، والاغارة على المراكز
التركية النائية ، ونسف السكة الحديدية وتحطيم القطارات
وغير ذلك .

واما الكولونل لورانس واختراعه الجديد في تخريب الجسور
والقطارات ، ونسف العربات بواسطة اطلاق النار من الات
كهربائية بدلا من الطريقة المستعملة قبلا لمثل ذلك بواسطة
(اللغوم) فان امره معروف ولا ضرورة لسرده في هذا الكتاب ،
ولكن عمله العجيب في اقتحام العقبة يصح ان نتناوله ببعض الايضاح

والتفصيل .

وجدير بنا ان نشير الى الوفاق الذي كان يسود معاملات
المستشارين الانكليز مع فيصل ، فان المستشارين الذين تحدثت
اليهم واجتمعت بهم يجمعون كلهم على الاشادة بجرأة الامير وبسالته ،
ولباقته ودماثة خلقه ، ولا يجب ان يغرب عن البال ان الامير كان
خبيراً بالقواعد العسكرية الحربية الحديثة وقد تلقاها كما اشرنا الى
ذلك في فصل سابق ، لما كان يشاهد الجيش التركي محارباً او في ما
يشبه الاستعراض والمناورة في القسطنطينية

وقد تعرف الى كثيرين من مختلف الطبقات في اول نشأته
في العاصمة ايضاً ، وفي السنوات الاولى التي تلت الحرية وقبل
الحرب العامة .

والواقع ان الذهنية العربية في ما يتصل بالحياة وغيرها كانت
لا تزال عالقة به مسيطرة عليه ، ولكنه راح ينعم فوق ذلك كله بما
يضطرب في الحياة الحاضرة من الوان ونواح ، فكان والحالة
هذه شديد الاستقرار بعيد الغور هادئاً مطمئناً بخلاف نزعته العربية
التي كانت تريده ثائراً عصبياً ، وهو ما كان يحببه الى العرب الذين
كانوا ينادونه دوماً (يسدنا فيصل)

قلت ان الوفاق بين فيصل ومستشاريه من الانكليز
كان امراً موفقاً بين الطرفين ، ولكن الامير كان الى لورانس

اقرب ، و كان الامير يفهمه وهذا يفهم الاميرا كثر من كل شخص آخر ، والواقع ان هـذه الثقة المتبادلة بدأت منذ وفـد لورانس على فيصل في (الحمراء) وراح هذا يسأله كما قدمنا قائلا :

— كيف تجد المكان ؟

فيجيبه لورانس :

— حسن ولكنه بعيد عن دمشق !!

واخذت الصداقة تشتد وتنمو ، وكان لورانس قـد نجح في اكتساب ثقة كبار الانكليز في القاهرة ، وحملهم على الاهتمام جدياً بالقضية العربية والحرب في الحجاز، وكان لحمله الامير على مغادرة العقبة ، والانسحاب الى الوجه اثره ايضاً في ايقاظ الروح العربية وتغذية الثورة في الجزيرة

لذلك رأينا لورانس لما راح يخاطب الامير في ضرورة اقتحام العقبة وهي تبعد ما يقرب من ستماية ميل عن المكان الذين هم فيه ، نجد هذا يؤيد لورانس ويدفع له من جيبه اثنين وعشرين الف ليرة انكليزية لمصاريف الزحف .

ولم يكن الغرض من هذا الزحف البعيد المدى ظاهراً للعيان ولكن نتائجه كانت خطيرة بعيدة الاثر مؤيدة لبعد نظر لورانس وصدق فراسته.

مشي لورانس اول الامر مع الشريف ناصر وعودة ابو تايه وهو شيخ قبيلة عربية كبيرة، الى حيث تقيم قبيلة الحويطات وكان ينتظر ان يجد عندهم قوة حاضرة تساعده في زحفه وعمله، وقد نجح في اكتساب مساعدة الشيخ نوري الشعلان ، كما انه اخـذ وعداً من شيوخ القبائل المجاورة بالمساعدة الفعلية حين تصبح الحاجة ماسة الى ذلك، هذا الى انه تمكن ايضاً من ان يحمل مشايخ القبائل المختلفة من السماح له ولجماعته من المرور في ارضهم ، لان الجزيرة العربية كانت مقسمة بين مشايخ القبائل فلا يجوز ان يمر بارضهم طارق دون مشورتهم ورضاهم.

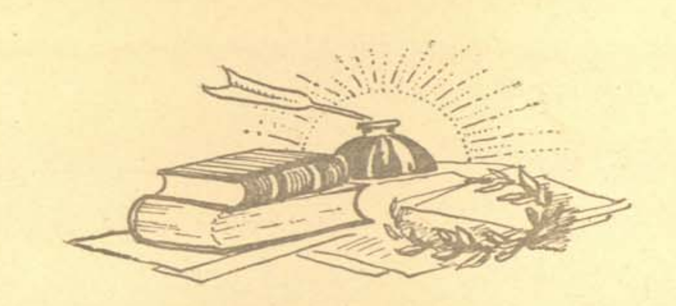
وفي منتصف الطريق اختفى لورانس، وليس من يعرف حتى الان الى اين ذهب ، وماذا راح يعمل في اختفائه هذا، ولكن يقال انه ذهب الى دمشق وبعلبك ودرعا، وانه درس الحالة الروحية في هذه البلاد وقوة الاتراك فيها ، ولما عاد من رحلته هذه مشى على رأس جماعته منتصراً فاتحاً فغلب من وجده في طريقه ورد الترك في معركة ابل ليسان ، واجبر حامية العقبة على التسليم ودخل المدينة ومعه ستمائة اسير

وقد رأى المارشال اللنبي وار كان حربه في اقتحام العقبة سنداً قوياً يساعدهم في تقدمهم نحو البلاد العربية ، كما انه دل على ماللقوة الغربية من اثر وفائدة في تمكين هذا التقدم وتوطيده ، واذا كانت

معركة غزة قد فشلت سنة ١٩١٧ فانها كانت موفقة بعد احتلال العقبة ، وتمكن المارشال اللنبي من تمكين مراكزه في فلسطين .

وعلى اثر ذلك رأت المقامات العسكرية الضرورة تقضي بان يعمل الجيش العربي بعد اليوم مع جيوش الحلفاء التي كانت تتقدم في فلسطين وعهد الى الامير فيصل بان يقود رجاله في شمالي معان، وقد قبل فيصل بالفكرة ، وايدها الملك حسين نفسه، وعلى اثر ذلك ترك فيصل (الوجه) التي لم يبق لها من فائدة ، وغادرها الى العقبة التي اصبحت مركزاً حربياً له ولجنده

اما جيوش الامير علي وعبد الله فكانت تعمل جنوبي معان تحت مناظرة الجنرال وينجات .



- ١٠ -

الحرب فى العراق

وصل الامير فيصل ورجاله الى العقبة في شهر آب من سنة ١٩١٧ وقد ظهرت خطورة هذا المركز الجديد في المعارك التي تلت والاحداث التي وقعت .

وكان فيصل على اتصال دائم مع القوة التي كانت في صحراء سيناء والتي كانت تحت قيادة الجنرال اللنبي رأساً ، ولكن كانت هناك قوى تعمل في منطقة اخرى ، في العراق ، وكانت هذه القوى تحارب الترك في تلك البلاد منذ اشهر عديدة ، وكان فيصل كثير الاهتمام في مصاير هذه القوة ونتائج اعمالها . وان كان لا يحلم في ذلك الوقت بانه سيكون حاكم هذه البلاد في المستقبل ومليكها المحبوب

وكان الفصل الاول من معارك العراق قد كتب في خريف سنة ١٩١٤ ذلك ان الترك قبل اعلانهم الحرب على الحلفاء اخذوا يرسلون الامدادات الى العراق، ويضعون اللغوم في شط العرب ، مما اضطر حكومة الهند محافظة على المصالح الانكليزية عامة

واموال الشركات الانكليزية في آبار الزيت خاصة من ارسال حملة
قوية من الهند الى جهة البحرين بقيادة الجنرال دلمان في الثالث
والعشرين من شهر تشرين الاول سنة ١٩١٤ ، وقد اعلنت روسيا
الحرب على تركيا في الثاني من شهر تشرين الثاني وفي السادس منه
اعلنت انكلترا وفرنسا الحرب على الترك ايضاً .

وما ان نزلت القوات الهندية الى ارض البحرين واخذت تتقدم
نحو العراق حتى اخذت تصادمها القوات التركية، وقد دامت هذه
المناوشات حتى نهاية الحرب .

وقد كان على الانكليز ان يقوموا بعملين اولهما تثبيت
مراكزهم بعد كل انتصار ، وثانيهما تنظيم الحياة العامة في البلاد
التي يحتلونها تنظيماً حسناً يوافق العقلية العربية ووجهات النظر
المختلفة ، خصوصاً وقد كان الترك في كل انسحاب يحملون معهم
كل الاوراق والمستندات الحكومية فلا يتركون منها شيئاً مما
كان يخلق المصاعب في وجه الحكومة الجديدة . وقد عهدت
الحكومة الانكليزية في هذا العمل السياسي الى السر برسي
كوكس وهو احد العمال السياسيين الذين كانت تؤهلهم خدماتهم
السابقة في خليج العجم وغيره لمثل ذلك ، فاخذ هذا يعمل على تنظيم
الشؤون العامة لمملكة العراق في المستقبل

ولم يكن من السهل في ذلك الحين حمل عرب العراق على

مساعدة الحكومة الجديدة ، بخلاف الحالة في الحجاز التي حملت
القبائل لما رأوا ثورة الشريف ورجاله على الانضمام الى الثورة
وتأييدها بكل ما عندهم من رجال ومافي قلوبهم من الحمية والنجدة،
ولكن ذلك لم يمنع بعض المشايخ كشيخ الكويت وغيره من
تأييدنا ، كما ان ابن سعود نفسه سيد نجد طرد الترك من بلاده وزار
البصرة سنة ١٩١٦

وبدأت الحياة الحكومية في البصرة بالعودة الى استعمال اللغة
العربية في الشؤون الحكومية والادارية بدلا من التركية التي كانت
مستعملة قبلا ، ومع ان ذلك اعاد بعض الثقة الى في قلوب العرب الا
انهم كانوا ما يزالون يترددون في تأييدنا مخافة رجوع الترك
والانتقام منهم .

وكانت الضرورة تقضي بنشر بيان صريح عن موقفنا في
العراق ولكن هذا كان صعب التنفيذ لاسباب سياسية عالمية ،
والواقع اننا كنا نحارب العرب انفسهم، لانه كان هناك كثيرون من
العرب والكرد يحاربوننا في الجيش التركي ، ولذلك طلبنا من العرب
ان يقفوا موقف الحياد ، واخذنا ندفع ثمن العمل الذي نحن
بحاجة اليه

وكانت المعارك الحربية في اول الامر سجالا بيننا وبين الترك
ولكي نقوي مراكزنا ، ونضع حداً لتقدم العدو ، ونقضي على طرق

مواصلاته ، كانت الضرورة تقضي بتقدمنـا الى بعض المراكز القوية على ضفتي دجلة والفرات ، وهو ما تمنابه فكان من نتيجة معركة (اشيبه) ان فتحت لنا الطريق لاحتلال (كرنه) و كوت العمارة والنصيرية وغيرها

و كان من الحق على اركان حرب الجيش في العراق ذلك الحين ان يعملوا على تثبيت اقدامهم في العراق كله واحتلال بغداد ، ولكنه كان من الخطأ الفادح اقرار هذه الفكرة مع قلة عدد الجنود وجودة في العراق وضعف معداتها ، وعدم استكمال الاهبة اللازمة لمثل هذا الزحف البعيد المدى ، وفي مثل هذا الاقليم الشديد الحرارة القاتل لمعنويات الجند ، فكان من اثر ذلك ان اضطر جندنا للانسحاب بعد ان تقدم قليلا ، وارتد الى كوت العمارة حيث اخذ الجند التركي بقيادة الجنرال فون در كولتز الالماني يحاصرها حصاراً شديداً

ولقد سقطت كوت العمارة بعد حصار دام خمسة اشهر ، وكان سقوطها ضربة على النفوذ الانكليزي في الشرق مدة من الزمن ولكن معاملة الترك والالمان لاسرانا كانت اشد من الفشل نفسه ، وقد اثارت سخط العالم كله في ذلك الحين

ولكن هذا الفشل لم يدم طويلا ، فقد عهد الى الجنرال مود سنة ١٩١٦ بقيادة الجيش الانكليزي في العراق ، الذي زيد عدده وارسل اليه ما يحتاجه من الذخائر والمدافع وغيرها ، وفي سنة ١٩١٧

تمكن الجنرال مود من اقتحام بغداد واحتلالها وكان ذلك قبل وصول فيصل الى العقبة باشهر فقط . ولم يقف الجيش الانكليزي في العراق عند هذا النصر بل اخذ يتقدم الى الامام حتى وصل الى الحدود العراقية نفسها .

و كانت القوات العربية التي كانت تعمل في ذلك الحين بين قوات العراق وقوات الانكليز في فلسطين قد اخذت تتقدم نحو سورية ، وراحت تضايق قوات الترك المتفرقة بين هذين المنطقتين وهي تعمل للوصول الى غرضها الاسمى ومثلها الاعلى .



- ١١ -

اتفاقية سيكس - بيكو

لقد كان من اثر احتلال العقبة ان اصبح بامكان الجيش الشمالي الذي يقوده فيصل ان يتبسط في اقتحام ما حوله من مدن وامصار ، وهو امر لم يكن باستطاعته لما كان في الحجاز ، وقد ظل الاميران علي وعبد الله في الحجاز ومعهما بعض الجند يمنعان الجيش التركي من مغادرة المدينة

وعاد لورانس من سفرة جوية الى القاهرة ومعه بعض السلاح والذخيرة ، والوعد بالتعضيد والمساعدة ، كما انه تمكن من اقناع السلطات المختصة بضرورة بقاء طراد الاميرال ويمس في جوار العقبة وكانت الغارات في هذه الفترة على خطوط السكة الحديدية الحجازية متعددة مكللة بالنجاح ، وكان القوم كلهم ينتظرون بفروغ الصبر تقدم قوات الجنرال اللنبي نحو سورية ، وراح فيصل ينصرف في هذه الفترة الى تقوية عزائم جنوده ، وبث روح التضحية والمغامرة في قلوبهم ، كما ان جعفر باشا العسكري ، ورئيس اركان حربه نوري باشا السعيد ، والكولونل جويس كانوا يعملون على

تدريب افراد الجيش العربي ، وهو تدريب ظهرت آثاره ناجحة للعيان بعد اشهر

وفي اثناء ذلك كله سقطت قنبلة في وسط المعسكر ، ولم تكن هذه القنبلة من النار بل كانت من الورق ، وكان تأثيرها اشد من تأثير القنابل النارية ، واما هذه القنبلة فكانت معاهدة سيكس بيكو التي بعث بها الروس اثر عقدهم الصلح مع الالمان الى الاتراك كما يظهر ، وارسلها هؤلاء بدورهم الى المعسكر العربي ليطلع هؤلاء على ما يحاك لهم في الخفاء

ولم يكن خبر هذه المعاهدة مجهولاً لدى الملك حسين واولاده ، ولكن تأثيرها على الامير فيصل دل على انه كان يجهل محتوياتها كلها ، وانه لم يكن يعرف غير بعضها ، ولم يكن في ما يعرفه كبير امر كما يظهر .

ومما يذكر بهذا الشأن ان اللورد كتشنر كان يرغب دائماً في انشاء دولة مستقلة في سورية وانه كتب بهذا الشأن الى الامير عبد الله قبيل اعلان الحرب العامة ، يسأله عن موقفه وموقف والده من الترك فيما لو اعلن هؤلاء الحرب على الحلفاء ، وقد كتب اليه الامير يقول ان العرب سيعملون المستحيل للبقاء على الحياد ، وانهم لن يساعدوا الترك الا اذا أكرهوا على ذلك ، وفي ٣١ تشرين الاول لما اعلنت الحرب مع تركيا ، وعدت الحكومة

الانكليز بمساعدة العرب ضد اي تدخل اجنبي اذا اعتصموا بالحياد ابان هذه الحرب

وفي تموز من سنة ١٩١٥ – كما قال الملك فيصل – كتب الملك حسين الى السر هنري مكماهون العميد البريطاني في مصر يقول له ان العرب مستعدون للانضمام الى صفوف الحلفاء في الحرب العامة شرط ان تحفظ حرياتهم وتحافظ لهم الدول على استقلالهم ، وقد اشار الملك في تحريره الى المنطقة التي يجب ان يصار الى المحافظة على استقلالها وهي تمتد من مرسين وتركيا الى حدود ايران وبلاد فارس

وقد رأى العميد البريطاني ان هذه الطلبات كثيرة التبسط وانها قد تثير بعض الاحتجاج من روسيا وخصوصاً من فرنسا ، فكتب متحفظاً في جوابه ، فوافق على ما طلبه الملك حسين بشأن سورية والعراق وقال ان بريطانيا العظمى تعد بمساعدة العرب في استقلالهم في المناطق التي ليس هناك اختلافات بشأنها مع حلفائها ، وهذا الكتاب الذي حمل العرب على اعلان الحرب على الترك قد كتب بالاتفاق مع رجال الحكومة الانكليزية في لندن ذلك الحين

وكان الحسين يمضي تحاريره كملك البلاد العربية ، وهو لقب راح يثير في ذلك الحين حسد بعض الامراء في الجزيرة العربية ، ولكنه

لقب كما ذكرنا اطلقه رجالات سورية في عريضتهم التي اشرنا اليها على الملك حسين وقد كانت هذه العريضة تمثل مختلف الطبقات في سورية .

وقد علم الفرنسيون في ذلك الوقت بهذه الاتفاقية بين الانكليز والعرب ولكنهم لم يحركوا ساكناً لان الموقف في الساحة الغربية كان خطيراً بحيث كان يجب ان تحصر كل الجهود فيه ، وقد كان للفرنسويين كما هو معلوم مقاصد واغراض في سورية ، ولهم فيها مصالح كثيرة من مدارس وسكك حديدية وشركات وغير ذلك ، فكان من الحق محافظتهم على هذه المصالح التي لم تكن بنت يومها ، بل عمل سنوات خلت ، وتقاليد عريقة في التاريخ

وللوصول الى اتفاق بشأن البلاد العربية فيما لو تم للحلفاء النصر ، اجتمع السر مارك سيكس الانكليزي والمسيو جورج بيكو عن فرنسا لبحث الامر والوصول الى اتفاق ، وقد وصل الاثنان الى ما يشبه الاتفاق ، وان كان اقرب الى عدم الاتفاق .
وامضى السر ادوارد غراي وسفير فرنسا في لندن الاتفاقية ، التي لم تصادق عليها الدولتان نهائياً ، والتي صرف النظر عنها بعد ذلك ، ولكن اساسها ظل قائماً ، وهي تنص على ان يصار الى ادارة فلسطين بواسطة نظام دولي ، وان تقوم فرنسا على العناية بسورية وكيليكية

التركية حتى الموصل ، وتكون العراق من نصيب الانكليز ،
ويترك للعرب ما بقي من البلاد العربية لانشاء دولة مستقلة فيها.

وليس من ينكر ان وعد السر هنري مكماهون كان ينص حتما
على استقلال سورية وضمها الى الوحدة العربية وليس هناك ما يشير
الى المحافظة على حقوق فرنسا في هذه المنطقة في كتابه الى الملك
حسين، وقد رأت انكلترا بعد ذلك ان تحافظ على وعودها فوضعت
فيصلا في سورية، فلما لم توفق انشأت في شرقي الاردن دولة مستقلة
تحت ادارة الامير عبد الله ، ثم اقامت في العراق مملكة مليكها
فيصل الاول.

وقد كان الانكليز مجبرين على النظر للمصالح الفرنسوية
بعين العناية والاهتمام ، فقد كانوا يحاربون واياهم جنباً لجنب وليس
من يعلم مصاير هذه الحرب العالمية الهائلة ، وامامهم عدو مخيف
قوي كان يسلط مدافعه احياناً على باريس ، وأخرى يبعث بطياراته
الى لندن ، فكانت الوحدة ضرورية للدولتين في ذلك العهد، ولكن
احداً لم يكن يجهل خطورة الثورة العربية وفائدتها للحلفاء ،
والذي يحيرنا هو في تجاهل الدولتين لاغراض العرب كل التجاهل
في اتفاقهما هذا الاخير.

ولم يكن الحلفاء يرغبون في اخفاء التطور الجديد عن الملك
حسين، خصوصاً الانكليز الذين اضطروا الى هذا الاتفاق مراعاة

لصديقتهم فرنسا ، فلما وصل بيكو وسيكس الى جدة وراحا يحاولان
اقناع الحسين بما صار الاتفاق اليه ، ابى هذا ان يتفهم منهما شيئاً
وراح يقول ان بيده وعداً من بريطانيا العظمى بالمحافظة على
الاستقلال العربي.

وقد قال فيصل يعلق على الانفاقية التي وصلت الى العقبة
ما يأتي :

« نشرت الحكومة الثوروية في روسيا سنة ١٩١٧ بعض
المستندات الرسمية ومنها اتفاقية سيكس بيكو التي اقتسم بها الحلفاء
البلاد العربية ، وقد ارسل الاتراك صورة من هذه الاتفاقية الى
الثوار العرب ليتعرف هؤلاء على اغراض الحلفاء بشأنهم ،
فاحدثت هذه الاخبار وما في الاتفاقية من نصوص تأثيراً عظيماً في
الجيش ، فابرقت عندئذ الى الملك حسين اقول « اننا نرفض متابعة
الحرب مع الحلفاء لان غرضنا هو استقلال البلاد العربية لاتمزيقها
وقيام دول اجنبية مقام الترك فيها »

« فابرق الملك حسين بالامر الى الحكومة الانكليزية فكتبت
هذه اليه تقول « ان الاخبار التي ينشرها الترك كاذبة ، وان بريطانيا
لا تزال عند وعدها في استقلال البلاد العربية »

فكتب الي الملك حسين بذلك قائلاً : « ان الوصول الى
هذه الاغراض اصبح معلقاً بشرفه وشرف عائلته ، وانه يعتبرني خائناً

اذا تركت قتال الترك !! »

* * *

وكان فيصل متأثراً كل التأثر وهو يملي علي هذه الكلمات، ومن المؤكد انه كان يعلم بعض الشيء عن هذه الاتفاقية قبل ان يراها رأي العين ، وكان على لورانس بعد ذلك ان يعمل المستحيل لتهدئة الثورة الروحية التي اثارتها هذه الاتفاقية، كما انه كان مضطرباً شديد التأثر لوقوعها ، لانه كان يريد ان يظل اسم بريطانيا عالياً شريفاً في الشرق كله كما كان قبلا .

ولقد حاول جمال باشا ان يجلب فيصل اليه ، فوعده باستقلال البلاد العربية ، ولكن ذلك لم يجده نفعاً ، وانصرف فيصل الان بولي وجهه شطر فلسطين ودمشق .



- ١٢ -

التقدم الى الشمال

لقد كان الامير الان يبعد مائتي ميل عن الوجه، وسبعمائة ميل عن مكة ، ولكنه كان لا يبعد اكثر من مئة وثلاثين ميلاً عن المراكز الانكليزية في فلسطين .

وكان اليوم في موقف غير الموقف الذي كان فيه اول الحرب ، فبدلاً من ان يكون قائداً لقوة ضعيفة في العدد والعدد اصبح قائداً عاماً لجيش مدرب منظم في معداته وعدده ، يزداد عدده يوماً عن يوم ، ويعظم شأنه وتزداد خطورته ما تقدمت الايام به .

وكان الجنرال جعفر باشا العسكري يقود الجند النظاميين من العرب ومعه الكولونل نوري باشا السعيد كرئيس اركان حربه ، واما القسم الانكليزي فكان تحت قيادة الكولونل جويس وكانت الفرقة الافرنسية الصغيرة ومعها مدفعيتها بقيادة الكبتن بيساني .

واصبح كذلك للعرب مركز . بي عسكري في

مصر ، و كان لديهم من المستشارين والمدربين للجيش عدد عظيم لم يكن قبلا .

وقد راح الامير يكيف نفسه لمركزه الجديد بلباقة وجلال ، وان كان كثيراً ما يذكر ايامه الماضيات ، ويفضل حرب الصحراء وما فيها من قلة الرجال وندرة الذخائر على هذا العدد العديد من الجند والعدد . وبحسبنا ان نذكر موقفه في اول الثورة يوم راح يحاول حصار المدينة بالقليل من الاعوان والانصار ، و كيف انه لما صار اليها وحاول الوصول الى اسوارها ، اخذت تمطره حاميتها ناراً من مدافعها وبنادقها فطلب من جنده ان يتقدموا معه فابوا عليه ذلك وقد دهمهم ما لا يطيقونه ، والعربي بفطرته شديد الخوف من المدافع ، راح يتقدم بنفسه وعلى جواده وهو اهدأ مايكون بالاً ، واصلب ما يكون جناناً وقلباً ، والعدو يمطره ناراً ، وهو سائر في سبيله لا يأبه ولا يبالي حتى وصل الى مكان لا تصل اليه نارالعدو فاشار الى رجاله ان يتقدموا ففعلوا .

هذا الخبر واحد من كثير من امثاله قصها علي الانكليز من رجال الامير و كلها تدل على جرأته وبأسه وانه ما يهاب الخطر ابداً . .

ولكن الحال قد تغيرت فبدلا من ان يقوم بقيادة رجاله بنفسه كما كان يفعل سابقاً ، كان عليه ان يجلس في مخيمه مع اركان

حربه يبحث الموقف العسكري من جميع وجوهه ، خصوصاً بعدان تم الاتفاق بين الجيش العربي والانكليزي المتقدم في فلسطين على ان يصار الى الزحف وفاقاً للخطة المتبعة بين الطرفين .

اما موقف الجنرال اللنبي وخطته فقد كانت كثيرة الاتصال بمصاير المعارك في الساحة الغربية ، ذلك ان الالمان في تلك الفترة كانوا يهاجمون الخطوط الانكليزية والافرنسية هجوماً عنيفاً يحاولون معه اختراق الجبهة ، و كانت وزارة الحرب الانكليزية كثيراً ما تطلب من الجنرال اللنبي امدادها ببعض رجاله وفرقه ، فما كان والحالة هذه بطوق القائد العام للجيش الانكليزي المصري العربي ان ينصرف الى معارك حاسمة في فلسطين دون ان يطمئن الى مدى الخسارة والارباح فيها ، ومع ذلك فقد قامت الجنود الانكليزية ببعض المعارك والمناوشات على نهر الاردن ولكنها لم تكن ذات اهمية تذكر

ومع ان الجو لم يكن ملائماً كل الملائمة فقد تمكن الانكليز من الاستيلاء على السلط في شرقي الاردن ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال عمان ، ثم اضطروا الى مغادرة السلط ايضاً لان العرب انفسهم لم يتمكنوا بدورهم من احتلال معان .

وراح العرب بعد ذلك يهاجمون المراكز التركية القائمة على الخط الحجازي ، ويوالون الغارات على الترك فيها ، ولا بد من

الاشارة الى نشاط الكولونل جويس في تدريب الجنود العربية التي مهرت في فنون القتال والغارات ، ولو انها تركت على سجيتها العربية لما وقفت في هذه المعارك التي كانت تحتاج الى دقة ولباقة والتي لم يكن من السهل على غير القوات المنظمة المدربة ان تقوم بها .

وقد كان جويس هذا ملازماً للامير كل الملازمة ، فكان والحالة هذه من اعرف الناس بصفاته وجرأته وبأسه وسرعة تفهمه للموقف الذي كان يتبدل بسرعة غريبة ، وكان لا بد للوصول الى دمشق من مهاجمة العدو الكرة بعد الكرة ، فلا يترك له الوقت الكافي للتفكير في غير المدافعة عن نفسه ومواصلاته وكان ذلك امراً مقضياً وهو ما منع الترك من مهاجمة العقبة واسترجاعها

اما شهرة الكولونل لورانس فقد كانت تستطير يوماً بعد يوم ، ليس فقط كقائد باسل شجاع ، بل كآلة حية من لحم ودم للتدمير والتخريب ، وكثيراً ما كان يرسل بعض شيوخ العرب الى الامير كتاباً يقولون فيه « ابعث لنا بلورانس وحده ، ونحن نقوم معه بتخريب الجسر الفلاني او الخط الحديدي .

وكثيراً ما كان يذهب لورانس الى اللورد اللنبي فلا يرجع من عنده الا بمساعدات مالية وذخائر كثيرة وغير ذلك مما كان الجيش العربي بحاجة اليه .

والواقع ان لورانس كان صاحب سر الطرفين ، وكانت اهمية الجيش العربي قد اصبحت ظاهرة لا تحتاج الى بيان وايضاح وكان الامير في ذلك العهد يرغب في احتلال درعا لانه كان مطمئناً بان القبائل العربية في تلك المنطقة تؤيد الجيش العربي عند تقدمه اليها ونزوله في مواطنها

وكان سقوط القدس في اواخر سنة ١٩١٧ من اهم الاحداث في تاريخ الحرب في جبهة فلسطين ، وعلى اثر ذلك اشتدت مؤازرة العرب لجيش اللورد اللنبي ، وتقدم العرب على اثرها في نواحي شرقي الاردن فاحتلوا بترا ، وكانوا في اكثر معاركهم مع الترك موفقين غانمين .

***

لما سألت جعفر باشا العسكري ان يحدثني عن تطور الحركات العسكرية في ذلك العهد قال بعد تردد :

«بعد احتلال العقبة التي يعود الفضل في احتلالها الى لورانس والشريف ناصر ، وعوده ابو تايه ، تقدم الجيش العربي الى مراكزه الجديدة ، واخذنا نرتب امورنا وننظم شؤوننا ، ونتقبل جماهير المتطوعة من العرب وغير العرب الذين كانوا يفرون من الجيش التركي الينا ومعهم سلاحهم وارزاقهم .

«ثم تقدمنا الى وادي موسى (بترا) التي كانت مركزنا مدة

ثلاثة اشهر ، وكان بيننا وبين الترك عدة مناوشات في هذه المنطقة وفي طريق الخط الحجازي ، حيث تمكنا من تدمير عدة قطارات ، وغنمنا عدداً من الغنائم والذخائر . وكان كل غرضنا الوصول الى دمشق وبلوغ الغاية التي نعمل لها .

وكان الترك قد عززوا قواتهم في هذه المناطق فلم نكن نتمكن من التقدم الا قليلاً ، وكان موقف بعض القرى حرجاً ، ذلك انهم كانوا يفضلون العمل مع القوي فكان علينا ان نقنعهم بقوتنا، ولكننا كنا على الاجمال فائزين فقد اسرنا من الترك عدداً يفوق عدد جيشنا الذي لم يكن يزيد عن عشرة الاف مقاتل ، وتمكنا في الوقت نفسه من منع القوة التركية في المدينة من مضايقتنا ورحنا نحصرها في مكانها حتى نهاية الحرب العامة

ولم نتمكن من الاستيلاء على معان الا بعد انهيار الجبهة التركية في فلسطين، واما محطات درعا والمزيرب فقد هاجمها الامير فيصل نفسه ، ثم استولى الانكليز على معان ، ومن غريب ما يذكر في هذا الباب ان القوة التي استولت على معان هي القوة الانكليزية التي اسرتني على حدود مصر ، ولما سلمتني المدينة هتفت لي هتافاً عظيماً

ولم اكن في الزحف الذي صار على دمشق ، ولكني عينت بعد ذلك حاكماً عسكرياً على عمان ، ثم على حلب ، وقد كنت

طلبت من الامير فيصل ان يسمح لي بالتقاعد واعتزال الاعمال ولكنه ابى علي ذلك »

وراح بعد ذلك جعفر باشا يشكر للورد اللنبي ما تولى به الجيش العربي من المساعدة والعناية كما راح يذكر تضحية المستشارين الانكليز في سبيل العرب والعربية .

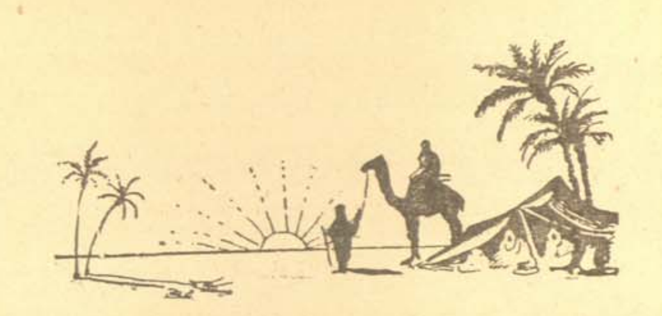
ولم يأت الباشا على ذكر حادث له طرافته، وهو انه لما جاء الى القدس ليتلقى وسام سانت جورج وسانت ميشل ، رأى اللورد اللنبي ان تكون الفرقة التي اسرته حرس شرف له ، وقد استقبلته هذه الفرقة بالهتاف والتصفيق .

وقد اعترض الملك حسين في ذلك الحين على تقليد ضباط العرب اوسمة انكليزية وكتبت (جريدة القبلة) لسان حاله تقول : انه ليس هناك في الجيش العربي ارفع من رتبة كبتان فاضطرب قواد العرب وراحوا يقدمون استعفائهم ، لولا مداخلة الملك فيصل بالامر وحمله والده بعد صعوبات جمة على القبول بالامر الواقع

ثم نقل فيصل مقره العام من العقبة الى ابي لسان ، ومنها الى الازرق ، وفاقاً لتقدم المعارك واقترابها من البلاد السورية ، ومن الحق ان يقال ان فيصلاً كان من حقه في ذلك الحين ان يفتخر برجاله وشجاعتهم وتضحيتهم ، واذا كان الانكليز قد ساعدوا الجيش العربي بالمدافع والذخائر والجمال وغير ذلك الا انهم اي

العرب قاموا بواجبهم من منع القوات التركية في المدينة ومعان عن القيام باي عمل من شأنه ان يعرقل تقدم الانكليز نحو سورية وفلسطين وقد جاء في الكتاب الرسمي للحرب العامة ، ان العرب قد قتلوا واسروا وحصروا ما يقرب من خمسة وعشرين الف محارب تركي ، وهذا قبل المعارك الحاسمة المقبلة والتي اخذ فيها العرب كثيراً من الاسرى .

وفي السابع والعشرين من شهر ايلول ١٩١٨ تقدمت طلائع الجيش العربي الى درعا فاحتلتها والتقت بعد ذلك بفرقة من الهنود ، وكانت النهاية قريبة جداً والقلوب قد اخذت تضطرب املاً وشوقاً لما احست بان الاغراض التي يعمل لها العرب قد اصبحت على الابواب .



- ١٣ -

دمشق

« لقد كان لي الشرف في العمل مع الملك فيصل في المعارك السورية الفلسطينية ، فكانت معاونته للحلفاء عظيمة الفائدة ، كثيرة النفع لي خاصة
لقد كان نصيراً شجاعاً مخلصاً ، ونحن نحفظ له ولعائلته ولجيشه كل تقدير وامتنان »

من كتاب للمؤلف من الفيلد مارشال الفيكونت اللنبي —

كان فيصل الان مع طلائع جيشه ينتظر الساعة التي ستتوج هذه السنوات الماضية من الجهاد الذي كان يظهر احياناً بعيداً سحيقاً .

وكان اللورد اللنبي في الاسبوعين الماضيين قد استولى على فلسطين تقريباً وصار يهتم في الزحف على دمشق واحتلالها

وكانت ساعة الانتصار في الهواء ، وقد اصبحت قريبة بحيث اخذت تهز قلوب العرب والانكليز معاً ، اما الخطوط التركية الالمانية فكانت تتقلص الواحد بعد الاخر ، وكانت هناك فرقة من

فرسان الجيش الانكليزي قد اخذت مكانها في طريق دمشق
لقطع خط الرجعة على بقايا الجيش الرابع ، وكانت فرقة الفرسان
الرابعة قد تلقت امراً بان تعمل مع العرب في جهات درعا

وكان العرب قد قطعوا ما يقرب من ستمائة واربعين ميلاً في
اثنين وعشرين يوماً ، ولما تركوا العقبة كان عددهم قليلاً فاصبحوا
قوة تذكر بوصولهم الى درعا وانضمام القبائل العربية التي يمرون
في طريقهم عليها ، وانضم اليهم الشيخ نوري الشعلان في
ثلاثة الاف فارس ، كما انضم الحوارنة الى الجيش ومع اكثرهم بنادق
الجيش التركي نفسه .

وكانت انتصارات الانكليز في فلسطين تثير حماس العرب
الذين اخذوا يقطعون الخطوط الحديدية بعد استيلائهم على درعا
كما اخذ الترك بدورهم في الوان من التدمير اثارت نفوس العرب
غضباً فراحوا ينقمون بدورهم من الفرق المتراجعة يصلونهم ناراً من
بنادقهم ومدافعهم .

ثم تقدم الامير فيصل على رأس جنوده في طريق دمشق

***

ودمشق المدينة التاريخية العظيمة ، لؤلؤة الشرق كما يسميها
الان ، لم تكن مدينة محصنة تنام خلف اسوارها وحصونها ،
فغادرها الترك لما ابصروا الموقف حرجاً ولا سبيل الى اصلاحه

ودفع الامر الواقع ، ولكنهم في تراجعهم وانسحابهم هذا اصيبوا
بخسارات عظيمة ، اشار تاريخ الحرب العامة التركي الى شيء منها
حين جاء فيه « ان الجيوش التركية الرابع والسابع والثامن قد
تمزقوا عن بكرة ابيهم ، وتمكن الحلفاء من اخذ سبعين الف اسير
منهم » وبذلك اصبحت القوة التركية الموجودة في المدينة وحدها
لا تتصل مع ولاتها الترك بسبب من الاسباب .

وليس من يعلم حقيقة من دخل دمشق اولاً من فرق الجيش
ولكن المشهور ان فرقة من الجند الحجازي العربي دخلتها في مساء
اليوم الثلاثين من ايلول ، ثم دخلتها طلائع الجند الاسترالي في
صباح اليوم الاول من تشرين الاول ، وفي الساعة السابعة والنصف
صباحاً وصل الكولونل لورانس الى سراي الحكومة فوجد علم
الشريف العربي مرفوعاً عليها فعين شكري باشا الايوبي حاكماً
مكان الامير سعيد الجزائري الذي جلس على كرسي الحكم من
نفسه كما يظهر ، وفي الساعة العاشرة والنصف دخل الجنرال ماك
اندروا الى المدينة على رأس الفرقة الرابعة عشر من الفرسان فاستقبلها
الاهالي بالتهليل والهتاف

ولقد صرف لورانس ذلك النهار كله في ترتيب نظام الحكم
الجديد ، وكان العرب لا يزالون يحاربون الترك الذين تراجعوا
عن طريق السكة الحديدية الى رياق ومنها الى حلب ، وكان

جعفر باشا لا يزال في عمان ، واما نوري باشا السعيد فكان قائد الجيش العربي وقد اظهر جرأة عظيمة وبراعة زائدة في الزحف من العقبة الى درعا .

وفي اليوم الثالث من تشرين الاول دخل الامير فيصل المدينة على رأس جيشه فكان الهتاف له يصم الاذان ، وكان استقباله نادر المثال ، حتى لم يتمالك نفسه من البكاء وهو يسير على جواده في شوارع دمشق

ووصل اللورد اللنبي في هذه الفترة ، واجتمع بالامير فيصل للمرة الاولى وكان الاجتماع مرضياً للطرفين ، ولم تطل اقامة اللورد في المدينة فقد كان عليه متابعة الحرب ضد الاتراك واجلاؤهم عن كل البلاد العربية واحتلال بيروت وطرابلس وحمص وحلب .

واخذ فيصل مركزه في دمشق كالقائد العام للجيش العربي والحاكم المقبل ، فاشار في بيانه الاول للشعب الى ضرورة الاتحاد حول الوحدة العربية ، وان على السوريين ان يبرهنوا على اهليتهم للاستقلال والحرية ، وزاد قائلاً : « انه لا يرى فرقاً بين ابناء العربية مهما اختلفت عقائدهم ومنازعهم الدينية ، وانه يحسب نفسه واحداً منهم ، وانه شقيق لاي رجل يتقدم اليه بصداقته ، شديد على الذين يثورون ويعملون للشغب . وسيكون للغة

العربية المكان الارفع في الحكم والحكومة ، وعلى كل شخص ان يحترم حقوق الاخرين ، وان السوريين قد نالوا استقلالهم بسبب مالحقهم من المظالم والعسف ايام الترك ، وان البلاد العربية ليست مؤلفة من الحجاز وسورية فحسب بل ان هناك غيرها وسواها ، وعلى السيف العربي ان لا يرجع الى غمده الا بعد ان يحرر كل هذه الاقطار والامصار

والواقع ان السيف العربي قام بواجبه في اقتحام حلب بقيادة نوري باشا السعيد ، واما في دمشق فكانت الاعمال منصرفة الى ترتيب الشؤون واستتباب النظام .

لم تكن الاشهر الستة الاولى في دمشق على ما يرام ، ذلك ان الامير لم يكن حاكماً مطلقاً ، وكان كذلك محاطاً بالدسائس والحسد والاحقاد ، وكان هناك كثيرون اخذوا ينقمون عليه احتفاظه برجاله الذين حاربوا معه في الحرب العامة من العراقيين والحجازيين وغيرهم ، كما ان هناك قوماً كانوا ينكرون الاكتفاء بدولة سورية عربية ، وكانوا يعملون في سبيل توحيد البلاد العربية كلها تحت لواء واحد . وكان هناك آخرون ما زالوا بانتظار الوعود التي قطعها الحلفاء بشأن استقلال البلاد العربية ، كما ان وعد بلفور

قد وضع فلسطين في مركز لم يكن يرضي الكثيرين ، والامير وان كان لا يرى بأساً في التفاهم مع اليهود ، الا انه لم يكن قد اطلع في ذلك الحين على اغراض الصهيونية كل الاطلاع ، فكان الموقف من جميع الوجوه غامضاً مرتبكا .



- ١٤ -

انقسام بيت واحد !!

لقد اشرنا الى اجتماع الامير باللورد اللنبي يوم دخوله الى دمشق ، وقد أطلع الجنرال في ذلك الحين الامير على الخطة التي ستتبع في هذه الفترة ريثما ترتب شؤون العرب ويستتب الصلح والسلام ، وخلاصتها : انشاء حكومة عسكرية عربية تمتد من العقبة الى دمشق وشرقي نهر الاردن ، يكون على رأسها الامير نفسه ، ويكون مرجعه اللورد اللنبي ، وتكون المخابرات بينه وبين اللورد بواسطة الجنرال كلايتون ، الذي سيمثله لدى الامير الكولونل كورنواليس ولحسن التفاهم مع الافرنسيين صار الاتفاق ايضاً على ان يكون لهم ممثل لدى الامير

ولكن مسألة الساحل ومصيره لم ترض الامير كل الرضى ، فقد عهد بادارته الى الافرنسيين على ان يكون مرجعهم اللورد اللنبي نفسه .

وقد ظن الجميع ان الهدنة التي صار الاتفاق عليها مع الترك في مودروس (في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩١٨) قد

انتهت بها الحرب ، وانقضى عهد المعارك والمشاكل ، ولكن هذا
الامل لم يتحقق ، ولم يكن احد يعتقد ان الصلح مع الترك سيأخذ
اربع سنوات اخرى ليكون نهائياً ، وفي هذه المدة كلها تظل سورية
معتبرة جزءاً من اراضي العدو المحتلة

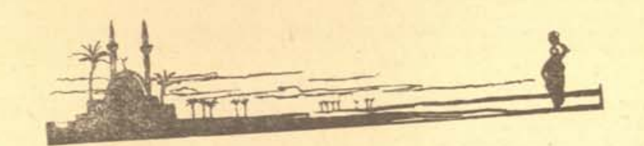
ولقد وجد الامير نفسه امام مصاعب عظيمة في سورية
بسبب اشتباك المصالح الدولية بشأنها ، واغراض المتطرفين من
سكان البلاد ، وحسد الآخرين للموظفين من غير السوريين
الذين خدموا الامير في الحرب العامة ، ولكن فيصلاً وجد في
المثقفين من ابناء البلاد تقديراً ومساعدة بسبب خدماته لسورية في
الحرب وبعدها

وكان الحلفاء يرون ان البلاد المنسلخة عن الامبراطورية
العثمانية ليست في مركز يؤهلها لحكم نفسها بنفسها رأساً
دون ما تنظيم سابق ، وترتيب وتثقيف ، وان هذه البلاد
المؤلفة من اجناس واديان مختلفة ليست اهلاً للاستقلال
والحرية ، وكان السوريون يطلبون الاستقلال ولا يريدون
عنه بديلاً ، وكان الافرنسيون يطلبون ان يعهد لهم بادارة
الساحل ولبنان ، واما الانكليز فكانوا يريدون ان يوفقوا
بين وعودهم للعرب وصداقتهم لفرنسا . فكان الموقف حرجاً
كثير الخطورة .

ومن الحق ان يذكر الانسان ان الحرب لا تنتهي كما
يظن البعض بعقد معاهدات الصلح والسلام ، وانه بعد حروب
نابليون التي لا تعد شيئاً مذكوراً اذا قيست بالحرب العامة
تبدلت الحكومات في اوربا وتغيرت الخرائط الجغرافية واعاد
التاريخ نفسه بعد الحرب العامة ، فانقرضت دول ، وانهارت
ممالك ، وقام مقامها سواها ، وخسرت دول بعض املاكها
وامصارها ، وربحت دول اخرى امصاراً وممالك على حسابها ،
حتى ان بعض الممالك التي وقفت على الحياد في الحرب العامة
ربحت بعدها ، ولكن ما الذي ربحته انكلترا بالنسبة لخسارتها
العظيمة ، ولفقدها عدداً كبيراً من زهرة ابنائها ولاضطرارها الى
الوقوع تحت دين عظيم ، ولتحملها مسؤوليات في الشرق الادنى لم
يكن يهمها ان تتحملها قبل الحرب

ان المصالح الافرنسية في الشرق يصح ان ينظر اليها من
نواح مختلفة ، فان فرنسا مابرحت تعد نفسها حامية للمسيحية في
الشرق ، وهو ما حملها سنة ١٨٦٠ على مساعدة الموارنة في لبنان
لما حدثت الثورة فيه ، كما ان لفرنسا في الشرق مستشفيات
ومدارس ومصالح تجارية عظيمة من حقها ان تحافظ عليها ،
ولكن المصالح الافرنسية في الداخل وفي سورية قليلة جداً ،
وهو ما حمل البعض على الظن بان فرنسا تريد ضم البلاد الى

مستعمراتها ، وقد راح الموظفون الانكليز يعملون المستحيل لدفع هذا الوهم ، ولكن الواقع هو ان اسباب سوء التفاهم بين الافرنسيين والسوريين كان ما يعتقده السوريون من ان فرنسا تعارض في استقلالهم ، فكان موقف الامير والحالة هذه حرجاً جداً يحاول المستحيل للتوفيق بين هذه الآراء المتناقضة



- ١٥ -

سوريا ووزارة الخارجية الانكليزية

لقد كان من اهم واجبات الامير السياسية ان يمثل والده في مؤتمر الصلح في فرسايل ، وقبل ان اتناول هذا الموضوع بالبحث اترك الكلام للامير نفسه يتحدث عن موقفه هذا قال :

«لست ارغب في تفصيل الحوادث التي تلت قدومي الى دمشق على رأس الجيش العربي الذي ظل يحارب مدة سنتين في سبيل استقلال العرب ، فان تفاصيل هذه الحرب معروفة عند الناس جميعهم ، و كل ما اريد ان اقوله هو ان العرب قد استقبلوا النصر بعاصفة من الفرح والسرور .

« و كان اول ما اصابني من خيبة الامل لما اعلمني المارشال اللنبي ان سورية قد قسمت الى ثلاثة اقسام وان هذا التقسيم موقت ليس الا .

« واما الضربة الثانية فهو في تصديق معاهدة سيكس بيكو التي كذب خبر وجودها في اول الامر . وقد رأيت بعيني هاتين

مصير بلادي المقسمة الى ثلاثة مناطق ، فكان علينا والحالة هذه ان ننظر الى الحقيقة المجردة وان نجابه الامر الواقع .

«ولما اعلنت قرارات الحلفاء في ما يختص بسورية وفلسطين كان موقف والدي موءثراً في ما يتصل بخيبة الآمال التي نزلت به والتي لم يكن يعتقد بانها كائنة ابداً ، وهو في وقوفه مع الحلفاء في الحرب العامة بواسطة انكلترا لم يقف الا بدافع الاخلاص والوطنية لبلاده وشعبه ، ولم يكن يعتقد ابداً ان النهاية ستكون كما رأى ، فرأى نفسه والحالة هذه ضحية بريئة تضطرب بين اغراض العرب ومطالب الحلفاء ، وقد انكر عليه المسلمون في الماضي موقفه ومساعدته للحلفاء ظناً منهم انه انما فعل ذلك بدافع المصلحة الخاصة وحب التوسع والمجد والسلطان .

«ولما كنت في حلب بعد اعلان الهدنة وصلتني برقية من والدي يطلب مني فيها تمثيله في موءتمر الصلح ، فاعتذرت ، فاصدر الي امره بالذهاب ، فطلبت منه ان يبعث الي بالوثائق المتعلقة بوعود الحلفاء باستقلال البلاد العربية ، فاجابني ان الوثائق موجودة في لندن ، وهذا يدل على ثقته العظيمة ببريطانيا العظمى .

ولما وصلت الى مرسيليا وجدت نفسي امام تبدل عظيم في السياسة فقد قابلني الموظفون الافرنسيون ببيان هذه خلاصته :

« ليس عند فرنسا معلومات فيما يختص بالمهمة التي عهد

اليك بها في فرسايل ، ولذلك فلا فائدة من ذهابك الى باريس»

«ثم دعوني لزيارة الجبهة الغربية ، وبعد عشرة ايام ذهبت الى باريس ومنها الى لندن ، ثم الى فرسايل

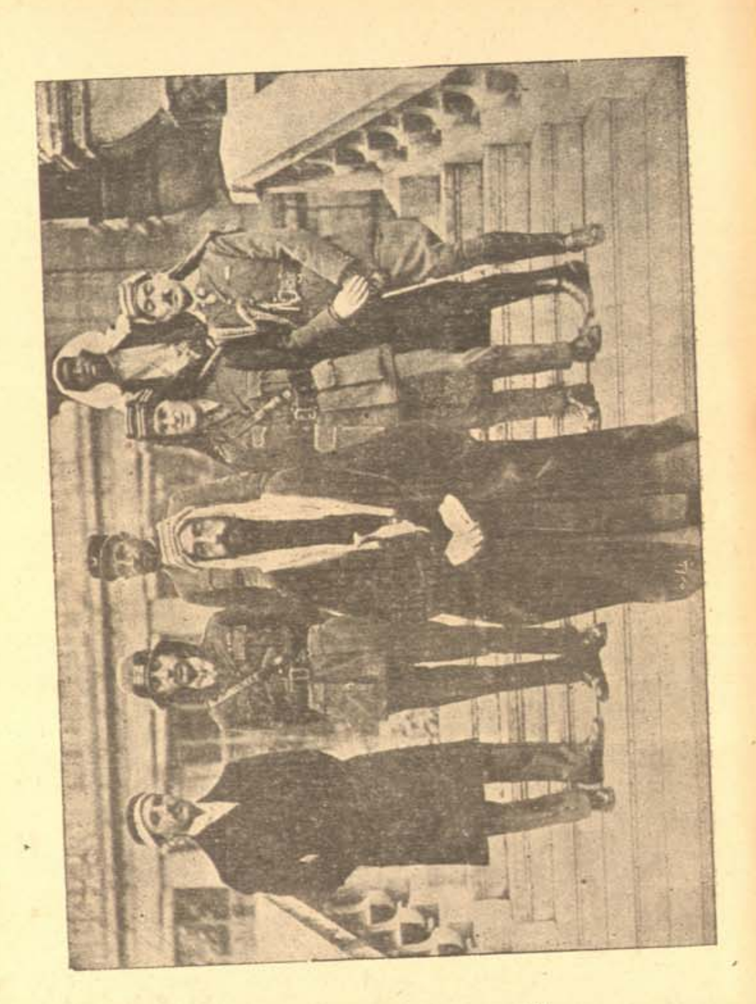
«واني افضل عدم التبسط في سفرتي هذه بين مرسيليا وفرسايل ، والذي اريد ان اقوله فقط هو ان عقلية الحلفاء في الحرب قد تبدلت بعدها تبدلا عظيما .

«ولست اريد انتقاد حكومة ما ، ولا الاحتجاج على شيء ولكنني اقول اني عند رجوعي الى فرسايل وجدت اتفاقية سيكس بيكو معروضة للبحث ، وهي الاتفاقية التي انكروا وجودها في الحرب العامة

«لقد وجدت في فرسايل مساعدة عظيمة من ويلسن وكلمنصو ولويد جورج واللورد كرزن وغيرهم ، ولكن الذي ظهر لي هو ان الحزب العسكري كان اشد من السياسيين قوة وشأناً في ما يطرح على بساط البحث من اتفاقات ومعاهدات .

«وفي مثل هذا الجو ، نجحت في امر واحد وهو حمل الحلفاء على ارسال لجنة تستفتي سكان البلاد في اغراضهم ومطاليبهم .

ولكن هذا النجاح كان ضعيف الاثر ، لاختلاف الحلفاء فيما بينهم وانفراط عقدهم فذهبت لجنة اميركية تستفتي السوريين واللبنانيين في اغراضهم وآمالهم ، ولم تعلن نتيجة ما قامت به الا سنة ١٩٢٢ !!



الامير فيصل في مؤتمر فرسايل

من الشمال الى اليمين : رستم بك حيدر ، الجنرال نوري باشا السعيد ، الكبتان بيساني ، الكولونل لورانس ، تحسين بك قدري

«ومن واجبي ان اشكر كثيراً الانكليز والافرنسيين والامير كان والايطاليين الذين ساعدوني ، ولكني لست الوحيد الذي يقول ان مؤتمر فرسايل لم يوفق في حل المشاكل العالمية التي عرضت عليه للبحث والاقرار ، وقد حدثت فيه اخطاء كثيرة اهمها الخطأ الذي لحق العرب

«ولقد رفض والدي المصادقة على معاهدة فرسايل احتجاجاً على الحيف الذي لحق بالامة العربية»

***

ومع ان الامير لم يوفق كل التوفيق في سفرته هذه ، الا انه بسط القضية العربية امام المؤتمر بسطاً وافياً ، كان لها التأثير الحسن لدى مستمعيه ، وكان لبقاً لسناً سريع الخاطر حين يعرض امامه امر او تثار لديه مسئلة ٠

لما تحدث احد اعضاء المؤتمر عن الحملات الصليبية قال الامير :

— ولكن من الذي ربح الحرب الصليبية ؟

وكان الامير والحق يقال شخصية بارزة في المؤتمر ٠

وكان الوفد العربي الذي ذهب تحت رئاسته مؤلفاً من رستم بك حيدر ونوري باشا السعيد وتحسين بك قدري ، وكان لورانس ترجمان الوفد

ولقد عقد مؤتمر الصلح في فرسايل جلساته في الثاني عشر من كانون الثاني ١٩١٩ وفي اليوم التالي سقطت المدينة بعد ان ظلت محاصرة مدة سنتين ونصف ، وفي شهر شباط اهدت الحكومة الافرنسية الامير الوسام الحربي ولكن الافرنسيين ما برحوا على خصام مع الامير ، لا يوافقون على الاتفاق معه ، وفي السادس من شباط بسط الامير القضية العربية امام مؤتمر الصلح ، واعترض على تقسيم البلاد العربية الى مناطق نفوذ وهو ما كان يخالف الاغراض التي كان يرمي اليها من الوحدة والاستقلال ، ثم طلب لجنة لاستفتاء العرب في اغراضهم وامانيهم

وقد ظهر من المحاضر التي نشرت عن جلسات المؤتمر السرية ان انكلترا عملت المستحيل لحمل الحلفاء على تأييد الوعود التي قطعتها للعرب ، ولكن الافرنسيين لم يقبلوا بذلك وتمسكوا بمعاهدة سيكس بيكو التي صار الاتفاق عليها قبل هذه الوعود

وغادر فيصل فرنسا في شهر نيسان من سنة ١٩١٣ فلما وصل الى سورية وجد الحالة على غير ما يرام ، والاضطراب قد غمر البلاد من اقصاها الى اقصاها ، ولم يكن له في ذلك رأي ولا بد حتى ان كاتباً فرنسوياً (المسيو كورنلمان) كتب مقالا في احدى الصحف الباريسية يقول :

« الامير كثير الذكاء ، عظيم الخيال ، لطيف المعشر ، حسن

المخالطة مخلص كل الاخلاص ، شريف في اعماله ، شريف في وعوده

ولما اعلنت امارة الامير على سورية كتب هذا الكاتب يقول :

« ان الامير ما زال ولا يزال صديقاً مخلصاً لنا ، ولكنه لا يبعد ان ينقلب علينا حين يرى من واجبه ذلك ، او حين يعتقد اننا لم نعامله بمثل معاملته لنا »

والواقع ان فيصلاً كان في موقف حرج ، فقد كان يريد الاتفاق مع فرنسا مع الاحتفاظ باستقلال البلاد التي كان يريده ابناؤها ملكاً عليهم ، وكان يعلم انه سيأتي الوقت الذي سيضطر فيه للاختيار بين هذين الامرين ...

وفي ايلول من سنة ١٩١٩ صار الاتفاق بين لويد جورج وكلمنصو على ان تغادر الجنود الانكليزية البلاد السورية وتقوم مقامها حاميات افرنسية ، على ان تظل القوة العربية في الداخل

وقد نصت الاتفاقية على ان البلاد الداخلية تكون تحت النفوذ الافرنسي ، وبعث لويد جورج يطلب من الامير القدوم الى لندن للاتفاق معه على ما صار الاتفاق عليه مع فرنسا .

ذهب فيصل الى لندن فاستقبل من الحكومة استقبالاً رسمياً حافلاً ، وعرض عليه الاتفاق وافهم انه موقت ريثما يتم الصلح بين تركيا والحلفاء ، وعندئذ يصار الى البحث في شأن البلاد العربية كرة اخرى .

وقد عتب فيصل على الانكليز ان وافقوا على هذه الاتفاقية قبل ان يأخذوا رأيه فيها ، ثم طلبوا منه زيارة باريس فسافر اليها ، ولكن شيئاً راهناً بينه وبين الافرنسيين لم يقع فعاد الى سورية فوجد البلاد في هياج والثورات على الحدود يأخذ بعضها برقاب بعض

وفي هذه الاثناء اجتمع المؤتمر السوري وعرض على فيصل العرش ، فابرق هذا الى المارشال اللنبي يأخذ رأيه ، وطلب منه ان يحاور حكومة لندن بالامر ، فكان الجواب مبهماً فقبل فيصل بما عرضه عليه المؤتمر السوري ، واعلنت ملكيته في دمشق .

وفي نيسان من سنة ١٩٢٠ دعي الملك فيصل الى حضور مؤتمر سان ريمو ، فابى ، وعرض ان يرسل وفداً من قبله ، وقد صار الاتفاق في هذا المؤتمر على ان تكون العراق تحت الوصاية الانكليزية ، وسورية تحت الوصاية الافرنسية .

وفي تشرين الاول عين الجنرال غورو مندوباً سامياً لفرنسا في سورية ولبنان .

وقد رفضت سورية في ذلك الوقت استعمال العملة الورقية التي اعلنتها فرنسا في البلاد ، كما انها رفضت السماح للجيش الافرنسي بالمرور الى كيليكية ، وكان الموقف غامضاً مبهماً فان سورية دون منفذ للبحر لم تكن دولة تستطيع الحياة حتى

ولو اعطيت استقلالها.

***

ثم اتسعت شقة سوء التفاهم بين سورية وفرنسا وزحفت الجيوش الافرنسية على دمشق ، فاضطر الملك فيصل الى مغادرتها.

وكذلك غادر فيصل دمشق بعد سنتين من دخولها فاتحاً مظفراً فضاعت آمال ، وانهارت احلام ، وخرج مع بضعة نفر من انصاره الى فلسطين

وقد اخذ بعض الكتاب ينتقدون حاشية الامير وكيف انها كانت امة مصغرة تباينت نزعات افرادها وتضاربت بينهم الاراء والاغراض وكل يحسب نفسه مشير الامير الاول ومرشده الاكبر وكان الامير كثير الثقة برجاله هؤلاء ، ألم يساعدوه ويؤيدوه في ما سلف من ايام ، ألم يخلصوا له في ما سبق من اعوام ، فلمَ لا يسمع لرأيهم ويعمل بمؤازرتهم في ما امامه من مشاكل جديدة ، كان هذا اول عهده بها ، ومبدأ نشأته فيها .

وليس هنا مجال التبسط في ما سلف من احداث ، ولا نحن بمقام المؤرخ الناقد لما وقع من اخطاء ، ولكن ما يجب ان يقال هو ان الامير قد ذهب ضحية بعض اعوانه وانصاره دون ما سابق تعمد وتصميم من هؤلاء ، فقد ذهبوا في تلك الفترة السياسية

ينظرون الى الحوادث نظرة بعيدة عن الكياسة السياسية وراحوا يتطلبون اموراً فوق المقدور والامكان ، وهو ما اثار الشعب وفت في موقف المعتدلين من ابناء البلاد ، ونحن وان كنا على مثل اليقين من حسن نيتهم وحبهم لبلادهم واوطانهم ، وعملهم للمثل العليا من استقلال العرب والوحدة العربية ، غير ان هذا كله ليس كافياً للوصول الى الاغراض التي كانوا يعملون لها ، بل كان لا بد لذلك من احكام الامور ، وبعد النظر ، وحسن السياسة .

***

ولقد راح الامير في السفرة الثانية الى باريس يأخذ الامر بناصيته ، ويبحث الموقف بنفسه ، يحاول الوصول الى ما هو الاقرب والممكن ، فقبل رغم معارضة بعض حاشيته بما عرضه عليه كلمنصو من حل وتسوية للقضية السورية ، وتم الاتفاق بينهما على ذلك ، وقفل راجعاً الى سورية لاقرار ما صار الاتفاق عليه .

ولكن المتطرفين في دمشق لم يقدروا الموقف حق قدره ولا ادركوا ما في تساهل كلمنصو من بعد نظر وحكمة ، فقاموا يعارضون ويحتجون ، وعصفت العواصف – كما يقول الاستاذ امين الريحاني – على فيصل من كل جانب ، إلاّ جانب الاعتدال

وكان ضعيفاً (١) فلم يوفق فيصل الى حمل القوم على القبول باتفاق كلنصو، وكان ما كان من مغادرته للبلاد السورية.

***

ولكن هل كان بطوق المعتدلين ان يؤيدوا فيصلاً، ويقفوا في وجه المتطرفين، هذا مايستبعده بعضهم لانهم يعتقدون ان المعتدلين كانوا اقلية ضعيفة ليس لها سلطان الاكثرية وقوتها.

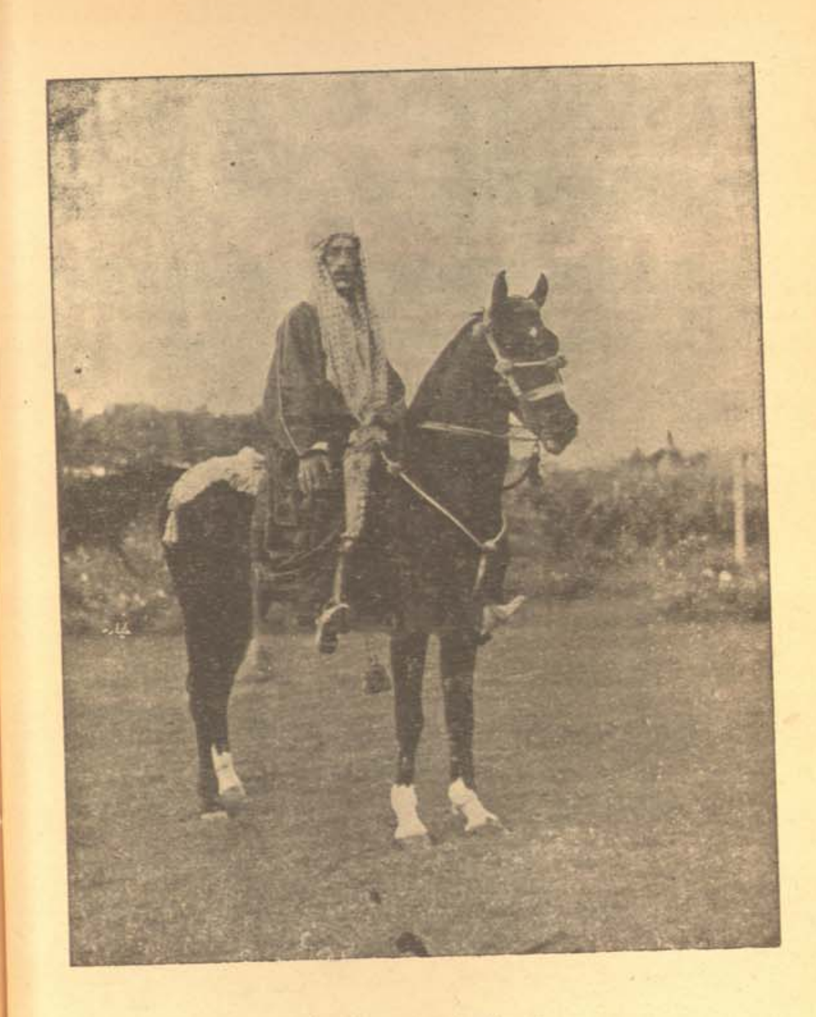


(١) « ولكن دعاية شنيعة بثت عليه — اي فيصل — عند عودته من باريس فتراجع من غير انتظام، لانه كان حديث العهد بالشؤون السياسية والحملات المدبرة، ولو انه وقف موقفاً ثابتاً، ودافع عن آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد من المعتدلين انصاراً يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه»

الدكتور عبد الرحمن شهبندر في مجلة المقتطف
تشرين الاول ١٩٣٣

القسم الثاني

ملك العراق ومملكته



ملك العراق فيصل الاول
في بغداد — ١٩٣٢

- ١ -

تمهيد

لا جرم ان يتأثر الامير لما حدث ، فيشاهد انهيار اغراض كان يعقد عليها كثيراً من الآمال في صحراء العربية ، لقد اسقط في يده حقاً ، ولكنه لم يكن بالرجل الرعديد الذي يقف امام المصاعب او يتراجع امام العواصف .

اقام اياماً في حيفا ثم راحت مس تيوتون المعروفة باعمالها بين العرب ، تعرض عليه الاقامة في منزلها في جبل الكرمل فقبل الضيافة ومضى مع اخويه وبعض انصاره المخلصين اياماً اخر ، ثم اعتزم الهبوط الى ايطاليا ريثما يستقر رأيه على منهاج وسبيل

وجاءته في هذه الاثناء دعوة الى لندن ، وكان حداد باشا احد رجاله ما يزال في لندن على اتصال برجال الحكومة البريطانية ، فقر رأيه على الذهاب اليها — خصوصاً وانه كان ما يزال يمثل والده وقد عهد اليه هذا بمهمة جديدة — فركب البحر الى لندن في ربيع سنة ١٩٢١ ومعه شقيقه الامير زيد وجعفر باشا.

العسكري . واقام فيصل في لندن مدة من الزمن كان يتصل فيها بالمستر ونستون تشرشل ويصار الى الحديث معه في مختلف الشؤون الحاضرة .

وكانت الحكومة الانكليزية قد انشأت مؤخراً دائرة للشرق الادنى عهدت الى المستر تشرشل الذي كان وزير الحربية والطيران بتعهدها وادارتها ، وكان لورانس في ذلك الحين مستشاره السياسي ، فقرر المستر تشرسل ان يعقد مؤتمراً في القاهرة ، وفي غضون مباحثات هذا المؤتمر صار الاتفاق على تعضيد ترشيح فيصل لعرش العراق

وكان العراقيون يفضلون الملكية على الجمهورية وليس اصلح من فيصل بين ابناء الحسين الاربعة لهذا العرش الجديد

وفي غضون اقامة فيصل بلندن اجتمع الى كثيرين من رجال السياسة الانكليزية ، واخذ بعدئذ يفكر جدياً بالعرش الجديد الذي سيعهد به اليه وهو وان كان لا ينكر نهاية التجربة الاولى وفشلها ، الا انه كان مطمئناً الى نجاح الثانية فذهب الى الحجاز يتحدث الى والده بالامر وكله آمال وايمان .

***

لقد كانت الحالة في العراق سنتي ١٩١٨ و١٩١٩ سيئة كثيرة الاضطراب ، وسبب ذلك عدم الاستقرار السياسي في تلك

البلاد ، وعدم التمكن من عقد معاهدة صلح نهائية مع الترك ، يضاف الى ذلك كله موقف الولايات المتحدة ، التي بعد ان وضعت اصابعها في كل الشؤون السياسية في الشرق ، راحت تنسحب وتتخذ لنفسها خطة حياد ، تاركة للحلفاء مسؤولية القيام بحكم البلاد الجديدة ، التي كان يصح ان يعهد للولايات المتحدة بالانتداب على بعضها فتخفف في ذلك عن الحلفاء بعض المشاكل والاضطرابات والمسئوليات .

ولما كان قد عهد الى انكلترا بدرس المطالب العربية ، ومعرفة اغراض هذه الامم الحقيقية ، فقد راحت حكومة جلالة الملك تبحث فيما اذا كان عرب العراق يريدون انشاء دولة واحدة من حدود الموصل الى بلاد فارس ، واذا كانت هذه رغائبهم فهل يريدون ان تكون هذه البلاد تحت حكم امير عربي ، ومن هو الامير الذي يختارونه ؟؟

وقد اجمع اهل العراق على الامر الاول واختلفوا في الثاني فلما عهدت جمعية الامم الى انكلترا بالانتداب على العراق تلقى العراقيون الخبر بشيء كثير من القلق والانكار خصوصاً رجال حزب العهد الذين حاربوا في الصحراء في سبيل الحرية العربية ، فقد راح يصرح هؤلاء ، انهم لم يحاربوا ويسفكوا دماءهم ليصلوا الى هذه النتيجة ، كما ان هناك كثيرون كانوا يعتقدون انه لا تستطيع

مملكة عربية ان تحيا وتعيش ، وهي مهددة من قوات الترك من
جهة ، ومن قبائل ابن السعود من جهة اخرى

وكان جمهرة الناس ينقمون ازدياد الضرائب واضطرارهم الى
دفع قسم من نفقات الانتداب ، واما الوطنيون فكانوا يقولون ان
البلاد اصبحت في حالة استعباد ، مما اضطر اصحاب الشأن الى عقد
معاهدة بدلاً من الانتداب تخفيفاً من غلوائهم ، وارضاء لفريق
الوطنيين من العراقيين ، وقد لاقت المعاهدة تأييداً من بعض
الطبقات .

ولما صار اقرار الانتداب في نيسان (١٩٢٠) عملت حكومة العراق
على ابدال الحكم العسكري بحكم دستوري ، وعهد الى السر
برسي كوكس بتنظيم ذلك ، ونشر بيان لهذا الغرض جاء فيه : ان
العراق دولة مستقلة تحت اشراف جمعية الامم وانتداب بريطانيا
العظمى وان السر برسي كوكس سيأتي في الخريف لتنظيم الحكومة
الجديدة ، فما كادت هذه الاخبار تعلن بين الناس حتى حدثت
الاضطرابات في البلاد ، مما حمل بعض الصحف الانكليزية
على المطالبة بالجلاء عن البلاد وتركها وشأنها .

***

لم تتناول المؤلفة حديث الثورة العراقية بشيء من التفصيل
فرأينا ان نقوم نحن بذلك ثقة منا بضرورة هذا البحث في ما يتصل

بتاريخ العراق قبيل تتويج فيصل على عرشه .

« قام العراقيون — وفيصل ما يزال في دمشق — ينادون
بالاستقلال ويطالبون به ، وكان يحرضهم على ذلك الضباط
العراقيون في الجيش العربي بسورية وبعض رجالات الانكليز من
الموظفين في الحكومة السورية ، نكاية منهم بسياسة زملائهم من
الموظفين الانكليز في العراق ، وكان هؤلاء يتمشون في سياستهم
على التقاليد الهندية وسياسة حكومة الهند ، التي كان اكثرهم
ينتمون اليها ، وظهرت الثورة اولاً في دير الزور واخذت تنتشر
بسرعة في البلاد من الشمال الى الجنوب .

وقد بلغت هذه الحركة اوجها في شهر التتويج في دمشق ، وبعد
شهرين منه مشى العراقيون من شيعة وسنية في مظاهرة عظيمة
يدعون للاتحاد الوطني ، وبعد انقضاء شهر رمضان خرج جميل بك
المدفعي من سورية بحملة مجهزة لنصرة اخوانه في العراق ، واصطدموا
بالانكليز وغنموا منهم مصفحتين ، واسروا بعض رجالهم .

ثم اضطربت البلاد اثر ذلك لاعتقال بعض مجتهدي الشيعة
وبعض زعماء القبائل ، وعلى اثرها افتى مجتهد كربلاء بالجهاد
فاندلعت الثورة من كل جانب ، ونفرت العشائر للقتال ، وانقسم
الانكليز في سياستهم ، وحصل تصادم ومعارك بين الطرفين

كان الامير في هذه الفترة في لندن يبحث مع رجالات

الانكليز ، وكان هؤلاء يقلبون اطراف الرأي يبحثون عن ملك عربي لعرش العراق ، ثقة منهم ان ذلك قد يعيد الامن الى نصابه ،ويبعث في النفوس الرجاء والاطمئنان ، هذا الى ان الانكليز كانوا ازاء الحملات العنيفة التي كانت تثيرها بعض صحف لندن مطالبة بالجلاء عن العراق قد اجمعوا امرهم على التفكير بشخص يحمل عنهم هذه الجهود ويخفف هذه الاعباء ... فاسسوا لذلك مجلساً وطنياً لحكومة الانتداب،وانشأوا وزارة عهدوا الى نقيب الاشراف في بغداد برئاستها.

وكانت مؤلفة من ثماني وزارات ، الداخلية ، والمالية ، والعدلية ، والدفاع ، والاشغال العامة ، والمعارف ، والصحة والتجارة ، والاوقاف ، وكان الوزراء الجدد يمثلون جميع الاحزاب والجماعات ، وعهد الى جعفر باشا العسكري بوزارة الدفاع،وكان في الوزارة ساسون افندي حزقيل وهو يهودي معروف وعبد اللطيف باشا المنديل وهو رجل نجدي.

ثم دعي السر برسي كوكس وغيره من عظام الانكليز في البلدان العربية لحضور مؤتمر القاهرة (اذار ١٩٢١) برئاسة المستر تشرشل ، ليبحثوا في تخفيف الاعباء عن المكلف البريطاني باسرع ما يمكن.

وجاء الامير فيصل الى القاهرة ايضاً ،واغراضه تتصل بالمكلف

البريطاني ، ألم يعد المستر تشرشل بان يعمل على تخفيف موازنة العراق في ما يتصل من هذه الموازنة بالجيش الانكليزي والادارة المدنية ، وكانت في سنة ١٩٢٠ قد بلغت ستة وعشرين مليون ليرة انكليزية .

وايد السر برسي كوكس رأي الامير وذهب بدوره يدعو لانشاء حكومة عربية وطيدة الاركان تعمل على تأليف جيش وطني يغني الانكليز عن قوات الدفاع ، واتفق المؤتمر عندئذ على تأييد ملكية فيصل لعرش العراق .

وفي هذه الاثناء راح السيد طالب النقيب وزير الداخلية في بغداد يدعو للملكية الغير هاشمية ، كان يريدها ملكية عراقية ، ولعله كان يريدها لنفسه ، ومن مثله زعامة وقوة ونسباً ، فلما فشا شأنه اصدر العميد السامي امره بنفيه ، وكان ذلك امراً مقضياً ، واخذ القوم بعد ذلك ينصرفون الى الترويج لملكية فيصل في طول العراق وعرضه.

وما لبثت سياسة السر برسي كوكس الحازمة ان اعادت السلام الى العراق ، وعندئذ عرض ترشيح فيصل رسمياً على الشعب

- ٢ -

ماضيات الايام وحاضرات الزمن

العراق بلد يسقيه نهران كبيران ، الدجلة والفرات ، مؤلف من ثلاث ولايات تركية ، بغداد والبصرة والموصل ، فلما جلس فيصل على عرش العراق لم تكن الحدود واضحة المعالم ، محددة تحديداً منظماً في ما يتصل بسورية وتركيا وشرقي الاردن وبلاد نجد والكويت .

وكان الترك يحركون الشغب من مراكزهم في الحدود الشمالية وكان شأن القبائل البدوية بعيداً عن الاستقرار غريباً عن السلام وكانت بلاد فارس تضطرب بدعاية بولشفيكية ، واما القبائل الكردية فكانت ابداً في حالة غريبة من عدم الاستقرار والاطمئنان . وكان الحال في بغداد بعيداً عن الرضاء ، فقد اشتبكت فيها المصالح ، وثارت الاحقاد السياسية ، ونفرت المنازعات الدينية .

وليس عرب العراق حزباً واحداً ، وعقيدة واحدة ، بل هم يضطربون في عدة عقائد ومذاهب ، ففي بغداد نفسها ما يزيد عن عشرة من المذاهب والعقائد من عرب وكرد وهنود وفرس

ومسيحيين ويهود وغير ذلك مما لا حاجة لحصره ، ولا فائدة من ذكره ، يضاف الى هذا طبعاً العنصران الاسلاميان السنة والشيعة اللذان يؤلفان اكثرية الشعب العراقي ، ولا بد من الاشارة الى ان السياسة عند الشيعة كان يسيطر عليها مجتهدو النجف وكربلاء ، الذين هم من الفرس في اكثر الاحايين او من الموالين للسياسة الفارسية .

والعراق سحيق العهد بالعمران ، بعيد المدى في الحضارة ، تداولت عليه دول عديدة وامم مختلفة ، وشهد من امجاد السلطان والعمران ما شاء الله ان يشهد ، من ايام سرغون الاول ، الى ملوك اشور وبابل ، ثم تبدلت الايام فاذا بالفرس ينزلون عليه ، وبالاسكندر يكتسح امصاره ، حتى جاء الاسلام فاستقر بين انهاره ونخيله ، وتبسط في امصاره وبلدانه وما يزال يتبسط به برغم تبدل الايام وتداول الممالك حتى يومنا هذا .

وليس هنا مجال التبسط في تاريخ العراق ايام الدولتين الاموية والعباسية ، ولا في استبحار العمران في العراق عهد العباسيين ولا في انشاء الخليفة المنصور لبغداد العاصمة ، ولا ما وصلت اليه هذه المدينة من خطورة الشأن ، ورفعة الامجاد في ايامه وايام خلفائه من بعده ، ولا في ما نزل فيها بعد ذلك من هلاكو المغولي ، وتيمورلنك التتاري ، فهذه بحوث يصح ان تترك لكتب التاريخ

والسير ، ولكن الذي نريد ان نقوله ان بغداد بعد ما اصابها من
هدم وتدمير واحراق في عهد هذين الرجلين لم تستطع العودة
الى ماضيات ايامها ، ولا كان بطوقها ان تستعيد امجادها
السالفات ، فظلت في عهد الترك الذين خلفوا العرب في
حكمها بلداً قليل الخطورة ، ضعيف الصوت في السياسة والادب
والحضارة .

وشاهدت بغداد في ما شاهدته من تاريخ ماض ، تبسط
السلطان التركي فانهياره فسقوطه ، ورأت توسع بعض الدول
التجاري في ما حولها من امصار وشواطيء ، وتبسط الانكليز على
ضواحي الخليج العجمي ، وعقدهم المعاهدات مع بعض شيوخ العرب
كشيخ المحمرة ومسقط والبحرين والكويت وغيرهم ، وهي
تشاهد اليوم عودتها الى ماضيات الايام ورجوع الاستقلال الذي
فقدته منذ اجيال

***

ولا بد من الاشارة بكلمة مختصرة الى نظام الانتداب الذي
احدث ضجة عظيمة حين ظهوره واقراره

ولئن كان المستر ودرو ويلسن صاحب الفكرة الاولى في
الانتداب الا ان الفضل في تنظيم هذه النظرية الاولى ، ووضعها في
قالب سياسي يعود الى الجنرال سمتس ، وقد اقرت جمعية الامم في

مادتها الثانية والعشرين هذا النظام ونصت على ان يصار الى
تثقيف الامم والجماعات التي انفصلت عن بعض الممالك بعد الحرب
العامة ريثما تصبح اهلا للحكم الذاتي ، وان هذا التثقيف والتدريب
هو واجب مقدس تقوم به الحضارة الحاضرة .

وقد رأت جمعية الامم ان احسن السبل الى تثقيف هذه
الجماعات هو ان يعهد الى دول ارقى منها حضارة وعمراناً بالعناية
بشؤونها والقيام بامرها وتنظيم حكوماتها ، وهذا الانتداب تقوم
به الدول المذكورة باسم جمعية الامم نفسها .

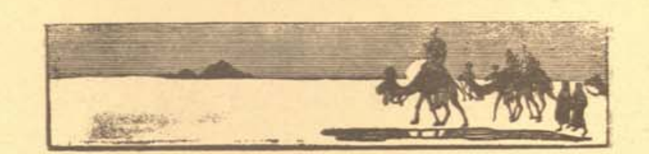
واما الانتداب فيختلف وفاقاً لاهلية السكان واستعدادهم
ومواقع البلاد الجغرافية التي يقطنونها ، وثروة البلاد والارض وغير
ذلك مما يتصل بهذه الامور والاسباب .

ولما كان هناك جماعات من سكان الدولة العثمانية سابقاً قد
وصلوا الى درجة من الرقي يصح معها الاعتراف باستقلالهم موقتاً
على ان يصار الى العناية بامرهم وتدريبهم على هذا الاستقلال من
الدولة المنتدبة نفسها حتى يحين الوقت الذي تتمكن فيه هذه الجماعات
من حكم نفسها بنفسها .

وقد اقرت المادة المذكورة ضرورة تقديم تقرير سنوي عن
مناهج الحكم المتبعة في البلاد المنتدبة ودرجة الرقي فيها وغير ذلك
الى جمعية الامم ، وهذا التقرير مفروض تقديمه من الدولة

المنتدبة الى مكتب الجمعية ·

وقد صار تصديق عهدة جمعية الامم وادماجها في معاهدة فرسايل التي صادقت عليها الدول المختلفة في العاشر من شهر كانون الثاني ١٩٢٠ وبذلك اصبح نظام الانتداب امراً واقعاً ، وعهد الى بريطانيا بالانتداب على العراق ، ويجب ان يذكر في هذا الباب ان الدولة المنتدبة ليست حرة في اعمالها كلها ، فان عليها حين تريد اقرار نظام جديد في البلاد الواقعة تحت انتدابها ان تعرض الامر على جمعية الامم وان تأخذ قراراً تؤيدها فيه بذلك



-٣-

بغداد

تزينت بغداد في التاسع والعشرين من شهر حزيران (١٩٢١) وخرج اهلها لاستقبال الامير فيصل ، وقد زينوا مخازنهم ودورهم بالرايات العربية الشريفية ، وراح الناس ينتظرون مرور الموكب في الشوارع والساحات والمقاهي والدور والمنازل ، ولكن حدث ان تاخر قطار الامير فارجيء موعد قدومه الى المساء ليتمكن الرجال الرسميون من استقباله في ساعة غير محرقة من ساعات بغداد

وقد استقبل الامير في البصرة التي وصلها على باخرة حربية استقبالاً حسناً ، وكان يرافقه الكولونل كورنواليس احد رجالات الانكليز الذين كانوا يعملون معه في دمشق لاشهر خلت. وقد وفق في خطابه الاول كل التوفيق ، ولكن الاستقبال كان ينقصه شيء من المرح ، لم يطلق فيه الناس لعواطفهم العنان ، ولعل سبب ذلك ان البصرة كانت ترغب في ادارة مستقلة عن العراق ، وانها لم تكن ترجو في النظام الجديد خيراً كثيراً . وكان

الاعتقاد السائد ان الدعاية التي روجت في سبيل الامير في بغداد
قد حملت اثمارها ، وان الامير واجد في العاصمة استقبالاً جميلاً
حقاً ، بيد ان اصحاب الشأن ومروجي الدعاية لم يكونوا على مثل
اليقين من كل ذلك ، فقد كانوا يلاقون الامرين من حر الانتظار
وخوف الفشل ، ولم يكن الامير اقل تردداً واضطراباً منهم لما
غادر مكانه في القطار الى رصيف المحطة ليستقبل تهانيء المندوب
السامي (السر برسي كوكس) وقائد الجيش العام ، وصفق الذين
اجتمعوا حول المحطة من مختلف الطبقات الشعبية للامير ، لما راح
يتقدم الهوينا بلباسه العربي الجميل وقامته العالية ، يستعرض حرس
الشرف ثم يسلم على رجالات العراق من رسميين وغير رسميين الذين
اخذ المندوب السامي يقدمهم له.

وفي المساء اقيمت وليمة كبرى في حديقة (مود) قرأ فيها
الشاعر الزهاوي قصيدة لطيفة قوبلت بالتصفيق ، وتكلم على اثره
احد ادباء الشيعة فامتدح فيصلاً في قصيدة كانت طويلة الاوزان
كثيرة الابيات

وقد اثارت شخصية الامير القوية ، ودماثة اخلاقه ، ولباقة
حديثه فرحاً في الاوساط السياسية العراقية ، خصوصاً بين الفيصليين الذين
ملأوا البلاد دعاية لمليكهم الجديد ، فراح الناس يطلبون ان يصار
الى مبايعة الامير بالملك قبل الاستفتاء ، وقرر مجلس الوزراء في ١١

تموز ان يكون الامير فيصل بن الحسين ملكاً على العراق حالاً
شرط ان يرضى بحكومة دستورية نيابية ديموقراطية ، فاجاب
المندوب السامي على كل ذلك بضرورة الاستفتاء ليكون الاجماع
عاماً والمبايعة جامعة ، ونشط الموظفون السياسيون لترتيب
الاستفتاء ، فلما صاروا اليه خرج فيصل منه بستة وتسعين بالمئة من
الاصوات الشعبية

وفي الثامن عشر من شهر آب كتبت وزارة الداخلية الى
السيد عبد الرحمن النقيب رئيس الوزراء في ذلك العهد تعلمه نتيجة
الاستفتاء وبان فيصلاً قد انتخب ملكاً باكثرية عظيمة

ولم يكن هناك من شك في ان الامير واجد في قلوب
العراقيين موطناً ليناً لما اتصف به من جميل الخلق وسمو المباديء ،
وكان مجلسه يعج بالناس على اختلاف طبقاتهم ، فمن وفود التهنئة الى
اصحاب المصالح وغير المصالح حتى ليقال بان البلاد كلها مشت
لتهنئته ، وراحت تعلن اعجابها به وتقديرها لشخصه ، واحتفلت
به الجماعة اليهودية احتفالاً شائقاً في منزل الحاخام الاكبر ، فنجح
فيصل كل النجاح في التأثير على المجتمعين ولما خطبهم اشار الى
ضرورة التفاهم بين العرب واليهود الذين تربطهم ببعضهم عنصرية واحدة
هي العنصرية السامية ، كما انه اشار شاكراً الى التأييد الذي نولاه
به الانكليز ، وكانت حفلة من حفلات ، اخذ بعضها برقاب بعض ،

ووفق الامير فيها كل التوفيق.

« والواقع ان الامير حقق الامال المنتظرة ، وقد حذا خصوصاً في خطبه حذو جده الرسول فجعل كلامه على قدر عقول الناس فجاء عفو القريحة ، رصين الحديث ، خلواً من التعمل والتكلف ، سهلاً واضحاً ، صريحاً فصيحاً ، وكان فوق ذلك يخص كل وفد من الوفود ، وكل فريق من الناس بكلمة توحيها اليه تقاليدهم ونزعاتهم السياسية والدينية ، مما ارضى الجميع واعجب الجميع »

« كأني والله اسمعه يناشد الشيعة بوحدة الاسلام والاخاء الاسلامي — اولا نؤمن نحن واياكم بالله والرسول ، ونكبر آل البيت ؟ أوليس السادة والاشراف من سلالة واحدة!

واسمعه يتلو على اهل السنة من صفحات العباسيين الذهبية آيات المجد والنور ، فيذكرهم بماضيات الايام وعهد هارون والمأمون ، ثم يحثهم على النهوض والتعاضد والعمل يداً واحدة في الحضارة والعمران ليعاد الى العرب مجدهم السالف وعزهم الغابر

وكان يصرح ويؤكد للاقليات انه مقيم على مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الرعية ، على اختلاف مذاهبهم الدينية وتعدد نزعاتهم ، ويروح يقول « نحن عرب قبل عيسى وموسى ومحمد»

وكان يحدث المعتدلين في ثقة المرء بنفسه وفي الشجاعة والاقدام وفي الحماس الذي يجب ان يضطرب في نفوس الشعوب لتسمو

وتعلو ، حتى اذا جلس للمتطرفين حذرهم من المزالق والتسرع في الامور وغير ذلك مما يدل على انه كان يحيط بنفسية كل قبيلة وجماعة ...

وقد وصفت المس غرترد بل السكرتيرة الشرقية في دار المندوب السامي زيارة الملك فيصل عرب العمارات والدليم في مضاربهم (٣١ تموز ١٩٢١) وهي صورة بديعة هذه التي توفرت المس بل على وصفها في كتابها الى والدتها (١) قالت :

« كانت مواطن القوم الذين قصدناهم تقوم على مقربة من الحدود السورية العراقية ، فمررنا بقبائل بني عنزة الذين انتظموا صفوفاً لاستقبال الموكب ومعهم جمالهم وخيولهم ، وقد خفقت فوق ذلك كله راية القبيلة ، فوقفنا للسلام عليهم ثم تابعنا السير الى الرمادي حيث جاء يستقبلنا في ظاهرها علي سليمان زعيم الدليم ومن اكبر رجالات العراق

« ومنها نزلنا الى الفرات حيث نصب لنا فسطاط يضطرب في مائتي قدم ، وقد وقف خلفه وحوله جماعات الدليم من مشاة وركبان وقد رفع احدهم علم القبيلة عالياً يناطح السحاب.

وجلس فيصل على ديوان اعد خصيصاً له ، وكان كثير

---

(١) تحارير غرترد بل — المجلد الثاني —

الانشراح، ظاهر البشر، لوجوده بين مثل هذه القبائل العربية التي تعود الجلوس اليها، والف الحياة معها

ولما راح يخطبهم اشار الى الذين كانوا بعيداً عنه بالتقدم الى جانبه والجلوس حلقات في الفسطاط، ثم اندفع يتكلم بصوته البدوي ولهجته العربية الفخمة، فاستحثهم على الاتحاد والتضامن، وذكرهم بما عليهم من الواجبات في رعي العهود والمحافظة على الامن في البادية .

وقال في معرض خطابه انه لم يجلس مثل هذا المجلس منذ اربع سنوات . ثم اشار الى عهد العراق الجديد، وكيف انه كثير الامل في ازدهاره وعمرانه، واستبحار سلطانه بتأييدهم وزعامته .

ثم قال : ومن هذا اليوم وهذه الساعة — ووقف يسأل عن تاريخ اليوم، فاجابه احدهم، فعاد متمماً حديثه — اني ولي امركم ومسؤول عنكم، فمن تجاوز حدوده فحسابه عندي، ساقضي بينكم بالعدل في مجالس يحضرها شيوخكم، وهذا حقي عليكم لاني ولي امركم .

فسأله شيخ طاعن بالسن :

— وحقوقنا نحن ؟

فقال فيصل :

— ان لكم حقوقاً كرعية، من واجبي المحافظة عليها .

فصاح عندئذ بعض شيوخ القبيلة قائلين :

— نعم ... نعم ... لقد رضينا ...

وهي صورة تعيد ذكرى تلك الايام السالفات يوم كان يجتمع البدو من امثال هؤلاء حول شاعر يسرد عليهم بعض شعره فيصيحون بعد كل مقطع وقصيد قائلين :

— انها الحقيقة ورب الكعبة .

***

وكانت حفلة المبايعة بعد ظهر اليوم نفسه، فجلس فيصل يتقبل مبايعة زعيمي القبيلتين — الشيخ فهد الهذال امير العمارات، والشيخ علي سليمان امير الدليم = وشيوخها وكبارها وهم كثر .

« ولا بد من كلمة في هذه المناسبة، يقول الاستاذ الريحاني في كتابه عن فيصل الاول ان زعيم العمارات والدليم لما بايعا فيصلا قالا له :

— اننا نبايعك لان الانكليز قابلون بك ! »

وقد اراد الانكليز ذلك، ودبروا الحفلة لهذا الغرض، لكي يسمع فيصل بان الانكليز هم ارادوه على العرش، وانه لولاهم لما تمكن من الوصول اليه، وانه يصح

منه والحالة هذه ان يكون لبقاً في تصرفه معهم ، محافظة على صداقته لهم .

وقد تلقى الملك هذه الكلمة بصدر رحب ، وبسمة عذبة ، واطلق نظره الى المس غرترود بل ، وهو يبتسم ابتسامة رقيقة المغزى ثم قال :

«ان علاقتي مع الانكليز معروفة ولا احد يشك بها وموقفي العربي كذلك معروف ، انما يجب علينا ان نصلح شؤوننا نحن العرب ، ويجب علينا وحدنا ان نحسم كل ما بيننا من خلاف»

وجاء يوم التتويج في باحة السراي (٢٣ آب سنة ١٩٢١) فوقف السيد حسين يقرأ بيان السر برسي كوكس المندوب السامي ، وفيه ان فيصلاً قد انتخب ملكاً على العراق بستة وتسعين بالمئة من الاصوات وان حكومة جلالة الملك جورج الخامس قد اعترفت بهذا الانتخاب .

ويقال بهذه المناسبة ان المستر ونستون تشرشل ابرق في ذلك الحين يطلب ان يعترف فيصل في خطبة التتويج ، بان السلطة العليا في البلاد هي للمفوضية البريطانية !

بيد ان فيصلاً ابى ذكر شيء من هذا في خطبة التتويج ، فما راح يشير ولا باشارة هامسة الى السلطة العليا او الى الانتداب ، وانما حصر كلامه بالمعاهدة التي ستعقد بين العراق وبريطانيا

العظمى ، وتعهد بان يرعاها فيدخلها في صلب الدستور الذي سيسنه المجلس الوطني .

وعلى اثر ذلك ووفاقاً للعادات المرعية قدم رئيس الوزارة النقيب استقالة وزارته ، وانعم عليه ملك الانكليز بنيشان كبير الشأن في هذه المناسبة تقديراً لخدماته السالفة



- ٤ -

ملك عربي

وكذلك كان جلوس ملك عربي على عرش الخلفاء في بغداد فعاد الى عاصمة ما بين النهرين ما قطعته جموع المغول لما نزلتها لسنوات خلت ،واجيال سلفت .

لقد كان الحدث نفسه بعيد الاثر عظيم الشأن ، كما انه كان تتمة لهذا الجهاد الذي بدأ به فيصل في الصحراء ، فراح بعيده اليوم في ظروف يصح ان يقال انها اصلح حالاً واهدأ احوالاً .

لقد كان من المنتظر ان يتولاه الزمن بخطورة الشأن ، وامجاد السلطان منذ مشى الى العقبة على رأس جيشه الصغير العدد والعدد وهو ما برح منذ ذلك شخصية قوية ظاهرة لها تأثيرها في احداث الزمن ومصاير الشرق ،وان كان والده ملك الحجاز كثيراً ما كان يذهب الى ان فيصلاً يعمل لنفسه لا لعائلته ، فكان في حذر دائم من اعماله واغراضه ، وهو ما يدل على تبدل نفسية المليك الشيخ في باقيات الايام

ولا جناح على فيصل وقد جلس على عرش العراق اذا راح يطمئن الى مقبلات الايام ،فقد مشى الى غرضه الملكي في شيء كثير من الهوادة والطمأنينة ، وبحسبك ان تذكر ان شيئاً من الاحقاد والمصاعب لم تضطرب في طريقه ، ولا ثارت في سبيله ، لقد كان في الافق بعض المصاعب والعقبات ، ولكنها مصاعب من السهل تذليلها وترويضها ، والمستقبل كفيل بذلك .

ولم يكن الملك غريباً عن العراق فقد نشأ وتربى في العربية فعرف البدو وتفهم ذهنياتهم واغراضهم ، ثم تداولت الايام فألم وهو يسير بين حاشيتيها بكثير من الشؤون في السياسة العربية ،واذا اضفنا الى ذلك نسبه الرفيع وتحدره من محمد نبي العرب والاسلام وما يتولى به شيعة العراق آل البيت من حب وتمجيد ، وما تناول به الزمن آل البيت من اضطهاد وتقتيل ، وكيف تقام الحفلات لذكرى هذه الحوادث في عواصم الشيعة في كربلاء والنجف والكاظمية وغيرها في ايام مقررة من كل عام ، وجدنا في فيصل شخصية اقرب ما تكون الى الشيعة ، ووجدنا فيه شخصاً لا يرى هؤلاء في جلوسه على عرش الاجداد والاباء ، ما يثير العواطف ، ويبعث المرارة .

ومما يبعث على العجب ان محمداً نبي الاسلام ، هذا النبي الذي لم يترك شأناً من شؤون الدنيا إلا عرض له ، ولا امراً من امور الحياة

الا ذهب يفصل بشأنه ، تولى عن الدنيا دون ان يعرض لمسألة الخلافة
من بعده ، وليس من يدري اذا كان النبي عليه السلام قد فعل
ذلك عن رأي سابق منه ، او انه ترك الامر لا يعرض له ولا يقره ،
فلما تولى ابو بكر الخلافة من بعده ، ذهب كثيرون يقولون بان
آل البيت احق بالخلافة من غيرهم وسواهم

كان علي رجلاً محبباً ، ولكن يظهر انه لم يكن رجل سياسة
وحكم ، فلما تولى الخلافة بعد الخليفة الثالث ، لقي حتفه كسلفه ،
ولما حاول ابنه الحسين ان يعيد الخلافة الى بيته وجد الامر فوق
طاقته ، فقتل وهو يحارب خصومه في الواقعة المشهورة في كربلاء .

اما العائلة الهاشمية فهي متحدرة من شقيقه الحسن ، فرعية فيصل
من الشيعة والحالة هذه يتقبلونه لنسبه الرفيع ، وان كان يمت الى
السنة ولا يتصل بالشيعة في مذاهب الدين والوان الكلام ، وهو
شيء له اثره في موقفهم ، ولم يطل المقام بفيصل في العراق حتى
شاهد النواح في الذكرى المفجعة لمقتل الحسين وكيف يمشي
جماعات الشيعة فيها يبكون وينتحبون ويعولون ، نساء ورجالا
وفتياناً واطفالاً ، لقد تناولت الايام هذه الذكرى المفجعة فخلقت
من حديثها واحداثها فصلاً يمثل في يوم مقتل الحسين من كل سنة ،
يعيد الشيعة بذلك للعيان حادثاً كان بعيد الاثر عظيم المصاير في
تاريخ الاسلام والعربية

وكان هناك بين فيصل وبغداد صلة اخرى ، وهي حبه للادب
والادباء ، وليس من ينكر انقضاء ذلك العهد الذهبي الفريد ،
الذي كانت فيه بغداد مدينة العلم والادب والشعر والبلاغة وعاصمة
الاسلام والخلافة ، عهد مضى وذهبت به الايام والاحداث ، فلست
ترى اليوم ، من آثاره شيئاً ولست تحس غير روعته وجماله الباهر في
ما تقرأه من كتب الادب واخبار السير ، ولقد تمشي النهار كله
فلا تعثر في بغداد على اثر يدلك على ماضيات ايامها وسالفات امجادها
فقد دال ذلك كله ، وتناولته الايام هدماً ونقضاً فلم تبق على شيء
منه ولم تذر . ولئن تمكنت الايام من هذه الاثار ، فهي لم تتمكن
من اخبارها ، وحديثها المليء بالروعة والجمال ، وهي لم تستطع منع
الناس في العراق من قراءتها ، والتحدث بها والاسف لمضيها . وهي
لم تتمكن من اخفاء حديث اولئك الخلفاء الذين جمعوا حولهم طائفة
من اكبر العلماء والادباء والشعراء في عصرهم ، يغذونهم بالمال
ويتولونهم بالاحسان ، ويدفعونهم الى التجديد في كل الوان الادب
والبلاغة والحياة ، لا يأبهون ان يقفر بيت المال من اغراقهم في البذل
وتورطهم في العطاء ، مما جعل العلم مزدهراً في عهدهم والفلسفة
ناشطة في ايامهم ، والمعارف متوفرة في عواصمهم وامصارهم في وقت
كانت فيه اوربا لا تزال مضطربة الاحوال مفككة الاوصال
ضعيفة العلم ، قليلة المعارف .

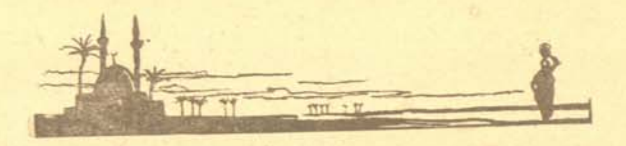
وبحسبك ان راح العرب في هذا الوقت المظلم في اوربا يحملون شعلة العلم ، ويتولونها بالانارة والاشعال حتى نشطت اوربا وتمكنت من ان تأخذها منهم ، وان تتولى العناية بها بعدهم .

هؤلاء العرب حملة العلم والفلسفة في القرون الوسطى ، ليس ينسى فضلهم على الحضارة الحاضرة ، وليس ينسى ابناء العرب انفسهم هذا الفضل في اجدادهم واذا ما ذكروه فانما يذكرونه واللوعة في قلوبهم ، يريدون ان يعيدوا الامجاد التي سلفت ، والحضارة التي عفت

وهناك صلة اخرى ايضاً وهي هذه الصلاة التي يتلوها المسلمون عند ذكر النبي عليه السلام ، يرفقون به آله وحفدته « اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله » وما تزال هذه الصلاة تقرأ في كل يوم وفي كل مصر من امصار الاسلام ، وما زال المسلمون يصلون على نبيهم وآله مدى الايام والاعوام

ولقد كان الحسين بن علي رجلاً تقياً وفياً ، يقوم بشعائر الاسلام وفاقاً لتقاليد السنة وقد نشأ اولاده مثله تقوى وتديناً ومن يقرأ كتاب لورانس عن « الثورة في الصحراء » يجد كثيراً من الاخبار التي تصف فيصلاً في صلاته وانصرافه لربه ، طالباً منه المغفرة والمعونة والمساعدة ، وكيف انه كان يقوم بواجبه في الحرب والسلم وفي المعركة وعند الراحة

اما السياسة الانكليزية فقد كانت وما تزال تعمل على احترام عقائد رعاياها الدينية ، وقد راحت هذه السياسة في كل ادوارها تجتنب كل ما يفسد عليها هذه الخطة ، او يحولها عن هذا السبيل ، وهي لما راحت تتوفر على انشاء مملكة عربية في العراق وفاقاً للنظم السياسية الدولية المتبعة في العصر الحاضر تركت لهذه الدولة نزعتها الاسلامية الدينية ، وتوفرت على مساعدتها في هذا السبيل ما استطاعت الى ذلك سبيلا



-٥-

الاقليات

لما استوى فيصل على عرش العراق ، واخذ يتولى حكم هذه البلاد بحزم وحرية وحسن لباقة ، وجد نفسه يتولى الحكم في بلاد تضطرب فيها اقليتان غايــة في القوة والنشاط ، وهما الاكراد والاشوريون

ولا بد من القول في هذا الباب ان الحدث السوري قد افاد فيصلا افادة عظيمة ، وكذلك الايام ما تبرح محك الرجال ، ومـا تزال احداثها عظة ونوراً ودروساً بالغات ، والواقع ان المهمة الملقاة على عانق فيصل كملك العراق كانت شديدة الخطورة صعبــة المزالق ، وكان اشد ما في مهمته خطورة وصعوبة ما يتعلق منها بالكرد والاشوريين ..

والاكراد الذين عاشوا مئات السنين في اطراف الجبال الواقعة بين تركيا وفارس وسورية ، كانوا يعدون ثلاثة ملايين من الانفس سكن نصفهم الارض التركية واستوطن سبعمائة الف في بــلاد فارس ، ونزل البعض الاخر في سورية ، وكان حظ العراق من

هذا العدد نصف مليون من الانفس .

واذا صرفنا النظر عن اكراد فارس ، فان امر البقية قــد تناوله الحلفاء بالبحث في معاهدة سيفر — التي لم تصدق — فقد جاء في هذه المعاهدة ان الكرد الذين يريدون او يتطلبون نوعاً من الحكم الذاتي ، يصح أن يرفعوا امرهم بذلك الى جمعية الامم بعد سنة من المصادقة على هذه المعاهدة ، وهم اذا فعلوا ذلك فان الحلفاء ينظرون بامرهم

ولكن انشاء حكومة مستقلة من جماعات يتولى الحكم على مقدراتهم ثلاثة حكومات مختلفة كان امراً اقرب الى الاحلام منه الى الامر الواقع الراهن

هذا الى ان المملكة العراقية لن تكون كاملة الاجزاء فيما اذا سلخت الموصل عنها ، وهي الولاية التي تسكنها الاكثرية الكردية .

والكرد شعب شجاع يحب الحرية ويتوق لها ، ولهم تقاليدهم ولغتهم ، ولهم من الحق في الحرية مثل ما لغيرهم ، ولكن كان ينقصهم عدم الاتفاق فيما بينهم لاختلاف الاغراض بين جماعاتهم .

كانت السليمانية عاصمة الكرد مقر كبارهم وشيوخهم وزعمائهم

و كان كبيرهم الشيخ محمود واسع الصوت فيها ، بعيد الخطر ، وكان
قد اتصل بالانكليز ابان الحرب لما ثار على الترك ، وضم جماعته الى
الجيش الانكليزي الزاحف ، فكان من الحق ان يعطف الانكليز
عليه وعلى جماعته لما تولوهم به من المساعدة في الحرب العامة ، ولكنه
لما قام بثورته سنة ١٩١٩ صدر الامر بنفيه وكان ذلك امراً مقضياً .

اما سبب الاضطراب فمرده رغبة القوم بالاستقلال ، هذا
الاستقلال الذي حارب لاجله العرب ، ونفروا وحداناً وركباناً
في سبيله السنوات المنصرمة ، حتى مكنهم الله من بعضه ، فراحوا
يعملون للوصول الى اغراضهم الباقيات .

و كان هناك بعض الخطر في ما قد ينصرف الترك الى استثماره
من تطور الحوادث ، وكان هيناً عليهم اثارة الثورة ، واشعال النار
خصوصاً وان وجود فرق من الجيش التركي على الحدود كان من
البواعث الخطيرة التي تساعد على الثورة ، وتقدم منهم نحو الحدود كان
كافياً ليبعث بعض القبائل على حمل السلاح ، ولم يكن في تدخل الجيش
العراقي وسلاح الطيران البريطاني لقمع الفتنة ما يساعد على توثيق
العلائق الحبية بينهم وبين الكرد ، والانكليز الذين خدموا مع الكرد ،
وعملوا على تدريبهم في الحرب العامة كانوا يجمعون على الاشادة ببطولتهم
وجرأتهم وقوتهم .

فيرى القاريء والحالة هذه ان الموقف كثير الدقة ، بعيد

الخطورة ، وانه لا بد فيه من بعد النظر وحسن السياسة ، ولباقة
التصرف .

***

اما الاشوريون فكانوا جماعة مسيحية من النساطرة راحوا
يطلبون استقلالهم الذاتي ايضاً ، ولو اعطي الكرد والاشوريون
ما يطلبون ، لما كان هناك ما يمنع اليهود وغير اليهود من المطالبة
بمثل ذلك ، وما كان يمنع اليزيديين الذين كانوا يعبدون
شيطانهم في جبل من جبال الموصل ، لا يعرضون لاحد ، ولا يعرض
لهم احد من الناس ، ان يندفعوا في هذه الخطة ، وان يطالبوا بمثل
ما راح يطالب به غيرهم وسواهم

وصف المستر ادمون كندلر في كتابه (الطريق الطويل الى
بغداد) ما تنعم به البلاد الشمالية من جمال ولطافة ، وقد وضع
كتابه هذا في ابان الزحف الانكليزي على بغداد ومطاردتهم
للترك في اثناء الحرب ، وفي وصفه تصوير لطيف لجمال هذه
الولايات ، وما تنعم به من زراعة ناضرة ، وسهول خصبة ، وماء
وفير ، وهواء معتدل لطيف .

وفي الموصل مواطن لا يضطرب فيها حر الصيف بسبب
من الاسباب ، ولا بد ان تعمل الايام على التحسين في هذا
السبيل فتنشأ المزارع وتقام المصايف التي تخفف من عناء

حر الصيف الشديد في المواطن الواقعة على ضفة دجلة وشواطيء الفرات .

وولاية الموصل تقوم مكان دولة اشور القديمة ، وتقوم بلدة الموصل على الشاطيء الايسر من دجلة كما ان انقاض نينوى عاصمة الاشوريين تقوم على الجانب الايسر ، وهي بعد بلد واسع العمران عظيم الشأن ، وهي تعد في نظر الكرد عاصمة كردستان او بلاد الكرد ، والواقع ان الموصل بلد عظيم الشأن بمركزه السياسي ومواصلاته التجارية، وموقعه الجغرافي .

وقد كتب المستر لوك الذي كان مساعداً لحاكم القدس كتاباً عن (الموصل واقلياتها) جاء فيه :

« يجد المرء في الموصل بين الجماعات الكردية والاسلامية التي تعيش فيها ، جماعات مسيحية من النسطوريين والاشوريين والكلدانيين واليعاقبة والكاثوليك السوريين ، ويجد ايضاً بعض الارمن ، مع ان مواطنهم بعيدة كل البعد عن الموصل وضواحيها .

واعجب من ذلك انك تجد احياناً في الحواضر القريبة من الموصل جماعة من اليهود الذين نقلوا من مواطنهم في فلسطين من زمن سحيق في التاريخ ، فتراهم وما يزال بعض افرادهم يعيشون في هذه البلاد ولا يزال كذلك بعض زعماء الكرد يملكون بعض اليهود ويستعبدونهم ، وهناك ايضاً بعض اليزيديين الذين يعبدون

الشيطان ، كما ان هناك قبيلة كردية من الشبك ، اقرب الى الشيعة منها الى اهل السنة في تقاليدها وعاداتها ، ويقال انها من المغول ، ومن سلالة تيمورلنك وهلاكو .

وهناك التركمان وغيرهم وسواهم وكل هذا يدلك على تعدد الاجناس في هذه الولاية الغريبة الواسعة الاطراف .

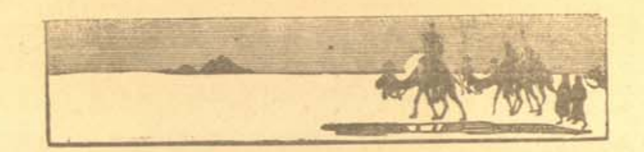
والواقع ان الارض نفسها في الموصل تختلف باختلاف الجماعات التي تسكنها ففيها الجبال ، وفيها الارض المنبسطة وفيها الوديان ، وفيها المغاور والمفاوز والصحراء وغير ذلك

هذه البلاد التي وصفناها ، وهذه الجماعات التي تسكنها والتي توفرنا على التحدث عنها ، اكثرها من الكرد الذين كانوا يطالبون بدولة مستقلة لا تتصل بالعرب والعربية

ولو ان فيصلا تحدث الى الكرد لازال ما كان يجول في خاطرهم من طلب الاستقلال ، ولكان تأثيره عليهم مثل تأثيره على القبائل العربية المتباينة الاغراض والنزعات ، ولكن مشاغل السياسة لم تكن لتسمح له بالتحدث اليهم وزيارتهم وقد كان يفكر ذلك الحين بتقرير مسألة الحدود بين العراق وتركيا ، ووضع حد لسوء التفاهم الذي كان يقع من حين لآخر بين الامتين

ولم تكن مسألة الحدود من الامور السهلة الحل والاقرار ، فقد كانت تركيا تطلب الموصل وما حولها من المدن والقرى ،

كانت تريد الولاية كلها و كان من مصلحة تركيا ان يطول الامر وان لا تصل مع العراق الى حل سريع ، ذلك انها كانت تزداد قوة يوماً عن يوم بقيام مصطفى كمال على رأس الحكم فيها ، وهي كلما ازدادت قوة ، زاد املها في نجاح مطاليبها وصولها الى الامر الذي تريد



- ٦ -

الوهابية والوهابيون !!

لقد كانت السنة الاولى التي تلت جلوس فيصل على عرش العراق تضطرب في شيء من القلق الداخلي ، وآخر من الاطماع الخارجية .

و كانت تركيا قد نشطت من عقالها ، وراحت تعيد امجادها السالفات بزعامة مصطفى كمال باشا الذي تمكن من طرد اليونان من بلاده ، وانتخاب مجلس وطني قضى على الفوضى الداخلية متخذاً له عاصمة جديدة هي انقره

وفي هذا العهد المضطرب الذي كان يوفق فيه القائد القوي الحازم ، تمكن جندي آخر من الاستيلاء على الحكم في بلاد فارس . فاقام نفسه رئيساً للوزارة ، واخذ يعمل على التنظيم والاحسان في هذه البلاد البعيدة المدى في الحضارة ، القديمة التاريخ في العمران .

ولم يكن رضا خان بهلوي غير قائد عسكري في فرقة القوزاق الفارسية ، ولكن اطماعه كانت كاطماع زميله مصطفى كمال باشا رجل تركيا الحديدي الذي الغى الخلافة وهدم السلطنة ،

وانشأ جمهورية جعل نفسه رئيسها مدى الحياة ، ومع ان رضا بهلوي لم يستو على العرش الفارسي الا بعد سنوات ، الا ان مركزه لما غلب على الحكم فيها كان ظاهر القوة بين الدكتاتورية .

وكان هنـاك شخص آخر ، هو ابن سعود سيد نجد وزعيم الوهابيين ، فقد كانت اطماع هذا تمتد حتى الخليج العجمي ، وكانت العلاقات السياسية بينه وبين الحسين بن علي ملك الحجاز مضطربة متوترة تنذر بشر مستطير وحرب قريبة .

ولئن وفق الملك فيصل في الوصول الى عرش العراق فان هذا لم يكن يمنعه عن الاهتمام بشوؤن الجزيرة العربية ، ومطامع ابن سعود فيها ، واضطراب الاسباب في امارة شرقي الاردن التي كانت تحت امارة شقيقه الامـير عبد الله ، وكان موقف والده كثير الخطورة لما هو معروف عنه من الشدة والصرامة في ما يعتقد انه حق من حقوقه ولذلك رأيناه يرفض المصادقة على مشروع المعاهدة بينه وبين بريطانيا العظمى ، وهو المشروع الذي حمله له الكولونل لورانس (١٩٢١) فلما اعيدت عليه كرة اخرى ، كان موقفه لا يتبدل ولا يتغير ، فخسر بذلك صداقة بريطانيا ، ولم يتمكن من الدخول الى جمعيـة الامم ، فلما هاجمه ابن سعود برجاله كان فريداً وحيداً

وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل السعود ، رجل ذهب

يلقبه بعضهم بموسوليني الشرق ، وهو بعد رجل قوي الارادة عظيم الدهاء تمكن في سنوات قليلة من ان يجمع حوله اكثر القبائـل العربية عناداً وشدة ، ومن الحق ان نتناول الحديث عنه وعن الوهابية في هذا الفصل لاضطراب العلاقات بينه وبين الحكومة العراقية في هذا العهد ، ولهذه العداوة التي كانت تشتد بينه وبين الحسين بن علي والتي كان من شأنها هذه الحرب التي بسطت نفوذه على المملكة الحجازية .

***

ولا بد في هذه المناسبة من ان نتقدم في هـذا الكتاب بخلاصات تاريخية موفقة عن الوهابية ونشأتها وخطورتها واستطارة شأنها واغراضها ليلم القاريء بالاسباب التي دفعت وتدفع ابن سعود الى نشر سلطانه على البلاد العربية كلها [1]

ينسب الوهابيون الى محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن احمد ابن راشد بن يزيد بن محمد بن يزيد بن مشرف

ومحمد بن عبد الوهاب هذا نجدي ولد سنة ١٦٩٦ ميلادية ويقول بعض المؤرخين انه من مضر ثم من بني تميم اخذ العلم عن والده وهم بيت فقه الحنابلة

وبعد ان تلقى محمد بن عبد الوهاب العلم وتوسع في علوم الفقه والتوحيد واخذ من مذهب احمد بن حنبل بقسط وافر حج وقصد المدينة ، ولما مات والده

---

(١) هذا الفصل من المعرب ولا علاقة للمؤلفة فيه

رجع الى العينية وبدأ ينشر دعوته بين اهلها فرضوا بها ، ثم خرج منها الى الدرعية وهناك اطاعه اميرها محمد بن سعود من آل مقرن وكان هذا سنة ١١٥٩ هجرية ، فانتشرت دعوته في نجد وشرق بلاد العرب الى ان وصلت الى عمان ثم خرجت الى الحجاز واليمن في سنة ١٢٠٠ هجرية وكانت وفاته سنة ١٢٠٦

تضلع محمد بن عبد الوهاب من علوم التفسير وادته المعيته الى الاجتهاد والاستقلال فلقن تلاميذه مذهب احمد بن حنبل بتوسع ، و بنى طريقته على اتباع ابن تيمية وابن القيم الا انه تصرف في بعض نقط اساء المطلعون فهمها، ومما يلاحظ ان دعوته احيت بعضاً من الشريعة وامات كثيراً من الباطل في ارض نجد والحجاز

وقال احمد سعيد البغدادي في كتابه « نديم الاديب » : « اما حقيقة هذه الطائفة فانها حنبلية المذهب وجميع ما ذكر المؤرخون عنها من جهة الاعتقاد محرف وفيه تناقض كلي لمن اطلع عليه بتأمل، لان غالب مؤرخي الشرقيين ينقلون عن الكتب الافرنجية فان كان المؤرخ المنقول عنه صاحب دراية وصادق الرواية، نجد ان من يترجم كتابه يجعل الترجمة على قدر اللفظ فيضيع مزية الاصل وان كان المؤرخ غير صادق الرواية فمن الحق ان يترك ومن اراد ان يعرف جلياً اعتقاد هذه الطائفة فليطالع كتب مذهب الامام احمد بن حنبل رضي الله عنه فانه مذهبهم »

وقال المستشرق سيديللو الفرنساوي في كتابه: «خلاصة تاريخ العرب» « اشتغل محمد بن عبد الوهاب في صغره بالعلوم المعتادة عند العرب خصوصاً الفقه وسافر الى بغداد والبصرة وبلاد الفرس ، ثم اخذ يفكر فيما يثير الحمية في ابناء وطنه فوجده في احياء الشريعة نقية من جميع البدع كحالتها الاولية فالزمهم المواظبة على العمل بالقرآن ونهاهم عن الغلو في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وعن تقديس الاولياء الذين هدم قبورهم وعن تعاطي المسكر وانكر

على الاتراك بعض الاحوال ، وقال ان الشريعة تقضي ان يخرج كل انسان خمس امواله زكاة وحرم الزينة والزم القضاة بتحري الصدق ، واخذ يعظهم بخطب عظم تأثيرها لديهم بموافقتها القرآن ، ومقصوده من ذلك استمالتهم الى الامور الحربية لينحيوا ما كان لآبائهم من العظمة وقد كان له ما اراد ، فان اقوى قبائل نجد وفدت عليه وانتظمت تحت لوائه فجعل محمد بن سعود قائد هؤلاء الوفود وزوج سعوداً ابنته وقلده الحكم السياسي على الوهابية لمعرفته بالقوانين العسكرية

وقال المؤرخ بيتن في كتابه عند الكلام على حرب الوهابيين في المجلد الثاني صفحة ٣٧ ما ترجمته

« قشع كل غياهب الظلمات التي ختمت على العقائد الاصلية التي املاها رسول الله صلى الله عليه وسلم . الى ان قال ولم تكن عقيدة الوهابيين بشيء غريب عن الاسلام الا انها عبارة عن رجوع الى حالة الاسلام الاولى والتمسك بعقائده وهي اقامة الصلاة وايتاء الزكاة وحج البيت »

وليس للوهابيين مذهب خاص يدعى باسمهم كما قال بعض الحاملين عليهم وانما مذهبهم هو مذهب الامام احمد بن حنبل وغاية الامر ان البيئة التي وجدوا فيها والتلقين الذي لقنوه في الدين يحتم عليهم ان ينبذوا البدع وينكروا كل ما لم يأت به القرآن والحديث ، ويستنكروا كل ما من شأنه التضليل، فان من ينظر الى الناس الذين يرتدون الحلل السندسية ويتطيبون بالطيب ويطلقون البخور في القباب العالية والمقصورات الانيقة والاضرحة الكبيرة التي اعدت لاولياء البيت، لا ينكر انهم يحترفون هذه الحرفة للتضليل بالشعب الساذج والاحتيال على اخذ النذور وغير ذلك مما يتبرأ منه الاولياء الكرام وآل البيت الاطهار ، ولما رأى الوهابيون ان مثل هذه الامور تفسد النخوة الحربية اسفوا لذلك وارادوا القضاء عليها فهدموا القبور وطمسوا معالمها حتى لا يجد مثل هؤلاء

الناس الى مرتزقهم بهذه الصنعة سبيلا . غير ان لكل جديد هيبة والاقلاع عن العادات القديمة صعب .

اما حقيقة دعوتهم وعقيدتهم فقد ذكرها الجبرتي في تاريخه عجائب الآثار في التراجم والاخبار حيث قال : وارسل الي شيخ الركب المغربي الوهابي كتاباً ومعه اوراق تتضمن دعوته وعقيدته هذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئات اعمالنا، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له . ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له ونشهد ان محمداً عبده ورسوله ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعص الله ورسوله فقد غوى ولا يضر الا نفسه ولن يضر الله شيئاً . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً . اما بعد فقد قال الله تعالى: قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين وقال الله تعالى: قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم . وقال تعالى: وما اتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا . وقال تعالى اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً فاخبر سبحانه: انه اكمل الدين وانه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، امرنا بلزوم ما انزل الينا من ربنا وترك البدع والتفرق والاختلاف . وقال تعالى : اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء قليلا ما تذكرون . وقال تعالى : وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون . والرسول صلى الله عليه وسلم قد اخبرنا بان امته تأخذ مأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع . وثبت في الصحيحين وغيرهما عنه صلى الله عليه وسلم انه قال: لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه ، واخبر في الحديث الاخر ان امته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة

كلها في النار الا واحدة، قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: من كان على مثل ما انا عليه اليوم واصحابي

اذا عرف هذا فمعلوم ما قد عمت به البلوى من عواظم الامور التي اعظمها الاشراك بالله والتوجه الى الموتى وسؤالهم النصر على الاعداء وقضاء الحاجات وتفريج الكربات التي لا يقدر عليها الا رب الارض والسموات وكذلك التقرب اليهم بالنذور وذبح القربان والاستغاثة بهم في كشف الشدائد وجلب الفوائد الى غير ذلك من انواع العبادة التي لا تصلح الا لله . وصرف شيء من انواع العبادة لغير الله كصرف جميعها لانه سبحانه وتعالى اغنى الاغنياء عن الشرك ولا يقبل من العمل الا ما كان خالصاً كما قال تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، ان الله لا يهدي من هو كاذب كفار)

فاخبر سبحانه انه لا يرضى من الدين الا ما كان خالصاً لوجهه واخبر ان المشركين يدعون الملائكة والانبياء والصالحين ليقربوهم الى الله زلفى ويشفعوا لهم عنده واخبر انه لا يهدي من هو كاذب كفار . وقال تعالي (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل اتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون) فاخبر انه من جعل بينه وبين الله وسائط يسألهم الشفاعة فقد عبدهم واشرك بهم وذلك ان الشفاعة كلها لله كما قال تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده الا باذنه) . وقال تعالى (يومئذ لا تنفع الذين ظلموا معذرتهم) وقال تعالى: (عندئذ لا تنفع الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا) وهو سبحانه وتعالى لا يرضى الا التوحيد كما قال تعالى (ولا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) والشفاعة حق ولا تطلب في دار الدنيا الا من الله كما قال تعالى (وان المساجد لله فلا تدعو مع الله احداً) وقال تعالى (ولا تدع

من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فان فعلت فانك اذاً من الظالمين)

فاذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم وهو سيد الشفعاء وصاحب المقام المحمود ، وآدم فمن دونه تحت لوائه، لا يشفع الا باذن الله فكيف بغيره من الانبياء والاولياء.. وهذا الذي ذكرناه لا يخالف فيه احد من علماء المسلمين بل قد اجمع عليه السلف الصالح من الاصحاب والتابعين والائمة الاربعة وغيرهم ممن سلك سبيلهم ودرج على منهاجهم، واما ما حدث من سؤال الانبياء والاولياء من الشفاعة بعد موتهم وتنظيم قبورهم ببناء القباب عليها واسراجها والصلاة عندها واتخاذها اعياداً ، او جعل السدنة والنذور لها فكل ذلك من حوادث الامور وهي ليست من الدين في شيء

اننا ندعو الناس الى اقامة الصلوات في الجماعات على الوجه المشروع وايتاء الزكاة وصيام شهر رمضان وحج بيت الله الحرام ونأمر بالمعروف وننهى عن المنكر كما قال تعالى: الذين ان مكناهم في الارض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور»

فهذا هو الذي نعتقده وندين الله به فمن عمل بذلك فهو اخونا المسلم له ما لنا وعليه ما علينا ونعتقد ايضاً ان امة محمد (ص) المتبعين للسنة لا تجتمع على ضلالة وانه لا تزال طائفة من امته على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي امر الله وهم على ذلك »

وقد علق الجبرتي على هذه الرسالة قائلا :

« ان كان كذلك فهذا ما ندين الله به نحن ايضاً وهو خلاصة اباب التوحيد وما علينا من المارقين والمتعصبين »

ويذكر بعض المؤرخين لهم عقيدة منظومة يحفظها حتى الرعاة :

وما الدين الا ان تقام شعائر وتأمن سبل بيننا وشعاب

ورأيهم في ذلك ان الطرق اذا كانت مأمونة امكن لكل فرد ان يتمتع بامواله واولاده وحياته فتشتغل الناس بالزراعة والتجارة واقتناء الماشية

للانتفاع بالبانها وصوفها وجلودها واذا صرفوا وقتهم في الكسب الحلال فهذا يشغلهم عن الحرام فلا يسرقون ولا ينهبون ولا يقتلون وهذا لا شك متمش مع التمدين الحديث فان الحكومات تنشيء الشرطة ابتغاء تأمين الطرق وحفظ اموال الناس وحياتهم

ويروى انه لا يوجد في نجد شاهد زور مطلقا.

***

هذه هي الوهابية وهذه هي اغراضها الدينية ومراميها في الاسلام وهي في الواقع وكما يدعوها الانكليز اقرب الى شعائر الاسلام الحقيقية ، ونشأته الفطرية من سواها وغيرها ، ثم هي لا تختلف عن ابناء السنة والجماعة الا في بعض التقاليد والعادات الدخيلة التي ليست من الاسلام في شيء وهو ما اردنا التبسط في بحثه قبل العودة الى تناول ما قطعناه من حديث سياسي

***

تقول مؤلفة هذا الكتاب ان محمد بن عبد الوهاب كبير الوهابية قد تلقى العلم في مدارس بغداد ودمشق ، وانه لما قام ينادي بالعودة الى الاسلام في فطرته الاولى لم يستمع له احد ، ولم يأبه له فرد حتى جاء سعوداً كبير قبيلته فاستمع له وايده ، وتولى نشر مذهبه فلما كان منتصف القرن الثامن عشر وجد هذا نفسه محاطاً بجيران اقوياء اشداء فراح يعمل بما لديه من قبائل وانصار على توسيع سلطانه وبسط نفوذه في ما حوله من قبائل وجماعات.

وقام بالامر بعده ابنه (ابن سعود الثاني) فراح يسير على خطة ابيه حتى استولى على امارة الحساء ، فاثار باستيلائه عليها شكوك الترك بشأنه واغراضه ، ولكن ابنه عبد العزيز بلغ اكثر مما بلغه والده ، فقد تمكن من اقتحام كربلاء وهدم المساجد فيها فاثار اقتحامه لها هزة نقمة في العالم الاسلامي من سنة وشيعة ، ثم راح يستولي على مكة بعد سنتين خلتا ، ولم يعمر بعد ذلك طويلاً فمات قتيلاً .

وتاريخ الجزيرة العربية في هذا القرن (التاسع عشر) اكثر ما يضطرب بهذا النزاع بين الترك والوهابيين فقد سير الترك على الوهابيين حملة ، اثر استيلائهم على اليمن ، فتمكنوا من صدهم قليلاً ، ولكن هذا لم يقض على الوهابية التي راحت تحارب الترك وتصادمهم وتخاتلهم وتماكرهم مدة سنوات عديدة ، وقد تمكن احد ابناء السعود في هذا الزمن من توطيد مركزه في الرياض ، واتخاذها عاصمة له ولجماعته .

لم تقف المناوشات في جزيرة العرب عند حد الخصومة التي ثارت نيرانها بين الترك والوهابيين ، فقد راحت قبائل جبل شمر بزعامة ابن الرشيد تساعد الترك على الوهابيين ، ورأى الترك في هؤلاء حليفاً عنيداً تصح الاستفادة منه ، فامدوه بالمال والرجال ودفعوه لمناوأة الوهابيين الذين كانت تضطرب بينه وبينهم

عداوة قوية .

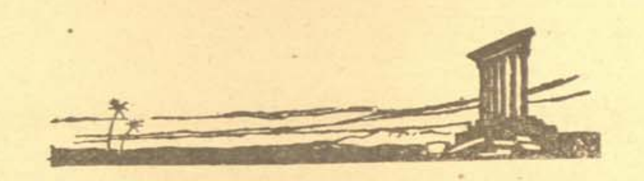
وكانت قبائل حائل وشمر قد اعترفت بالسلطة الوهابية ايام تفوق هذه وتبسطها في اواسط الجزيرة العربية ، وخدم عبد الله بن الرشيد تحت قيادة تركي بن سعود الذي كان لا يزال سيد حايل ، ولما سأله تركي ما يريده جزاء لخدماته طلب هذا ان تصار اليه امارة حايل ولاولاده من بعده .

وقد كان لابن الرشيد ما اراده فاستقل في امارته هذه وراح يتبسط في ما حولها من الوديان والصحراء حتى استولى على مواطن الوهابية نفسها ، واصبح سيد الجزيرة الوسطى ، فلما رجع عبد العزيز ابن سعود من الكويت حيث كان منفياً فيها (١٩٠١) راح يسترد مواطن اجداده ، وتراث آبائه ، وغلب منافسه ابن الرشيد سنة ١٩٠٦

وقد كان فيصل يعرف كل هذه الامور ، ويعلم كل خفايا السياسة العربية ، وكان لا يستطيع ان ينكر ان سيد نجد القوي يكره والده الحسين بن علي كرهاً شديداً وانه يروج حوله الشوائع ويبعث بالرسل الى القبائل المتفرقة يدفعها عليه ، وكان يعلم ايضاً ان هذه الخصومة المتصلة بين سيد نجد ووالده ، متصلة بينه وبين سيد نجد ايضاً ، وان انفاقها في الحرب العامة على الترك لن يخفف من شدتها ولن يقضي على نيرانها .

وكان ابن سعود قد طرد الترك من الحساء سنة ١٩١٤ دونما مساعد ولا نصير ، وكان على اتفاق مع الانكليز وقد زار البصرة كما قدمنا سنة ١٩١٦ لما نزلها الانكليز فاتحين . وقد جرب السر برسي كوكس ان يحمله على محاربة الترك وانصارهم ابناء الرشيد في حايل ، وارسل له الكبتن شكسبير الذي كان على ولاء وتفاهم معه لما كان منفياً في الكويت ، وكان هذا موظفاً سياسياً فيها ، ولكن النتيجة كانت على غير ما يرام ، فقد راح ابن سعود يحارب ابناء الرشيد في معركة واحدة ، ثم حصل ان قتل الموظف الانكليزي المذكور فلم يعد ابن السعود يحرك ساكناً ، وارتد الى مواطنه لا يأتي بحركة ، تاركاً للحسين بن علي مهمة محاربة الترك والثورة عليهم

وفي سنة ١٩٢٠ استولى ابن سعود على حايل فكان من نتيجة ذلك ان اصبحت حدود نجد تتصل بحدود شرقي الاردن والعراق وهو امر لم يكن يبعث على الاطمئنان .



- ٧ -

السنة الاولى

تعد الشيعة في العالم وفاقاً للاحصاآت الاخيرة سبعين مليوناً من الانفس ، فاما عددها في العراق فكان يزيد جماعة السنة بشيء قليل ، وكان سوء التفاهم امراً واقعاً بين الجماعتين لاختلافهما في السياسة وبعض العادات والتقاليد التي ليس فيها كبير امر ، ولعل اختلافهما في السياسة ونظم الحكم كان اشد خطورة وابعد اثراً .

اما اكثرية الشيعة فكانت تتبسط في بلاد فارس ، فمنهم الحكومة ومنهم رجال الدين ومنهم ما يتصل بهذا ويتعلق به ، وكانوا كما قدمنا ينظرون الى الخلافة الاسلامية كحدث لا يجب ان يخرج من آل بيت النبي ، فان هم تقبلوا فيصلاً واحتفلوا بمقدمه اليهم ، وتحفوا به لما جاء يزورهم ، فقد كان كل ذلك يضطرب في شيء من التردد ، وينقصه الكثير من الحرارة التي كان يجب ان تظهر في استقبالهم لاول ملك عربي للعراق ، وهو ما حمل الكثيرين على الاعتقاد بان السياسة الفارسية التي تغمر مواطن الشيعة في

العراق بعض الاثروالتأثير

راح ملك العراق الجديد ينصرف في السنة الاولى لتسنمه العرش الى شؤون السياسة ومصالح الدولة ، متنقلاً من سراي الحكومة الى منزل يقع خارج بغداد حيث اخذ يستقبل فيه زائريه من ارباب المصالح والوزراء وغيرهم ، باحثاً دارساً منقباً عاملاً ما يستطيعه على تحسين الحال ، واقرار الاحوال ، راجعاً بذلك الى نفسه وفطرته يوم كان يصرف نهاره وبعض ليله في البادية منهمكاً في بحث شؤون الدفاع مع انصاره ومستشاريه ، ما يعرف التعب ولا يتولاه النصب في ما ينصرف اليه من اعمال كان يعجز عن بعضها الرجل الجلد ذو القوة

ولقد كان عليه ان يوفق بين نظريتين في العراق ، نظرية الانكليز في حكم البلاد ، ونظرية المتطرفين الذين كانوا يرون في الانتداب استعباداً ينكرونه ولا يتقبلونه

عهد الملك في ايلول الى نقيب بغداد برئاسة الوزارة ، فألف هذا وزارة كانت موفقة بعض التوفيق في حسن اختياره لرجالها وكان السر برسي كوكس المعتمد الانكليزي يخابر لندن في ذلك الحين للاتفاق معها على معاهدة انكليزية عراقية تقوم مقام الانتداب الذي كان ينكره جمهرة العراقيين كما قدمنا ، وكان حزب الشعب برئاسة ياسين باشا الهاشمي قد نظم شؤونه واخذ ينادي بمعارضة كل

تدخل اجنبي في العراق ، والعجيب ان العراقيين انفسهم كانوا لا ينكرون ضرورة وجود جيش انكليزي في العراق يحافظ على استقلالهم من اعتداء الدول المجاورة ، وهذه الضرورة التي كان يؤمن بخطورتها اكثر العراقيين عناداً وتطرفاً لم تكن لتخفف من غلواء المتطرفين الذين كانوا يطلبون الاستقلال باي ثمن

لقد قلت يوماً لاحد رجالات العراق :

— ان الحرية حسنة جداً ، ولكن ما فائدتها دون ما قوة؟

— تكون كالسيارة دون ما بترول !

ومع ان كثيرين كانوا يؤمنون بهذه الظاهرة الا ان صوت المعارضة كان قوياً جارفاً

***

ولقد راح كاتب [1] يصف المليك في هذه الفترة المضطربة، راح يصفه في مأدبة اقيمت له بين البساتين والحقول والازهار فاذا به ظاهر الاضطراب ، لله من غم بأبي الحصر في القصور ، فيرافق صاحبه الى البساتين ، لله من غم يجلس فوق العرش ، ويمشي مع صاحب العرش فلا يكاد يتركه ابداً

---

(١) هذا الفصل ليس للمؤلفة

كان العراق يضطرب في ثورة كما قدمنا ، ثورة اشعل نيرانها مجتهدو الشيعة على الانتداب وانصار الانتداب ، فسقطت الوزارة على اثرها ، وبلغت هذه الحملة اشدها يوم عيد الجلوس الملكي ، وكان المليك يشكو ألماً في جسمه من التهاب في الزائدة المعوية ، فاشار الاطباء عليه باجراء العملية حالا فطلب منهم التأجيل ، وهل كان بطوقه ان يعمل غير ذلك وهو يريد تخفيف الحال ، وتهدئة النار ولكن الوطنيين كانوا حريصين كل الحرص على ان تعلو اصواتهم السماء في ذلك اليوم نفسه فراحوا يجتمعون ويخطبون ويصدرون المناشير .

يقول خطباؤهم وعدتم البلاد في حفلة التتويج بحكومة نيابية دستورية ، وها قد مرت سنة بكاملها والحكومة القائمة لا تعرف الوانها ، ادستورية هي ام انتدابية ، ام ملكية مطلقة ؟ لقد أسقطنا الوزارة التي عينها البريطانيون ، وجئنا نطلب وزارة وطنية صادقة يعينها مليك البلاد ، نحن نؤيد العرش ونرفض الانتداب ونطلب ان تحدد السلطة البريطانية في الدوائر الادارية كلها ، وان يعقد المجلس الوطني ، وان لا تعقد معاهدة بين العراق وبريطانيا قبل ان يتم ذلك كله

ترفق الملك فيصل بنفسه ، وراح يصبر على آلامه يوم العيد ، عيد جلوسه الاول ، واخذ يستقبل المهنئين من رجال الحكومة

والامة ، ومشى اليه وفد يمثل الحزبين الوطنيين ليسمعه شكوى العراق ومطالبه ، في شبه مظاهرة وطنية ، فلما وصل الى القصر كان الوفد جمعاً كبيراً ، وهناك في فناء القصر وقف الخطيب ينادي الملك فيصلا ويسأله مقابلة الوفد .

وكان المليك يستقبل المهنئين ، فبعث برئيس الامناء ليقابل الوفد ، ويجيب الخطيب بكلمة شكر تناسب المقام ، فلما وقف هذا خطيباً تناسى نفسه ، وراح يجاري الخطيب المتطرف في مضمار السياسة الوطنية ، فهتف له الجمهور اضعاف هتافهم لخطيبهم وفي هذه الاثناء وصل السر برسي كوكس يهنئ الملك ، وكان من واجب رئيس الامناء ان يستقبل العميد ، ولكنه راح يختم خطبته بكلمة من نار ، فصاحت جموع المتظاهرين اذ ذاك بسقوط الانتداب والبريطانيين .

وتقبل العميد هذا الاستقبال الشعبي بهدوء ورزانة ، وبعد ان قام بواجبه السياسي في تهنئة الملك ، عاد الى مقره ، وكتب اليه يعلمه بالحقيقة المؤلمة ، فمهما قيل في الاجتماع العام والشعب المتهيج الثائر ، فلا يصح ان يقال ان المظاهرة غير رسمية ، وهذا رئيس الامناء احد خطبائها . فتألم الملك فيصل للحادث ، وبعث للعميد السامي باسفه الشديد وأقال رئيس الامناء من مركزه

وفي صباح اليوم التالي لعيد الجلوس ، بينما كان فيصل محاطاً بالاطباء والممرضات ، وكلهم ينتظرون اشارة الطبيب للبدء بالعملية الجراحية ، وصل المندوب السامي ، فسلم واخرج من جيبه امراً قدمه للملك ليوقعه ، امر باعتقال سبعة من الزعماء الوطنيين ونفيهم من العراق ، قرأه الملك المريض وهز رأسه رافضاً توقيعه ، فحاوره العميد السامي بما يبرر العمل ويوجبه ، فما اجاب الملك بكلمة ، ولكن تقدم احد الاطباء الانكليز وخاطب العميد قائلا :

— ليس هذا الوقت لهذه المسائل ياحضرة العميد . .

— المسألة ضرورية لحفظ الامن في البلاد

فقال الطبيب — ان حياة جلالته الزم للبلاد . .

فقال الملك يخاطب السر برسي كوكس :

— بعد دقائق قليلة اكون بين يدي هؤلاء الاطباء وقد لا اعود من غيبوبتي الى الحياة ، فهل تطلب مني ان يكون هذا الامر آخر اعمالي في الدنيا ؟ هل تنتظر مني ان انفي اهل البلاد من بلادهم قبل موتي ؟ لا والله هذا غير ممكن ابداً .

وخرج العميد البريطاني من القاعة دون ان يفوه بكلمة ولكنه مضى في عمله منفرداً ، اذ نفى الزعماء السبعة الى جزيرة جنهام في خليج العجم باسم المندوب السامي للحكومة البريطانية ،

واقفل الناديين الوطنيين ، وعطل جرائدهما ، ثم طلب من اثنين من مجتهدي الشيعة ان يسفرا ابنيهما وهما من الوطنيين العراقيين ففعلا .

وعاد العميد فارسل الى بعض القبائل الطيارات ترميهم بالمناشير والنار فسكتوا وهدأت الاحوال



-٨-

المعاهدة الاولى

لما أبل الملك فيصل من المرض الذي ألم به اثر العملية الجراحية، والذي اضطره الى ملازمة فراشه ثلاثة اشهر، عاد ينصرف الى شؤون الملك شاكراً للعميد البريطاني عنايته بتصريف الشؤون مدة مرضه

لقد تدرب الملك على شؤون الملك ومصالح الحكم في سورية ولكن الموقف الذي هو فيه في العراق يختلف كل الاختلاف عن الموقف الذي مضى فيه زمناً قصيراً في العاصمة الاموية، واذا كان قد وفق في حكمه ونجح في توطيد ملكه فليس يعود ذلك الى اثر الوراثة في نفسه، ذلك ان فيصلاً كان الابن الثالث للحسين شريف مكة، ولم يكن في الافق ابان الثورة العربية ما يحمل احداً على الظن بان هذا القائد الحربي لجيش الثورة واصل في مقبلات الايام الى عرش العباسيين في بغداد، ولذلك فمن الحق ان يقال ان نجاح فيصل في مهمته يعود الى لباقة سياسته وحسن تصرفه، وبعد نظره.

ولم يوفق الملك دفعة واحدة، فان آراءه وهو شرقي كانت تصطدم في كثير من الاحايين، بآراء المستشارين الغربيين، ولكنه كسياسي بعيد النظر، كان اكثر مقدرة من المتطرفين على استطلاع سحب الغيب، ومعرفة ما تخبئه الاقدار، على ان ذلك لم يمنعه عن النظر الى آرائهم واغراضهم بعين الاهتمام، وكان كثيراً ما يريد لو تترك له الحرية المطلقة في تصريف الامور، او لو يترك له الوقت الكافي يرتب فيه شؤون المملكة واغراضها ومطالبها في جو هاديء مطمئن

وكان المليك موفقاً حقاً في وجود المستر (كورنواليس) الى جانبه، وكان هذا مستشاراً للداخلية وصديقاً لصاحب الجلالة، وقد صحب فيصلاً في سورية، فلما عرض على فيصل عرش العراق طلب من كورنواليس ان يرافقه اليها، ولا يزال هذا الصديق حتى اليوم في بغداد، وهذا يدل على ثقة صاحب الجلالة به.

وكان الموقف لا يزال مضطرباً، فقد عاد الشيخ محمود الى الثورة والشغب، فعاقبته الطيارات الانكليزية، واخذت قبائل شمر تتحرك كما ان ابن سعود سلطان نجد اخذ يظهر عداءه نحو الاسرة الهاشمية بما كان ينصرف اليه من حركات حول الحجاز، ومع كل ذلك فقد كتب جلالة الملك فيصل اليه كتاباً لطيفاً

يلقبه فيه (باخي الحبيب)وذلك لما ذهب العميد البريطاني الى العقير للاجتماع به

***

لما ابل الملك فيصل من مرضه انفق والعميد السامي على ان يعهد بالوزارة الى النقيب كرة اخرى ، وكان النقيب السيد عبد الرحمن في الثمانين من عمره ، ولم يكن الملك يريد ان يعهد اليه بالوزارة لولا اصرار العميد ، ذلك ان النقيب كان رجلاً مقعداً فكان مجلس الوزراء يعقد في بيته ، وكان الملك في المهم من المحادثات يضطر الى زيارته كما كان يفعل المندوب السامي البريطاني .

في ١٠ تشرين الاول ١٩٢١ قررت وزارة النقيب التوقيع على المعاهدة ، وصدر بلاغ ملكي من البلاط ان تمت المفاوضات برغم ما اعترضها من الصعوبات وان الفريقين توفقا الى حل مرض ، فالمعاهدة مبنية على المصالح المشتركة ، والحقوق المتبادلة وهي تضمن سيادة العراق الوطنية واستقلاله السياسي ، كما انها تضمن دخوله في عصبة الامم .

ولو ان هذه المعاهدة سارت سبيلها لكان بالامكان ان يخطو راق خطواته نحو الاستقلال المنشود بتؤدة وهدوء ، ولكن الوطنيين فيه كانوا يأبون الاعتراف حتى بالمشورة الانكليزية

التي نصت عليها المعاهدة ، وقد ترك امر المصادقة على المعاهدة للمجلس الوطني ، كما تركت كذلك بعض امور تتعلق بالموظفين الانكليز والحامية الانكليزية والقضاء والمالية ليصار الى البحث فيها بعد ذلك .

ومما يجب ان يصار الى ذكره في هذا الباب هو ان مدة المعاهدة كانت طويلة الامد ، عشرين سنة ، هذا عهد سحيق ، حتى ان بعض الانكليز انفسهم انتقدوا على هذا الامد البعيد وراحوا يطالبون تعديله كما كان يفعل وطنيو العراق

ويوم وقعت المعاهدة قام بعض الوطنيين يحتجون فاجتمعوا وخطبوا ، ومشى فريق منهم الى بيت النقيب فاذن لهم بالدخول واستمع الى خطيبهم يتكلم

ثم راح يسألهم قائلاً :

— وباسم من تحتجون ؟

فاجابوه : باسم البلاد !

فنهض من مكانه يهز عصاه ويقول :

— ومن انتم لتحتجوا باسم البلاد ؟ .. انا صاحب البلاد ، وانا اعلم منكم بحاجات البلاد واغراضها . عودوا الى بيوتكم واشغالكم ...

فخرجوا من لدنه ساكتين ، ولم يمض شهر واحد حتى سقطت

***

و كان النسر برمي كوكس في هذه الفترة في العقير ، يعمل وابن السعود على ازالة سوء التفاهم الذي كان واقعاً بين نجد والعراق ثم على تسوية العلائق النجدية البريطانية ، وقد عاد منه ومعه الكثير من المعلومات الخاصة بنجد والعراق ، وبضرورة انقاص امد المعاهدة ، فحمله هذا على التفكير بضرورة ركوب البحر الى لندن يخابر رجال الوزارة بالامر ، ويعمل واياهم على تصفية بعض المسائل المعلقة .

وقد قررت الوزارة بعد الاستماع الى كلامه وبياناته ان تحور المادتين ٦ و ١٨ في ملحق المعاهدة ، وقد نص هذا الملحق بأتي :

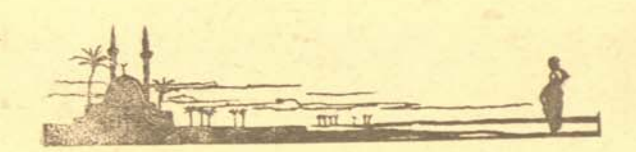
«ان المعاهدة تنتهي عندما يصير العراق عضواً في عصبة الامم ، وفي كل حال لا تتجاوز المدة اربع سنوات من تاريخ العقد لعهد السلم مع تركيا »

ومع ان في هذا النص قيداً جديداً الا انه كان على كل حال اصلح من الاول واحسن ، فرحب به الملك فيصل واذاع بلاغاً على الامة قال فيه : « تمكنت الحكومة ان تخطو خطوة كبيرة اخرى في سبيل تحقيق اماني العراق ، وذلك بعقدها الملحق الجديد للمعاهدة

العراقية الانكليزية ، وكان من جملة الاسباب الرئيسية المبني عليها الملحق تلك الخطوة السريعة التي خطتها حكومتنا في سبيل التقدم والاستقلال »

وكان التقدم في غير الشؤون السياسية ظاهراً بارزاً فقد اصبح التعليم باللغة العربية بدلاً من التركية ، وكذلك اصبح القضاء عربياً يفهمه المتخاصمان لا كما كان الحال في السابق

وكذلك كان الشأن في مختلف المصالح الادارية والاجتماعية الاخرى ، فقد راح اولو الامر يعملون على ان تكون عربية عراقية تتفق مع الذهنية العربية والعقلية العراقية



-٩-

جهاد ملك في سبيل امة

احاطت بالملك فيصل الوان الصعوبات ، واصناف المشاكل من داخلية ودولية ، مما لم يكن يطوق غيره من رجالات العالم ان يصطبر على مثلها او ان يتلقاها بالهدوء والتريث والهوادة التي تلقاها بها فيصل .

لقد ثارت في وجهه الاحقاد ، ومشت في طريقه المفاسد والاكاذيب ، فاتهمه العراقيون بانه يعمل للانكليز ، وقال هؤلاء عنه انه تركهم بعد ان تولى العرش ، وراح يعمل مع الوطنيين ولكنه وهو الوطني الذي يعرف واجباته نحو امته وبلاده ، مشى الى غرضه لا يأبه ولا يبالي ، فقد كان يعمل للتاريخ ، ولا بد للتاريخ ان يكون صادقاً في ما يكتبه عنه ، مخلصاً في تاريخ عصره ورعيته..

بعد ايام من عقد المعاهدة صدر مرسوم ملكي بأمر بانتخاب المجلس الوطني التأسيسي ، الذي كان عليه اقرار المعاهدة والمصادقة عليها

فما كاد المرسوم يصدر حتى ثارت المعارضة تدعو لمقاطعة الانتخابات ، وهب مجتهدو الشيعة في كربلاء والكاظمية يصدرون الفتوى بحض الشيعة على مقاطعة الانتخابات ، وكانت وزارة النقيب قد سقطت كما قدمنا بسبب هذه المعارضة ، وقام مكانها وزارة برئاسة عبد المحسن السعدون .

وكانت الانتخابات قد تأجلت ، ولكن مجتهد الشيعة وقتئذ الشيخ مهدي الخالصي كان قد حمل لواء المعارضة الى حد لم يعد يسمح للحكومة بالسكوت عنه فامر السعدون بتسفيره ، فصاح زملاؤه يحتجون ، وختموا احتجاجهم بأن راحوا ينفون انفسهم ويتبعون كبيرهم الى بلادفارس

وايد الملك السعدون وفعل العميد البريطاني مثل ذلك فتمكنت هذه القوات الثلاثة من اضعاف المعارضة ، ولكنها لم تتمكن من القضاء عليها

***

وكانت المساعي تبذل في هذا الوقت لعقد معاهدة الصلح مع تركيا ، فذهب اللورد كرزن الى لوزان وهو وزير الخارجية البريطانية ليدافع عن العراق ، اما المستر بونارلو رئيس الوزارة فكان يخشى حرباً بسبب تشدد الترك في المطالبة بالموصل ، حتى

راح يصرح قائلاً :
– الافضل لنا ان نترك الانتداب كله في العراق ...
ولكن وزير الخارجية اللورد كرزن راح ينظر للامر من وجهة سياسية ثانية كان فيها موفقاً كل التوفيق .
وفي اواسط شهر كانون الثاني بسط عصمت باشا المندوب التركي وجهة نظر حكومته فيما يتعلق بالموصل ، فقال اللورد كرزن يعلق على ذلك امام مجلس جمعية الامم بما يأتي :
« اني اشكر عصمت باشا لبسطه وجهة نظر حكومته التي استمعنا اليها منذ برهة ، وسأتناول الجواب على خطابه نقطة نقطة ، واني لاكون شاكراً ممتناً فيما لو نشرت النظريتان جنباً الى جنب ليطلع عليهما العالم باجمعه »
وقد ذهب اللورد كرزن يقول : ان الترك في الموصل لا يعدون غير واحد في كل اثني عشر نفساً من السكان ، وهم ليسوا من الترك العثمانيين ، ويتكلمون بلغة لا تتصل مع لغة انقرة والقسطنطينية بسبب من الاسباب ، واما مسألة الحدود وتخطيطها فاني اترك الامر بشأنها الى جمعية الامم نفسها .
وقد حاول الترك بعد ذلك بشتى الوسائل حمل الحلفاء على اعطائهم الموصل ولكنهم لم يوفقوا ، فامضوا المعاهدة متنازلين عن الموصل في تموز من سنة ١٩٢٣ وتركت مسألة الحدود العراقية

التركية معلقة لمباحثات ودية تجري بين تركيا وبريطانيا العظمى في مدة تسعة اشهر فاذا لم يوفق الطرفان الى حل عرض الامر عندئذ على العصبة

***

كانت وزارة السعدون قد سقطت في هذه الاثناء وقام مقامها بامر ملكي وزارة يرأسها جعفر باشا العسكري راحت تستأنف الجهاد ، وتعمل على انتخاب المجلس الذي سيعترف بالمعاهدة، وكان انتخاب مجلس نيابي ضرورياً جداً للعراق
وقد قام الملك فيصل بنصيبه من الجهود العظيمة في هذا السبيل فسار يخطب شعبه في مختلف المدن والقرى يدعوهم الى الانتخاب ويذكر لهم ما فيه من محاسن للعراق وتوطيد لمركزه واستقلاله ، ووفقت الوزارة في النهاية ، فجرت الانتخابات واجتمع المجلس التأسيسي الذي افتتحه الملك فيصل في ٢٧ اذار سنة ١٩٢٣
دعي المجلس للاجتماع ، وبين يديه وثيقتان هما على جانب عظيم من الاهمية ، الاولى الملحق الذي جعل مدة المعاهدة اربع سنوات والثانية معاهدة الصلح بين تركيا والحلفاء ، فجاءت هاتان الوثيقتان تؤيدان الحكومة ، وتعززان مركزها .
وكانت معركة نيابية نشطت فيها المعارضة للعمل على رد المعاهدة ، التي كان يؤيدها انصار الحكومة ، وكانت دار المعتمد

البريطاني قد اخبرت الحكومة انها تعتبر المعاهدة مرفوضة اذا لم
تصدق في اليوم العاشر من حزيران ، ومما شجع الانكليز على هذا
الطلب انهم كانوا يفاوضون الترك بشأن الحدود ، فراحوا يروجون
بانه اذا لم تصدق المعاهدة ، فسيخسر العراق الموصل .

وعندئذ نزلت الحكومة بكل ما لديها من قوة ومنطق الى
الميدان فدعت المجلس للاجتماع — وكان قد ارفض لاجل غير مسمى
لما شاهدت الوزارة ان اعداء المعاهدة كثر — وراحت تجمع انصارها
ومن تستطيع التأثير عليهم حتى تمكنت من حمل الاكثرية على
اقرار المعاهدة وتصديقها في منتصف ليل اليوم العاشر من حزيران
نفسه .

وبعد شهرين من اقرار العراقيين للمعاهدة ، وقف اللورد بارمور
في دورة العصبة (٢٩ ايلول ١٩٢٤) مقدماً اليها المعاهدة العراقية
وملحقاتها ، فتلقتها العصبة منه كمستندات تعد تتمة لعهدة العصبة
والمادة ٢٢ الخاصة بالانتدابات في الشرق

وقد صادق الملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى على
المعاهدة في ١٠ تشرين الثاني (١٩٢٤) وصادق عليها الملك فيصل في
١٢ كانون الاول من السنة نفسها

وما كاد ينتهي المجلس العراقي من المصادقة على المعاهدة حتى
راح يقرر الدستور وقانون الانتخاب ، وكان المطلوب من العراق

حتى تتمكن بريطانيا من ان تطلب من العصبة ادخاله عضواً فيها ان
يقوم بهذه الامور من المصادقة على المعاهدة ، وسن دستور للبلاد
واقرار قانون للانتخاب ، فقام العراق بكل ذلك ، واما مسألة الحدود
فكانت معلقة بين الانكليز والترك .

وفي هذه الاثناء سقطت وزارة عبد المحسن السعدون ، ودعي
ياسين باشا الهاشمي لتأليف الوزارة .

اما الدستور الجديد فكان ينص على ان حق التشريع معلق
بالملك والمجلس ، وان يكون المجلس مؤلفاً من مجلسي الشيوخ
والنواب ، على ان ينتخب كل عشرين الفاً من الانفس نائباً واحداً
وان يصار الى الانتخاب على درجتين ، وان يتراوح عدد الوزراء
بين الستة والعشرة



- ١٠ -

مسائل عائلية

وصل الامير زيد اصغر اشقاء الملك فيصل الى بغداد في ربيع سنة ١٩٢٢ ، وقام باعمال حسنة في الحملات التأديبية في بلاد الكرد من السنة نفسها ، وكان الامير محبباً لدى العراقيين ، ذلك انه خدم مدة الحرب العامة في الجيش الشريفي ، وكان كثير المخالطة بهم شديد التقرب منهم

ثم جاءت الملكة ومعها ولدها وبناتها الثلاث ، واقاموا في القصر على ضفاف النهر . والملكة ابنة عم الملك وقد تزوجت به لان التقاليد في العائلة الهاشمية كانت تقضي بان يتزوج الامراء من انسبائهم ، واخذت حياة العائلة المالكة شكلاً جديداً بقدومها للعراق فقد اخذت تنصرف الى حياة دقيقة منظمة ، واخذت معلمة انكليزية تعنى بتربية البنات والامير الفتى الذي كان لا يزال عند قدومه الى العراق فتى صغيراً .

وقد سر الملك طبعاً بوجود عائلته معه ، فكان يصرف نهاره في القصر الملكي يستقبل الوزراء ورجالات البلاد واصحاب

المصالح حتى اذا جن الليل غادره الى قصر الملكة يقضي ليله بين زوجه وولده

ومما يجب ان يذكر انه بانصراف جلالة الملكة الى المعيشة العائلية الهادئة الدقيقة ، البعيدة عن الاجتماعات والاستقبالات فقد راح يقوم بواجبه في الاستقبالات الرسمية والحفلات العامة يستقبل الزوار ، وغير الزوار وحده ، وقد اظهر في ذلك لباقة ولطفاً وحسن وفادة ، جعل الكثيرين يتحدثون بها ويشيرون اليها .

والملك صائد ماهر ، وراكب خيل بارع ومحب للطيران ، ولكن وقته لم يكن ليسمح له بالرياضة لكثرة اعماله واضطراره في كثير من الأحايين الى العمل ليلاً ، ولكنه كان يجد وقتاً للاهتمام بمزارعه يعني بها عناية زائدة يحاول ان يستخرج منها ما في ارضها من خير وبركة ، وكانت له مزرعة حول قصره ، واراض في (خانقين) تقع قريباً من الحدود الفارسية .

وقد راح جلالته يعنى بزراعة ارضه على الطرق الحديثة فكان هذا من الاسباب التي حدت بكثيرين من رجالات العراق واصحاب الاملاك فيها الى التشبه به والعناية بارضهم والاهتمام بمزارعهم ، وكانت مسألة الري عقدة العقد الا انها

كانت من المسائل التي يسهل حلها بالقليل من المال ، وبالاقل من
الاهتمام والتؤدة .

وكانت هناك خزانات لحفظ الماء قد بديء العمل بهـا ايام
الترك بادارة السر وليم ويلكوكس ، وقد نشطت دائرة الري عهد
الاحتلال الى اتمام العمل الموقوف رغماً عن قلة الاموال المرصودة
لهذا السبيل ، وقد احس الملك فيصل باهمية الري في بلاده ،
وضرورته للمزارع وغيرها فراح يهتم بامره بنفسه ، ولذلك تراه
سنة ١٩٢٤ يفتتح قناة حول النجف في حفلة رسمية ، ثم تراه بعد
ذلك يزور كربلاء محاولاً ازالة سوء التفاهم الذي كان لا يزال
عالقاً بين الشيعة والحكومة .

ونراه في فرصة اخرى يحضر حفلة رسمية لوضع الحجر الاول
لمدرسة دينية ، ومن عجيب ماجرى في حفلة الافتتاح ان احدهم
قام يخطب فقال متكلماً عن فيصل ملك العراق وابن الحسين بن علي
امير المؤمنين وخليفة المسلمين .

ولم يكن في اعطاء هذا اللقب للحسين بن علي كبير امر ، وقد
كان يصح ان تعهد له الخلافة نظراً لمواقفه السابقة في العمل لاستقلال
البلاد العربية . ولكن الفرصة السياسية لم تكن مناسبة ، خصوصاً
وان هذا اللقب كان يجب ان يوافق عليه المسلمون في مشارق
الارض ومغاربها .

وقد صرح الملك حسين نفسه لاحد الصحافيين في ذلك العهد
قائلاً « ان مرد الخطأ في هذا يعود للامير عبد الله ، الذي يعمل في
هذا السبيل ، وانه هو نفسه لا يريد هذه المسؤولية ، ثم اشار الى ما
يهدده من ناحية ابن السعود والامام يحيى ، وان مشاكله مع
هؤلاء تكفيه ، فلا يريد ان يتحمل مشاكل جديدة ومسؤوليات
كبيرة » .

ومن غريب الصدف اني كنت في عمان سنة ١٩٢٤ بعد هذا
الحادث ، ومعي كتاب توصية الى الملك ونجله الامير عبد الله من
صديقهما اللورد هدلي ، واذكر اني كنت انتظر ساعة المقابلة في
غرفة كان يجلس معي فيها اثنان من الهنود . جاءا من اقصى الهند
ليسلما بالخلافة على الملك حسين وهما يقولان — وكانا يتكلمان
بالانكليزية — :

— لقد جئنا من اقصى الهند لنقبل يد الخليفة وعادا يكرران
هذا ويعيدانه غير مرة .

ولم يكن ليلقى في روعي ان الملك حسين — الذي أثار في كثيراً
من الاهتمام لما رأيته اول مرة = سيخسر الخلافة وعرشه بعد اشهر
قليلة من هذا التاريخ .

***

والواقع ان الملك حسيناً قد خسر عطف شعبه بشدته وصرامته

ولم يكن من السهل مساعدته على الرجوع الى عرشه برغم رعيته وشعبه .

ولا بد من الاشارة الى ان الاخبار التي وصلت الى بغداد بعد الحفلات التي قامت لمبايعة الحسين بالخلافة ، كانت تدل على شر مستطير ، فان فيصلا بن السعود صرح قائلاً : « بانه يقاوم خلافة الحسين بن علي ، وانه يعمل على دفعه عن هذا اللقب الذي يتمتع به كزعيم الوطنيين العرب »

وكان ابن سعود ورجاله يستعدون للحرب ، ولكنهم كانوا بحاجة الى سبب فجاءت مسألة الخلافة ، ثم حدث الخلاف حول الحج فاشعل نار الحرب التي وقعت في شهر آب من سنة ١٩٢٤

فارسل ابن السعود قوة لمهاجمة الحدود العراقية وشرقي الاردن وقطع المواصلات بالخط الحجازي اذ كانت الضرورة تقضي بذلك ، ثم هاجم الطائف ففتحت له ابوابها ، فابرق الحسين بن علي الى لندن يطلب منها بعض الطيارات والجنود ، ولكن رفضه المعاهدة الانكليزية الحجازية حمل الانكليز على الوقوف موقف الحياد تجاه هذه الحرب الجديدة ، خصوصاً وقد كان يصعب عليها التدخل في حرب دينية

وفي الثالث من شهر تشرين الاول تنازل الملك حسين عن

العرش ، وفي اليوم التالي انتخب نجله الاكبر الامير علي ملكاً دستورياً على الحجاز ، فعين وزارة ، ولكنه لم يستطع المحافظة على مكة فغادرها الى جدة ، ولم يكن لديه وتحت سلطته غير ثلاث مدن جدة وينبع والمدينة، ولما صار وقت الحج ظهرت صعوبات عظيمة ، لان الوهابيين كانوا في مكة ، والملك علي في جدة ، وهي مفتاح البلاد الحجازية .

وفي التاسع من شهر تشرين الاول سافر الملك حسين على يخته الخاص الى العقبة ، ولكن اختياره لهذا المكان لم يكن موفقاً لان العقبة كانت موضع نزاع بين نجد وشرقي الاردن ونزوله المكان كان يثير النزاع بين المملكتين ، فسئل بلطف ان يتركه الى قبرص ففعل واعد له فيها قصر جميل ، كما انه وجد في قبرص صديقاً قديماً هو السر رونالد ستورس الذي كان حاكماً في ذلك الحين، وفي سنة ١٩٣٠ توفي جلالته ، رحمه الله .

اما الملك فيصل فلم يترك بلاده القديمة وشأنها فقد ركب الطيارة الى شرقي الاردن يبحث وشقيقه الامير عبد الله في الاسباب التي تساعد على المحافظة على حقوق العائلة في الحجاز .

ولكن جلالته وجد ان المخابرات السياسية لن تجدي نفعاً في هذه الفترة ، ولم يكن بطوقه ان يستعمل السلاح

لاقرار ارادتـه ، وفي خريف سنة ١٩٢٥ صار تنازل الملك علي عن العرش الحجازي، وجاء الى بغداد ينزلها ضيفاً على شقيقه مليك العراق .

وتم لابن السعود ما اراده من السيطرة على الحجاز ، وكان ذلك امراً يصبو له ويطمع به منذ زمن بعيد



- ١١ -

الدستور والعراق

اخذ المجلس التأسيسي العراقي بعد تصديقه المعاهدة العراقيـة البريطانية يدرس الدستور ويقرر مواده واحدة بعد الاخرى، وكان هذا الدستور قد عرض على الموظفين الانكليز في وزارة العدليـة فتولوه بالعناية والدراسة وعملوا على ان يكون موافقاً للطرفـين فتخيروا من دساتير تركيا وفارس واوستراليا البقها واصلحها وتوفروا على ضمه الى الدستور العراقي ، وصادقت وزارة المستعمرات الانكليزية عايه ، ثم عهد الى لجنة خاصة من العراقيين في تدقيقه وبحثه فاقروا اكثره ، وطلبوا تعديل بعضه ، وقـد رفع الدستور بهذه الحالة الى المجلس التأسيسي فاقره مع تعديل طفيف في تركيبه واسلوب تأليفه .

والواقع ان الدستور قد صار درسه من جماعـة كانوا يلمون بعض الالمام بالنظم البرلمانية المعاصرة ، فقد سبق لهم ان كانوا نواباً في مجلس النواب العثماني ، وكان بعضهم من كبار الموظفين في العهد التركي ، فكانوا لذلك كثيراً ما يتقبلون النظم التركيـة

حين لا يرون سبيلاً الى وضع ماهو احسن منها واصلح

وقد انتهى البحث من الدستور واقراره في شهر تموز واصدر ملك العراق مرسوماً باقراره هذا نص مطلعه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الدستور العراقي

نحن ملك العراق

بما ان المجلس التأسيسي قد صادق على الدستور واقره وطلب تطبيقه الخ . .

ولما كان المرسوم طويلاً فلا حاجة لذكره كله ، وانما نشير الى البنود التي تتعلق بحقوق الملك نفسه وهي كما يأتي :

« العراق مملكة مستقلة حرة

« ان اراضيها لا تجزأ ، ولا سبيل الى التخلي عن جزء منها .
العراق مملكة دستورية ، ملكية وراثية ، بحكومة ديموقراطية . دستورية

« ان مصدر الحكم في العراق هو الشعب نفسه الذي اختار له ممثلاً في شخص الملك فيصل بن الحسين ، وورثائه من بعده

ان ولي العهد يكون اكبر اولاد الملك سناً وذلك وفاقاً للقانون »

وهذا يظهر لنا ثقة العراقيين بمليكهم فيصل ، رأس الحكومة

والقائد الاكبر لقوات العراق العسكرية ، وقبولهم به مليكاً عليهم يعمل على حكمهم بواسطة وزرائه ودوائر حكومته

وكانت حفلة القسم الملكي بسيطة جداً فقد كان على الملك ان يقسم بالمحافظة على الدستور وصيانته امام مجلسي الشيوخ والنواب الذين يجتمعان لهذا الغرض تحت رئاسة رئيس مجلس الشيوخ

اما القسم فهذا نصه :

« اني اقسم بالله بان ادافع عن الدستور واستقلال المملكة ، وان اعمل على خدمة البلاد والامة »

ثم اخذ المجلس التأسيسي بعد ذلك يعمل على اقرار قانون الانتخاب فوافق على النظام التركي الذي يقضي بان يصار الى الانتخابات على درجتين .

وقد صار تصديق قانون الانتخابات في آب سنة ١٩٢٤ ولكن الحكومة رأت ان لا تعمد الى انتخابات جديدة قبل اقرار مسألة الحدود بين العراق وتركيا .

وليس من ينكر الان ان العراق قد وصل الى اغراضه الاستقلالية التي كان يطالب بها ، وذلك برغم الانتقادات الشديدة التي كانت تساق بلا حساب على رجال الحكومة وموظفي المعتمدية وهذا الاستقلال وان لم يأت بالسرعة التي كان يطلبها البعض الا انه على كل حال اصبح امراً واقعاً بعد سنوات . ومن الحق في هذه

المناسبة ان نقول ان هناك كثيرين راحوا يتحدثون عن وعد الجنرال مود للعراقيين في اول الاحتلال ، وكيف ان هناك وعوداً كثيرة في خطابه لم تستطع حكومة لندن ان تفي بها كل الوفاء .

ولكن من يستطيع الانكار ان بغداد العاصمة قد تقدمت كثيراً وظفرت بكثير من مطالبها واغراضها ، ومما يؤسف له ان الانتقادات التي كانت توجه الى السياسة الانكليزية في العراق ، كانت في اكثر الاحايين اراء يروج لها اشخاص لم يعملوا عملاً في سبيل بلادهم ولا في سبيل حرياتها واستقلالها .

لقد كان الحكم في اول العهد بيد الجيش ورجاله وبالموظفين السياسيين الذين كانوا مع الجيش ، ثم انتقل الحكم منهم الى موظفين رسميين لا علاقة لهم بالجيش ، ثم راح ينتقل من هؤلاء الموظفين الانكليز الى العراقيين حتى تم للعراق الدخول الى جمعية الامم فاصبح الحكم كله على وجه التقريب بايدي رجال عراقيين ...

اما الجنرال مود فان اسمه لن يبرح معلقاً بالاستيلاء على بغداد وخروج الترك منها واذا كان العسكريون يندفعون بالاشادة بذكره ويقدرون خططه العسكرية حق قدرها ، فان السياسيين ينتقدونه انتقاداً مراً بسبب البيان الذي اذاعه بعد فتح بغداد (١٩ مارس ١٩١٧) وهم يروجون لنقدهم هذا بان خطابه كان بعيداً عن

اللباقة السياسية والوقائع الراهنة ، وانه ومواد ويلسن الاربعة عشرة قد ذهبا يبعثان في النفوس آمالا كان من الصعب تحقيقها واقرارها ، ولكن الذين يقرأون بيانه يجدون انه كان حقيقاً وخليقاً بالحدث الذي نشر لاجله ، وانه في الواقع يبعث من الامال ما لم يكن بالمستطاع اقراره وتقريره .

ولقد كان امام الجنرال مود مصاعب كثيرة ، لما ذهب يفكر باقتحام بغداد ، وكانت قواته تمتد من شواطيء الفرات الى ابواب اصفهان ، وكان امامه عدو يعمل المستحيل ليمنعه من التقدم ، وليبقيه مكانه على شواطيء النهرين . ولما اعتزم الهجوم على بغداد التي كانت معقل العدو ، ومقر جيشه ، ووفق في الهجوم تمكن من تخفيف الاعباء العسكرية عن الجيش الانكليزي ونجح في تخليص هذه المدينة التاريخية العريقة في القدم ، والواقع ان هذا الهجوم لم يكن خلواً من الصعوبات العظيمة ، فقد صبر فيه الجنود على الحر الشديد الذي يصهر النفوس ، وتقبلوا فيه النصب الذي كان يعتورهم كلما تقدموا متراً في ارض صعبة الطرق كثيرة المفاوز ، ولما وصلوا الى بغداد في يوم شديد الحر ، كثير العواصف ، شديد الغبار ، كان من حقهم ان ينعموا بشيء من المرح بعد هذا الانتصار الذي كان مقدمة لاستخلاص العراق كله

من الاعداء

ولقد استقبل السكان الجيش الانكليزي باجمل الوان الحفاوة والسرور ، هذا الجيش الذي جاء يرفع عنهم نير الترك البعيد المدى لاجيال خلت

هذه الحفاوة وهذا النصر العظيم ، كان لهما تأثيرهما الشديد على الجنرال مود ، الذي كان يعلم ان الشرقيين غير الغربيين وانهم في عقليتهم وذهنيتهم يختلفون اختلافاً بيناً عنا في الغرب ، راح يكلمهم بما ظن معناه موافق لاهوائهم ، مؤيد لاغراضهم ، وبيانه يصح ان يذكر مع غيره وسواه من البيانات الشهيرة في التاريخ العسكري لاي امة من الامم.

قال الجنرال مود يخاطب سكان العراق عامة وبغداد خاصة باسم جلالة الملك جورج الخامس :

« ان اعمالنا العسكرية ترمي الى اخراج الترك من هذه البلاد ، وللوصول الى هذا الغرض فاني مكلف ان اقوم بمهام الحكم في كل البلاد التي تعمل فيها الجنود الانكليزية ، ولكن جنودنا لا تدخل مدنكم فاتحة غازية ، وانما كمحررة لكم من نير الترك

« لقد غلب الاغراب ببلادكم منذ نزول هلاكو المغولي عليكم ، فنزل العفاء بقصوركم ، وتناول الشقاء مزارعكم ،

واصبحتم عبيداً بعد ان كنتم احراراً ، ودفع ابناؤكم الى حروب لا علاقة لكم بها ، ولا غاية لكم فيها ، وقد راح يذكر الترك منذ عهد مدحت باشا الاصلاح والحرية ، ولكن الحالة التي صرتم اليها تدل بصراحة على ان هذه الوعود لم تكن غير احلام في احلام

« وان رغبة مليكي ورغبة الحلفاء الذين يحاربون معه هي في ان تعود اليكم امجادكم السالفة ومزارعكم الناضرة وحضارتكم الماضية ، الى سالف عهدها ، يوم كان اباؤكم يقدمون للعالم العلم والادب والفلسفة ، ويوم كانت بغداد المحبوبة من اعاجيب الزمان . »

وقد راح الجنرال مود يضرب على هذا الوتر في خطابه واشار في آخره مخاطباً رجالات البلاد الى ضرورة العمل والتعاون مع الممثل السياسي الانكليزي في سبيل الوحدة العربية التي تريدونها وتطالبون بها .

ولقد صار نشر هذا البيان قبل ان ترى جمعية الامم النور ، وقبل ان يصار الى الانتدابات وغيرها ، وقبل ان يصار الى البحث في ضرورة التدريب السياسي لهذه الامم العربية وقبل ان يعطى لها استقلالها وتترك لشأنها ترتب امورها ، وتنظم شؤونها وفاقاً لذهنيتها واغراضها .

ويجب ان يقال اليوم ان العراق قد نال كل مـــا اشار اليه الجنرال مود في بيانه ، واذا كان هناك من ينتقد بريطانيا حـــين تتقدم الى مجلس العصبة تطلب اليه قبول العراق عضواً ، فليعلم هذا المنتقد انه من الصعب جداً تقييد امة تسعى لحرياتها واستقلالها .



- ١٢ -

الجيش العراقى

كان من اول اعمال السر برسي كوكس المندوب السامي البريطاني في العراق لما الف الحكومـــة الوطنية في سنة (١٩٢٠) انشاء وزارة للدفاع عهد بها الى جعفر باشا العسكري الذي اظهر براعة فائقة في ابان الحرب العامة ، وقد كانت الضرورة تقضي بانشاء قوة عسكرية في بلاد لا تزال تخومها غير محددة الاوضاع ، وما تبرح بعيدة عن الاستقرار ، خصوصاً وقد كان الترك مايزالون يأملون ان تعود لهم بعض ولايات هذه المملكة العراقية الفتية ومع ان القوات التركية قد كسرت في الحرب الا انها كانت ما تزال قوية تستحق بعض العناية والاهتمام

وكان جعفر باشا كثير الرغبة ليس فقط في انشاء قوة عراقية بل في انشاء جيش وطني في العراق ، وراح يعمل لهذه الغاية دونما تردد ، وكانت دائرته مؤلفة في اول الامر من ضابط وموظف انكليزي ثم ضم اليه الكولونل جويس الذي قام في تدريب الجيش العربي ابان الثورة العربية

وكان الكولونل جويس الذي عين مستشاراً لوزارة الدفاع العراقية ، في موءتمر القاهرة لماصار الاتفاق على ترشيح الامير فيصل لعرش العراق ، فغادر القاهرة الى بغداد لاستلام وظيفته الجديدة بعد انتهاء الموءتمر ، وكانت اول المصاعب التي عرضت للبحث مسألة الضباط العراقيين القدماء في الجيش التركي ، فانشأ لجنة للنظر في هذا الامر ، وطال امر ترتيب الجيش وتنظيمه واقرار نظامه وغير ذلك ، ولكنه توصل اخيراً الى ان يشاهد امامه جنداً عراقياً منظماً .

ولم يكن الامر يتعلق بتنظيم جيش عراقي فقط ، بل كان يتعداه الى ضرورة الاسراع في ذلك ، فدرست مسألة العدد وبحث مسألة الفرق وعددها واقسامها وغير ذلك ، ثم انتقلوا من ذلك الى الضباط وتدريبهم ليتمكنوا من القيام بواجبهم في القطعات العراقية المختلفة ، ولما كان كثير من العراقيين الذين خدموا في الجيش التركي قد عادوا الى مواطنهم بعد الحرب فقد صار انشاء مدرسة عسكرية يتخرج منها الضباط الذين يصير استخدامهم في الجيش وبتسنم فيصل عرش العراق ، كانت هذه الاستعدادات والترتيبات قد بلغت غاياتها ، وصار هناك في البلاد جيش عراقي عامل .

ولما اخذ رجال الجيش العراقي يفكرون في تنظيم الجيش

الجديد بحثوا فيما اذا كان من الحكمة والمصلحة ضم الفرق الكردية التي كان يقوم على تدريبها ضباط من الانكليز والتي قامت مدة الحرب باعمال حسنة الى الجيش العراقي ، ولكن جعفر باشا العسكري نفسه راح يعارض في ذلك طالباً ان لا يكون الجيش العراقي موءلفاً من غير العراقيين ، وانتقد الماجور بوبل قائد الفرقة الكردية ضم فرقته الى الجيش العراقي ، ثم صار الاتفاق على ترك هذه الفرقة وشأنها على ان لا يصار الى زيادة عددها ، وعلى ان يحتفظ بها ريثما تنتهي مدة خدمات افرادها ، ولكن بعض افراد هذه الفرقة انضم الى الجيش العراقي بعد سنوات ، واظهر براعة عظيمة في الخدمة

ومضى رجال الجيش العراقي صيف عام ١٩٢١ وخريفه يعملون على جمع اشتات الجيش ، وكانت العراق مقسمة الى مناطق تقوم في كل منطقة دائرة خاصة غرضها قبول طلبات الافراد الذين يريدون الانضمام الى الجيش ، وكان الناس لا يتقدمون للتطوع في الجيش لان الحالة في الجيش التركي من حيث الراتب والطعام كانت سيئة جداً ، ولكنهم لما عرفوا بتبدل الاحوال اخذوا يتقدمون بحماس فائق لتكوين جيش صالح يعد نوة اولى للجيش العربي الحاضر .

اما الكولونل جويس الذي كان كثير الحماس في امر تدريب

الجيش وتنظيمه فقد اخذ على عاتقه ارسال البعثات العسكرية الى انكلترا لتتلقى العلوم في جامعاتها العسكرية ثم تقوم بالخدمة في بعض قطع الجيش الانكليزي مدة سنة كاملة .

وفي ايلول عام ١٩٢٢ اخذت القطعات العراقية تقوم بالخدمة العسكرية حقاً في بعض المناطق ، ولكنها لم تستعمل سلاحها الا سنة ١٩٢٤ لما ارسلت الى السليمانية لقمع الثورات التي كانت كثيرة النشوب فيها .

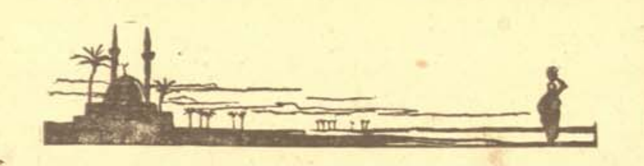
واهتم الملك فيصل بدوره في الجيش ، وكانت شهرته كقائد باسل شجاع قد سبقته الى افراد الجيش ، وحببته اليهم ، وكان من اول اعماله ان امر بانشاء فرقة من الجمالة ليعهد اليها بالمحافظة على الحدود .

وقد تقدم الجيش بعد ذلك فانضمت اليه فرقة الطيران واخرى من المصفحات ، كما زاد الاهتمام والاقبال على الكلية العسكرية التي تعني اليوم عناية فائقة في تثقيف الضباط وتدريبهم وتعليمهم كل المبادىء العسكرية التي يحتاجونها . والتي عليهم تعليمها بدورهم الى افراد الجيش

وللجيش ثلاثة مراكز ، في الموصل والسليمانية وبغداد ، وفي الصيف تقوم فرق الجيش الشمالية والجنوبية في الموصل والسليمانية ببعض التمارين العسكرية خصوصاً ما يتعلق منها بحروب الجبال

وقد كان لهذه التمارين الفائدة المنشودة ، وهي في تعويد الجنود على هذه الحرب الضرورية للمحافظة على حدود العراق .

ويقدر عدد الجيش العراقي اليوم (١٩٣٠) بعشرين الف جندي من الفرسان والمشاة ولديه كل انواع السلاح الحديث ، ولم ينس مدبرو امر الجيش ومنظموه ضرورة الرياضة فوضعوا لها مكاناً رحباً في برامجهم ، فترى افراد الجيش تتمرن في اكثر ايام الاسبوع في مختلف الالعاب الرياضية .



- ١٣ -

تاريخ الحفريات الاخيرة في العراق

انها لعظيمة فخمة هذه الحضارة القديمة التي يظهرها لنا معول الاثري ، ويذكر الذين قرأوا غبريال دانونزيو الكاتب الايطالي الشهير ، هذه الصورة الهائلة التي راح يصورها لنا في قصته التمثيلية (المدينة الميتة) والتي يصف بها ملوكاً غمرهم الموت ، وسترت وجوههم بوجوه مصطنعة من الذهب ، ولكنه في قصته يقص شيئاً وهمياً ، واما في الحفريات الاخيرة التي قام بها بعض العلماء في(اور) فاننا واقعون على شيء راهن محسوس ، وهي هذه القبور الفخمة لملوك غابرين ، وقد كان من اثر هذه الحفريات ان غيرت النظريات التاريخية الحاضرة في ما يتصل بقبل التاريخ

لقد ذهب بعض العلماء يقولون ان الطوفان حديث خرافة فاذا الحفريات الاخيرة تكذبهم ، واذا بالطوفان امراً واقعاً ، واذا بتاريخه يحدد تحديداً قريباً جداً من الحقيقة

لم تظهر هذه الحفريات دفعة واحدة كما حدث في مصر لما اكتشفوا قبر توتنخ امون ، بل ظهرت للعيان بعد حفريات عديدة

في سنوات كثيرة ، فعثروا اولاً على بقايا عشر نساء وقد رتبت بقاياهن في صفين ، ثم عثروا بعد ذلك على رجال ونساء في ملابس السهرة ، وعلى جنود بخوذهم الفولاذية ، ثم على عربة لحمل الاثقال وقد سقط الثور الذي يجرها امامها ، ثم عثروا على قبر الملك الذي كان فارغاً ، وبعدها وقعوا على قبر الملكة وتاجها على رأسها وبقبرها بعض اواني الزينة التي كانت تستعملها النساء عادة في ذلك العهد .

والواقع ان رجال التاريخ وجدوا امامهم ملكاً وزوجه هما الملك (ابارجي) والملكة شوباد وحاشيتها وقد اجتمعوا كلهم في قبر واحد . وماتوا كلهم بهدوء ، ولعلهم شربوا مخدراً مسموماً ولكن من يعلم ؟ المرجح ان هذه الجماعة من النساء والحاشية قد ماتت في سبيل مليكها ، ولكي ترافقه الى اللانهاية

لقد كان المستر تيلر قنصل بريطانيا في البصرة اول من قام بالحفريات في هذه المنطقة وكان مكلفاً من دار المتحف البريطاني للقيام بذلك ، فذهب بدافع غريب من الاحساس الى الحفر في الارض التي كانت تقوم عليها مدينة (اور) في غابرات الايام ، ولكن المال الكافي لمثل هذه الاعمال لم يكن متوفراً فتوقف الحفر ، حتى ارسلت جامعة بنسلفانيا الاميركية بعثة خاصة لم ينشر تقريرها حتى اليوم

وفي سنة ١٩١٨ اوفدت دار المتحف البريطاني بعثة جديدة برئاسة الاستاذ هال ، ثم اتفقت البعثتان الاميركية والانكليزية على العمل سوية فعثروا على امور غريبة بدلت التاريخ القديم وهدمت كثيراً من النظريات السالفة .

***

وقد رأى معرب هذا الكتاب ان يتبسط في تاريخ اشور وبابل ثم في خبر هذه الحفريات باكثر مما تبسطت به المؤلفة لما في هذه الحفريات الاخيرة من التعليل الجديد للحضارة القديمة ، خصوصاً بعد ان ذهب بعض المؤرخين في ماضيات الايام الى الاجماع على ان مصراً هي اول مملكة فشا فيها التمدن في التاريخ القديم :

فاذا الحفريات الحاضرة تنقض هذا الخبر ، وتذهب به ، وتظهر للملاء ان تمدن الشعوب التي هبطت ما بين النهرين اقدم من التمدن المصري . وقد يسبقه بالفي سنة ، وفي الاثار التي ظهرت في تيبور وهي بلدة قديمة في العراق ما يدل على تمدن زاهر يذهب في التاريخ القديم الى ستة الاف سنة قبل المسيح .

وليس من ينكر ان الماء والارض الخصبة من اعظم العوامل على ترغيب الناس بالسكنى والزراعة ، وهو ما حمل الناس قديماً على التسال الى الاراضي الخصبة والانهار الجارية يقيمون حولها المدن ، وينشؤون المزارع ، فسكنوا في ما بين النهرين وعلى شواطيء الدجلة والفرات ، وسكنوا مصرا على شاطيء النيل ، وكان الناس في ذلك العهد احد رجلين حضري وبدوي ، والبداوة اعرق

من الحضارة ، واكثر عدداً فاذا ما نزلت قبيلة بلداً عملت على ان تكون في دائرة منيعة من الجدران الغليظة تدفع بها عن نفسها عادية الصحراء التي كانت ما تبرح تعج بالرجال وتدفع الجماعة بعد الجماعة الى حيث العمل المنتج والحضارة القائمة .

فاذا نحن عمدنا الى تاريخ اشور وبابل نبحثه ونعمل على دراسته فان اول ما ننصرف اليه من واجب هو دراسة هذه الحفريات التي تقوم بها بعض الجامعات والجمعيات الاوربية والاميركية في العراق ، ودراسة الصحف الفخارية التي كان يستعملها البابليون في عهدهم الغابر لكتابة اساطيرهم واخبار ملوكهم وفلسفة حكمائهم

وهم يرجعون في كتبهم هذه وتاريخ ملوكهم الى الطوفان الذي جعلوا تاريخه سنة ٥٥٠٠ قبل المسيح بيد ان المؤرخين المعاصرين لم يؤمنوا بما في هذه الصحف من وقائع واخبار ، وقد ذهبوا الى ان فيها بعض الغلو وقالوا ان التاريخ البابلي لا يذهب الى اكثر من ٣٢٠٠ سنة قبل المسيح وقد عثر المستر وولي رئيس البعثة التي تقوم بالحفر جهات (اور) على صفحة فخارية ترجع الى عهد الملك (انين بادا) وهو من الملوك الاول الذين لا نعرف عنهم شيئاً وتاريخ هذه الصحيفة سنة ٤٥٠٠ قبل المسيح وهي اقدم اثر معروف حتى اليوم وتحدثنا عن تمدن عظيم كان ظاهر الاثر منذ ستة الاف وخمسمائة سنة وهذا ما جعل بعض المؤرخين يقولون ان الصحائف البابلية تستحق بعض الثقة ، وانه يجب علينا الايمان بما في بعضها من حوادث واخبار ذلك لان التمدن الذي تكلمت عنه الصحيفة الفخارية الاخيرة ليس ابن ساعته بل عمل اجيال فهل ليس في هذا دليل على ان بابل كانت متمدنة منذ ثمانية الاف سنة تقريباً ؟ وهذا ما يؤيد ما ذهبت اليه الصحائف الاولى من تاريخ بابل القديم اضف الى ذلك ان الاكتشافات في جهات (اور) تكاد تؤيد النظرية التي تقول ان تمدناً قديماً امتد من اواسط آسيا الى بابل قبل سنة ٥٠٠٠ ق م ونحن وان كنا لا

نعرف شيئاً كثيراً عن الناس الذين انشأوا هذا التمدن ولا عن العلوم والفنون والصناعات التي سايرت تقدمه ونهضته ، الا اننا نرى انها كانت متقنة وحسنة قبل هذه الالاف من السنين وهو ما يساعدنا في الحكم على نشوء التمدن بعده وعلى نصيبه من الانتاج والابتكار في مصر وبابل واشور وفارس واليونان وروميه

ولقد كان السامريون اول الامم التي نعرف عن تاريخها شيئاً في بابل . وبابل مدينة زهت على مصب الدجلة والفرات وقامت على شواطئهما

وهم شعب اختلف المؤرخون في اصله فذهب بعضهم الى انه نزح من اوربا الى العراق ويقول غيرهم ان السامريين لم يكونوا اول سكان بابل بل سبقهم الى ذلك شعب لا يزال النزر القليل من اثاره محفوظاً في المعارض المختلفة وهذه الاثار اوان فخارية منقوشة نقشاً بديعاً وكان هذا الشعب يستعمل النبال والقوس في صيده وحربه ولم يكن يعرف الكتابة ، وتقول الحفريات الاخيرة (سنة ١٩٢٤) ان نزول السامريين بابل كان سنة ٥٠٠٠ ق م وليس في الاواني الفخارية القديمة من سامية وسامرية علامة فارقة بل هي خاو من النقوش والرسوم والمعروف انهم كانوا يبنون لمعابدهم منارات عالية وكانوا بارعين في الزراعة والري يعملون على تربية الماشية والحيوانات الاهلية ويستعملون الحمار ويجهلون الفرس

وقد اشرنا الى خطر القبائل الرحل اذا ما نزلوا الحواضر المتمدنة ، والعراق في التاريخ اكثر البلاد تعرضاً لهذا الخطر ، فقد كانت ارضه مفتوحة للغزاة فلا يمضي الجيل الواحد حتى نرى شعباً جديداً قد ظهر على اطرافه واخذ يحارب المتحضرين من البدو الذين سبقوه الى سكنى المدن وزراعة الارض ، كذلك فعل الساميون الذين هبطوا بابل واخذوا بالسكنى في اطراف العراق ولم يكن بد من ان يكون لهم مع جيرانهم السامريين شأن في المستقبل ونزاع على حكم البلاد ، وكانت بابل في الالف الثالثة قبل المسيح — وهو

الزمن الذي كان الساميون والسامريون قد سكنوا فيه العراق وانشأوا المدن ، منقسمة بعضها على بعض الى مدن صغيرة والنزاع بينها شديداً قوياً .

وكان الساميون يزدادون قوة وعدداً بما تمدهم به الصحراء من رجال وخيرات حتى سنة ٢٧٧٠ ق م حين ظهر في مدينة اكاد السامية زعيم سامي حازم يدعى سرجون فجمع اشتات الساميين وحمل بهم على السامريين فتغلب عليهم وحكم بلادهم ومدنهم ، وظلت مملكته قائمة مدة مائتي سنة ، تغلب فيها الساميون على السامريين فكان لهم الحكم ، وغلب السامريون الساميين علماً وثقافة فمحت تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم ما كان للساميين من تقاليد ولغة وعادات وما زالوا كذلك حتى هوت مملكة سرجون وتلاشت السيطرة السامية في بابل فعاد السامريون الى سابق عزهم وماضي استقلالهم ، ويسير الزمن سيرته فيكثر الساميون عدداً بما ينضم اليهم من البدو الذين استهوتهم سكنى المدن فيتمكنون مع الزمن من التغلب على العنصرية السامرية وخلقها خلقاً جديداً وفاقاً لذهنيتهم وعربيتهم ، ثم يستولي الاموريون وهم من الساميين العرب على شمالي بابل ويحتل العيلاميون جنوبها ويظلون فيها مائتي سنة حتى يقوم حمورابي وهو من الاموريين ينازعهم سلطانهم ويدفعهم عن بابل سنة ٢١٠٠ ق م

ولم يقف حمورابي (١) بفتوحاته عند هذا الحد فامتد حكمه الى شواطيء

(١) يؤخذ من الاكتشافات الحديثة في كوش « كيش » ان علماء الاثار قد تمكنوا بواسطة صحيفة من الفخار من معرفة تاريخ ملوك بابل وهم يقدرون ان حمورابي صاحب الشرائع المشهورة تولى بين سنة ٢٠٦٧ وسنة ٢٠٢٥ ق م

ويؤخذ من صحيفة اخرى من الفخار توجد اليوم في المتحف البريطاني وعليها كتابة بالقلم المسماري ان قصة آدم وحواء كما ترويها التوراة موجودة في قصة قديمة كانت معروفة عند البابليين السامريين

البحر المتوسط وخضعت اشور لسلطانه وكان للادب منزلة رفيعة في ايامه واشهر ما نعرفه عنه القانون الشهير باسمه، وحكم بابل بعده ابناؤه فاحفاده حتى انتقل العرش الى عائلة من السامريين

ثم هبط الكاسيت بابل سنة ١٨٠٠ ق م فحكموها اربعمائة سنة وضعفت بابل ايام حكمهم وخسرت مستعمراتها النائية كسورية وفلسطين والظاهر انهم كانوا على مقربة من الحدود، فتعرفوا على عادات البلاد ولغتها وحين رأوا ضعفها هبطوا عليها واستولوا على شؤونها وضعفت هذه المملكة في اواخر ايامها فخلفتها دولة يقال انها من اصل وطني ومن اشهر ملوكها نبوخذنصر الذي عرض لاشور فخسر مملكته وتاجه وانهارت بذلك المملكة البابلونية الاولى

وليس من ينكر ان بابل ونعني ببابل مجموعة المدن التي كانت تؤلف المملكة، كانت تنعم بدرجة عالية رفيعة من التمدن فقد كانت المعاملات التجارية تسير سيراً منتظما في مدنها وكانت الاواني الفخارية متقنة الصنع والزراعة راقية وكان الري متقناً وكانوا يكتبون بالحروف وكانوا قبلا كالمصريين والصينيين يكتبون بالصور والاشارات

قال الاستاذ سايس ان البابليين كانوا يتمتعون بتمدن عظيم رفيع قبل هومر وهيرودتس وان الاثار التي ظهرت اخيراً في بابل تدلنا على ان الحالة الاجتماعية فيها كانت راقية ودليلنا القانون الذي وجده المستر مورجاش قرب سوسا سنة ١٩٠٢ وهو الان موجود في متحف اللوفر ويعرف بقانون حمورابي . فهذا القانون الذي نشأ وانتشر بين الناس قبل موسى بثمانية قرون يدل دلالة واضحة على ما بلغ اليه البابليون من الرقي والتقدم اما اعتقادات البابلونيين فكانت وثنية لم ترتفع عن عبادة الكواكب السيارة، وقد كان اهل بابل في العلوم الفلكية والسحرية من النابغين البارعين وكان للشعب كتبه المقدسة واغانيه الدينية واعتقاداته الخاصة وكان له ايام يصوم بها ويوم

يضرب عن العمل فيه

وكان البابليون شعباً يقرأ ما تصل اليه يده من علوم وفنون فاسسوا لذلك عدة مكاتب وكان الكتاب في عهدهم صحائف فخارية اما الكتابة فكانت تحفر على الفخار وهو ما يزال طرياً . وتاريخ البابليين القديم غامض جداً وليس ثم اثار تكشف للباحث غوامضه، ولعل قلة الاثار المادية عن البابلونيين ترجع لقلة الفخار عندهم، والبابليون اول من قسموا الاسبوع الى ايام سبعة

اما قانون حمورابي فهو فريد في التاريخ ولعله اعظم الاثار التاريخية شأناً فقد بحث العمال وحقوقهم وما يجب عليهم ولهم، ونظر في شؤون المرأة وكان لها مركزها المنيع ومركزها هذا في مصر وبابل في القرن العشرين قبل المسيح كان احسن من مركزها في القرن التاسع عشر في العالم الاوربي وقصاص الزاني في قانون حمورابي الموت، وجزاء من يعتدي على امرأة بالقوة مثله، اما الكاهنة التي تدخل الى خمارة فانها تحرق حية

وقصة الطوفان موجودة في الاثار البابلية و« عدن » وهي التي تعني الجنة كلمة سامرية للارض الفضاء . اما الاشجار المقدسة فكثيرة في الاثار البابلية وهناك كثير من الاثار التي تمثل رجلا وامرأة وحية امام شجرة، وهذه تدل على ان قصة نزول آدم الى الارض من السماء قصة قديمة ايضاً

اما الكهنة فقد قدمنا انهم كانوا يشتغلون بالحساب والفلك وكانت معابدهم تعلو احياناً عن سطح الارض ما يزيد عن ثلاثمائة قدم وهو ما كان يساعدهم على مراقبة النجوم بالعين المجردة

***

كانت البلاد العراقية الحاضرة تنقسم في الماضي الى قسمين نشأت فيهما دولتا بابل واشور، وقد ذكرنا شيئاً عن بابل وحضارتها والحفريات الاخيرة

التي تجري فيها، ونتحدث الان بحديث اشور ، وهو حديث شرقي ،خصوصاً وان هذه الدولة كانت تنزع الى الحرب والقتال بخلاف الدولة البابلية التي كانت دولة سلام ، و كانت اكثر ما تنصرف اليه من الوان الحياة التجارة والعلم ورصد الكواكب

ولم تكن مواطن الاشوريين وهي الى الجهة الشمالية من شواطيء دجلة لتمكنهم من النزوح الى السلام الذي ترغبه كل امة ناشئة ، كانت مفتوحة للغزاة والرحل من القبائل الجبلية ، وهو ما جعل تاريخهم سلسلة حروب ، وبلادهم معسكراً حربياً ، كانوا في طريق القبائل النازحة من القوقاس الى ما بين النهرين طلباً للماء والنخيل والخير الوافر الذي كانت تنعم به العراق في عهدها الماضي ، فكان لا بد لاشور ان تردهم على اعقابهم ، و كان لا بد لها ان تحاربهم محافظة منها على كيانها واستقلالها ، وهذه حياة لا تسمح لصاحبها بالتفرغ الى الوان الحضارة ، والى التجارة التي تستلزم الكثير من السلام والطمأنينة

كانت اشور اذن معسكراً حربياً يعج بالجند و كان سكانها احد رجلين جندي وفلاح ، و كانت حتى اواخر ايامها تعتمد في مواردها الزراعية وتجارتها على البابليين والاراميين ، وفي حضارتها وثقافتها على الحضارة البابلية القديمة .

بدأت اشور حياتها العسكرية بالقضاء على سلطة الكاسيت في بابل في ايام (امر حدون) وظهرت للعالم كدولة عسكرية قوية في ايام تيجلت الاول سنة (١١٠٠) ق م ولم يخلفه مثله فضعف شأن المملكة في عهد خلفائه وساد السكون والجمود العالم القديم سنة (١٠٥٠ ق م) ، ونزح في هذا العهد بعض الاراميين من بلاد العرب فكانوا كالسيل الجارف لا يتركون في سبيلهم شيئاً الا جرفوه ودمروه ويقال ان سبب هجرتهم هذه قيام الدولتين السبائية والمعنية واقتحامها الارض التي يسكنها الاراميون فاضطر هؤلاء

الى النزوح والهجرة

وفي عهد الملك اشور بانيبال الثالث سنة ٨٨٥ - ٨٦٠ امتدت سلطة اشور حتى شمالي سورية و كان هذا ملكاً قاسياً شديداً انشأ محطات عسكرية في اطراف ملكه لحمايته والذود عن حياضه وغنم في حروبه مالا كثيراً صرف اكثره في بناء القصور والمعابد . وخلفه شلمناصر الثاني سنة ٨٦٠ - ٨٢٤ فاشتهر بحروبه في سورية وآسيا الصغرى

وخلف هذا ملوك ضعفاء لا ذكر لهم في التاريخ القديم حتى سنة ٧٤٥ ق م حين صعد الى عرش اشور الملك تيجلث بيلسر الثاني سنة ٧٤٥ - ٧٢٧ وهو الاول من سلسلة ملوك وصلوا باشور الى اوج عزها وعظمتها ، وراحوا يضعون لهذه الامبراطورية الشابة اساساً سياسياً عسكرياً متينا قويا ، فقد تعود الملوك السابقون ان يتقدموا بجيوشهم يغزون المدن والقبائل المجاورة لمجرد الغزو والنهب وفرض الجزية ، فما هو الا ان يوليهم الجيش الاشوري ظهره حتى يثور هؤلاء ويرجعوا الى ما كانوا عليه فلا يدفعون جزية ، ولا يؤمنون بسلطة غريبة عنهم ، وهذا ما اراد تيجلث بيلسر الثاني ان يقضي عليه ، فلما اخذ يقوم بفتوحاته بدأ يسير فيها على سياسة منظمة فنية ، فعمل على توثيق العلاقات بين المدن المفتوحة والعاصمة الاشورية ، واخذ يضع على هذه المدن والمقاطعات حكاما اشوريين يقومون بشؤون الحكم باسمه ، ثم استولى على سورية وفلسطين وكايكية وبابل وغيرها وفي سنة ٧٢٧ خلفه على العرش شلمناصر الرابع فثارت في ايامه سورية وفلسطين فسار اليها بجيش كثيف والقى الحصار على السامرة وتوفي قبل فتحها فخلفه سرجون الذي تمكن من اسقاط السامرة وبسقوط السامرة اصبحت مملكة اسرائيل الشمالية تحت سلطته

وفي ايام سرجون تظهر المسئلة البابلية وهي كالمشكلة الشرقية في التاريخ الحديث فقد كان لبابل نفوذ ادبي لا يدانيه نفوذ في الشرق القديم ، وكانت لا تزال تحن الى الاستقلال والحرية وتذكر مجدا قديما كان لها ، وهو ما حمل

احد قواد القبائل الارامية وبدعى – مردك بلادن – على الاستيلاء عليها فحاربه سرجون حربا شديدة واثخن في بلاد القبائل التي ساعدته وامدته بالذخيرة كعيلام وادراثو - او القبائل الارمنية قتلا ونهبا ، وخلفه سنحاريب ٧٠٥ – ٦٨١ فاغتنم مردك بلادن هذه الفرصة وخابر الامراء السوريين للثورة على اشور ، فما هو الا ان طرد سنحاريب مردك من بابل حتى ثارت سورية عليه فما كاد يخضد هذه الثورة حتى عاد مردك الى بابل فارتد سنحاريب عليه وغلبه في موقعة عظيمة سنة ٦٩٣ قتل مردك فيها ثم كر على بابل يحاصرها

وعرف اهل بابل الشر في وجهه فحصنوا مدينتهم تحصينا قويا ، وجمعوا جيشا مولفا من الكلدانيين والعيلاميين والاراميين وغيرهم ، وصرفوا في جمعه وتدريبه واعداد معداته له جميع ما خزنوه في هيا كلهم من الذهب والتقى سنحاريب بهذا الجيش قرب (كالول) على الضفة الشرقية من الدجلة فكسره وحصر المدينة ولما توفق الى فتحها سنة — ٦٩٠ ق م - هدمها حتى سواها بالارض ، فلم يدع معبدا ولا قصرا الا هدمه ودمر القلاع والحصون حتى لم يبق حجرا على حجر ، ثم قتل اهلها حتى الذين التجأوا الى المعابد منهم ووصل شره الى الالهة نفسها فحطم الاصنام وجعل بابل مقاطعة اشورية وعين ابنه مرحدون حا كما عليها

لعل اغرب اعمال سرحدون بعد وفاة والده سنحاريب ما قام به بعده من عمارة بابل ، وكان هذا منه خطأ سياسيا عظيما ، اختلف المؤرخون في اسبابه فقالوا ان الذي حمله على هذا العمل والدته وكانت (شريفة بابلية)

وكانت فاتحة اعماله ان سار على رأس جيش كبير لمحاصرة صيدا التي ثارت على حكمه ، وحين استولى عليها هدم المدينة عن اخرها وعلق رأس ملكها على بابها — وبعد مدة بنيت مدينة ثانية مكانها باسمها — واصبحت فينقيا الان مستعمرة اشورية وقد قال اسرحدون في اثر له بعد ان دمر صيدا وصلب

ملكها « عبد ملكوت » ما نصه :

« خربت مدينة صيدا التي على ساحل البحر واهلكت سكانها عن آخرهم ، ودمرت اسوارها ومنازلها ، والقيت بقاياها في البحر ، ونقضت الهيا كل والمعابد ، وقد فر ملكها عبد ملكوت الى البحر كسمكة ليختفي عن وجه عظمتي فاجتذبته من بين الامواج هو وحليفه واستحوذت على خزائنه وما فيها من ذهب وفضة وحجارة كريمة و كهرباء وابنوس ومنسوجات من الصوف والكتان وكل ما حواه قصره وجلبت الى اشور قسماً غفيراً من الرجال والنساء واخذت عددا كبيرا من البقر والغنم ودواب الركوب وحمل الأثقال »

وذهب اسرحدون بعد ذلك الى مصر التي طالما كانت سبباً للاضطرابات والحروب والثورات في آسيا وسورية فاجتاز التخوم المصرية سنة ٦٧٤ ق م وتغلب على المصريين واستولى على ممفيس عاصمتهم وهدمها ونقل الى اشور كل ما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر والحلى ووضع على مصر حا كما مصرياً

وليس اجمل من نقل اثر ثان (لاسرحدون) عن هذا الفتح المصري قال :

« واما لاجل « تاركو » ملك (مصر و كوش) والذي كان مغضوباً عليه من آلهته فقد تقدمت حتى ممفيس عاصمته الملوكية ، وذلك بخمسة عشر يوماً ، كنت كل يوم اقتل فيه بعض جنوده بكثرة اما هو فقد ضربته بالرمح خمس ضربات مميتة ، واما ممفيس عاصمته فقد حاصرتها مدة نصف يوم وحين استوليت عليها هدمتها كلها ، وهدمت جدرانها ثم حرقتها بالنار ، وحملت الى اشور اولاده وبناته وزوجاته وافراسه وابقاره وثيرانه ووضعت على كل المقاطعات المصرية حكاماً ومحافظين ، ثم قدمت خضوعي للالهة في اشور ووضعت امامها كل ما اتيت به من الاموال من مصر »

وقد خضع لاسرحدون عشرون اميرا مصرياً منهم (نخو الذي اصبح ملك مصر وهاجم سورية بعد ذلك) ويظهر ان اسرحدون لم يستول على (شيب او طيبة) لان ملكها لم يذكر بين اسماء الملوك الطائعين

ومر امرحدون على نهر الكلب في جبل لبنان وكتب اسمه مع اسماء الملوك الفاتحين قبله مثل رعمسيس وغيره

ولقد بلغت الدولة الاشورية اعظم سعتها في ايامه ولكن مصر ١٠ برحت تواقة للثورة عاملة على اذكاء نار الاضطرابات فقام اهلها بمساعدة «تاركا» وهو احد ملوك السودانيين بالثورة، وتجهز امرحدون يتهيأ للذهاب الى مصر ولكنه توفي قبل ان يصل اليها . والظاهر انه عرف انه لن يرجع من هذه السفرة فعين ابنه الاكبر اشور بانيبال ولياً للعهد ، ونجله الثاني حاكماً على بابل والآخرين كهنة لمعابد مهمة في المملكة

وقد تمكن اشور بانيبال ٦٦٨— ٦٢٦ من كسر تاركا شر كسرة، وحمل هذا الملك من مصر وعاصمتها طيبة جميع الجواهر والحلى وذلك في سفرة ثانية ووضع ابن احد الامراء المصريين ملكاً لمصر واصبحت مصر العليا والسفلي الان تحت حكم اشور وسيادتها

اما مملكة عيلام فكانت واقعة على شواطيء الخليج العجمي والى شماله وكانت عاصمتها «سوس» وقد تعرضت عيلام لاشور بانيبال غير مرة فعزم على تأديبها وكانت الموقعة هائلة في «سوس» انكسر فيها الجيش العيلامي وقتل فيها الملك وولي عهده ووضع اشور بانيبال ملكاً من رجاله عليها بعد ان ضمها الى الامبراطورية

وكان اشور بانيبال مصلحاً عظيما فالقصور والهياكل والمعابد التي شيدها في انحاء مملكته خصوصاً في العاصمة (نينوى) تشهد له بذلك وكان يوجد في قصره مكتبة عظيمة هي اعظم مكتبة تمكن ملك اشوري من جمعها فكنت ترى الآلاف المؤلفة من قطع الفخار وعليها نص السجلات الرسمية والتحارير التي دارت بين ملوك اشور وغيرهم من ملوك الشرق القديم الى الفصول الفلسفية والدينية والعلمية والفلكية والادبية ، وكانت هذه المكتبة في الحقيقة حاوية على تمدن البابليين والاشوريين وغيرهم من الامم في

ذلك العصر

وفي عهد هذا الملك الكبير كانوا ينقلون هذه الصحائف الفخارية من كل بلد اليه فان كانت بلغة اجنبية عملوا على ترجمتها ، وكانت ايامه الاخيرة من اعظم ما رأى التاريخ عزاً وجلالا ومجدا

ولما توفي وقام خلفاؤه بالامر من بعده اخذت المملكه تضعف وتضمحل حتى سقطت بهجوم البابليين والماديين عليها

***

وكانت بابل مربعة الشكل يخترقها نهر الفرات وكان اكثرها الى شرقيه وفي هذا الجزء كان برج بابل ومكانه الآن طلل هائل يبدو لعين الناظر اليه عن بعد جبلاً صغيراً ، وقد توغل علماء الآثار في حفر هذا الطلل حتى اكتشفوا جدرانه الفخمة واقواسه الكبيرة .

وهنالك الى الجهة الجنوبية على بعد ميلين من بابل طلل اكبر كثيراً من الطلل المتقدم بيانه فلما نقبه العلماء وجدوا تحته قصر الملك نبوخذ نصر مع اسواره الهائلة .

ويقول المستر بانكس : « ان نبوخذ نصر الذي اعاد بناء برج بابل بعد تهدمه لأعظم بناء على الاطلاق وانه لا يكاد يوجد طلل من الوف اطلال بابل ليس على آجره اسم نبوخذ نصر منقوشاً عليه اجابة لرغائب زوجته » .

اما اميتيس فقد انشأ الجنائن المعلقة الذائعة الصيت، واكمل اسوار المدينة التي كان قد شرع ابوه في بنائها وكاد يتمها وكانت تلك الاسوار ابدع آثار تلك المدينة التي هي اعجوبة من اعاجيب الزمان .

كان مناخ بابل ذلك العهد كما هو الآن شديد الحرارة في الصيف اما الاراضي المجاورة فعبارة عن سهل مستو لذلك بنى الملك هضبة اصطناعية علوها اربعمائة قدم ، تسند كل شقة من ارضها اعمدة أخرى تلطيفاً للحر الشديد ويحيط بها سور كثافته اثنان وعشرون قدماً وعلى كل شقة من التراب

ما يكفي لنمو الاشجار الكبيرة ، وكان على القنة صهاريج مملوءة ماء بواسطة مضخات من النهر المجاور كانت تسقى بها الجنائن المعلقة فتتساقط المياه فيها كأنها شلالات صغيرة ·

كان يطوق بابل سور مزدوج سمك الخارجي منه ، اربع وعشرون قدماً وهو مبني بالآجر المحروق المدموغ بالكلمات الآتية : « نبوخذ نصر ملك بابل» اما السور الداخلي فمبني بالآجر المجفف بالشمس المتساوي السماكة وكان بين السورين الداخلي والخارجي فسحة عرضها ستة وثلاثون متراً مرصوفة بالتراب المرصوص حتى علو السور فتكونت بذلك طريق مرتفعة تكفي لمرور عدة عربات معاً ·

اما علو السور المزدوج المشار اليه فالراجح انه لم يكن اقل من مئتي قدم وهو الخط الاول الخارجي للدفاع عن المدينة وكان الى الجهة الداخلية من هذا السور سور آخر مزدوج مبني على سطح مواز للسور الذي تقدم بيانه وجملة سماكته خمسون قدماً ·

وكان قائماً على هذين السورين المزدوجين ابراج لا يفصل الواحد منها عن الآخر سوى مسافة قصيرة يقوم على حراستها والدفاع عنها جمهور من الجنود وتوجه منها آلات ميكانيكية حربية هائلة الى اية جهة هاجمها العدو منها
ومما قاله بهذا الصدد المستر بانكس المشار اليه مايأتي :

« كانت حصون بابل الخارجية والداخلية بالغة من المناعة والعلو مبلغاً لا يرجو معه عدو الاستيلاء عليها وفضلاً عن كل ذلك فقد كان قصر نبوخذ نصر محاطاً بحصون اقوى كثيراً من الحصون التي تقدم بيانها

« ولو تمكن العدو من خرق أسوار المدينة لبقي امامه قصر الملك وهو قصر ابعد من ان تطاله يد العدو اذ كان يترتب عليه في مثل هذه الحال ان يجتاز حوضاً عميقاً من الماء ثم يتسلق بعد ذلك سوراً سماكته ثلاثون قدماً وعلوه ستون قدماً وان يتسلق بعد هذا سوراً آخر أعلى من السور السابق ·

ثم ان هنالك سوراً ثالثاً ورابعاً وخامساً الواحد منها أمنع واعلى من السور الذي تقدمه ويعلو كلاً منها ابراج منيعة ثم هنالك بعد كل هذا سور آخر بالغ من العلو مبلغاً هائلاً ·

« تتولى الناظر الى هذه الاسوار دهشة اذ يراها تتصاعد علوّاً تصاعداً تدريجياً الواحد وراء الآخر حتى تكاد تبدو للعين اشبه بجبل ذي ابراج وكانت بينها فسحات كبيرة للمشاة وجنود المركبات الحربية حيث يتمكنون من النضال في سبيل الدفاع عن المدينة ولقد ذكر المؤرخ هيرودتس الشهير ان أعلى سور منها كان ارتفاعه ٣٣٥ قدماً ·

لم تكن الاسوار المحيطة بالقصر مجرد ابنية بسيطة من الاجر بل مزدانة بالوان ونقوش بديعة اهمها في البوابة المسماة بوابة استار المؤدية الى بيت الملك فهي مزدانة بآجر بديع المنظر ازرق اللون لامعه ، ومزينة بنقوش بارزة تمثل الثيران والاسود والتنانين بالوان بيضاء وزرقاء وسوداء ، ولا يزال بعض هذه النقوش على بعض الاسوار التي لا تزال قائمة ولقد اتى احد قدماء المؤرخين على ذكر بوابات كبيرة وانصاب فخمة مصنوعة كلها من البرونز وغيره والراجح ان كورش الفارسي حملها معه في جملة غنائمه

وكانوا لما عمدوا الى بناء قاع النهر بالآجر يحولون ماء الفرات موقتاً تسهيلاً للعمل الى بحيرة اصطناعية خارج المدينة ثم يرصفون قاع النهر اولاً باجر وبعد الانتهاء من العمل يعيدون النهر الى مجراه الاصلي اما البحيرة او الحوض الاصطناعي فانهم يستعملونه بعد ذلك لري الارض

اما كيفية استيلاء كوروش امبراطور الفرس على هذه المدينة الحصينة فكان بواسطة خونة من داخل الاسوار ، فانتهز فرصة انشغال المدينة بعيد من اعيادها وانصراف اهلها الى اللهو والطرب وحول نهر الفرات الى البحيرة المذكورة اثناء الليل وهجم بجنوده سائراً في قاع النهر الجاف حتى بلغ قصر الملك نفسه قبل ان يتمكن احد من الصراخ وانذار المدينة بالخطر الهائل الذي يهددها

الامبراطورية الاشورية واسباب سقوطها

كانت اشور ادق ادارة واثبت سياسة من كل ممالك الشرق القديم ، فقد تركت في اول سياستها الاستعمارية الامراء الوطنيين يحكمون بلادهم تحت سيطرتها ، وارتضت منهم بجزية معينة تدفع في كل عام ، وقد يكون في هذا بعض الضعف ، فما يمنع الامراء عن الثورة عند هلاك ملك وقيام غيره كما كان الحال في مصر وليس يقعدهم عن ذلك الا ان يتولى على العرش الاشوري ملوك جمعوا بين الحزم والقوة والشجاعة ، فيجبروا كل امير ان يقف عند حده ، فلا يتجاوزه الى غيره

بيد ان اشور اضطرت مع الايام الى تبديل سياستها الاستعمارية فقد رأت ان الامراء الوطنيين وان خدموا الدولة الغالبة الا انهم في اكثر الاحيان يكونون حاجزاً بين الملك ورعاياه المغلوبين ، فعملت على تنصيب حكام اشوريين وعززت مكانتهم بحرس اشوري كي يتمكن كل حاكم من حصر الثورة ريثما يصل اليه المدد فيخمدها تماماً ، وانشأت محطات حربية صغيرة في كل انحاء المملكة لتكون مركزاً للحركات العسكرية .

وكانت اعظم اعمالها الادارية نقل الشعوب المغلوبة من مكان الى آخر وظهرت فوائد هذا العمل بقلة الثورات في مدة حكم الملوك الاواخر ، وقد ظهر من الحفريات ان تيجلات بلسر وحده نقل من بابل الى سورية ١٣٥ الف نفس ، ومن زاكوراز ٦٥ الفاً ومن حوالى حماة في سورية الى اسيا الصغرى ٣٠ الفاً ومن الجبال الشمالية سبعين الفاً .

اما اسباب سقوط الامبراطورية الاشورية فهي انها جعلت الجيش اساس قوتها فوجهت نظرها الى الفتوحات والغزوات التي وان كانت لها فائدتها من حيث تدفق الثروة وكثرة الغنائم فان نتائجها كانت شديدة الخطر عظيمة التأثير ذلك ان الجيش اصبح كل شيء في المملكة ، واصبح ما يتطلبه من المصروف والمال كثيراً جداً ، خصوصاً وانه كان يعد مئتي الف جندي ،

ومثل هذا العدد في بلاد ليس فيها شيء من وسائل النقل يتطلب الكثير من الاموال ، وهو ما لم يكن يطوق دولة في العالم القديم ان تخلقه دائماً خصوصاً وان الغنائم كانت اساس ثروتها كما قدمنا ، فاذا لم يكن هناك حروب جديدة فكيف النفاذ الى هذه الغنائم الضرورية لحياة الجيش وحياة المملكة التي كانت تعتمد على الجيش في كل شيء.

ولما كانت الغنائم معلقة بفتوحات جديدة ، ولما كانت اشور قد افتتحت العالم كله وحملت الى بلادها كل ثروة الامم القريبة منها والبعيدة ، وزادت نفقات جيشها لكثرة الفتوحات واضطرارها الى ان تبقي بعض فرقه في هذه البلاد المفتوحة محافظة على النظام ، فقد اخذت تضعف لنفاد الثروة اولاً ، ولانحطاط الجيش ثانياً الذي لم يكن باستطاعة احد ان يبقيه على حاله من القوة ومن العظمة الا بمال جديد وغنائم وافرة ، اضف الى ذلك ان الفلاحين اخذوا بالتناقص ، لانهم كانوا مجبرين على المحاربة عند الحاجة ، وبنقصهم نقص الجيش وهم دعامته وبنقص الجيش وضعفه ، اخذ ملوك اشور الاواخر يعتمدون على الجنود المستأجرة في حروبهم ويمثل هؤلاء الذين يقاتلون للمال لا للوطنية ، وبمزارع بائرة ، وتجارة بايدي الاجانب من الاراميين كانت المملكة التي تظهر قوية لاول وهلة من الخارج ينخر فيها السوس من الداخل .

وهناك ايضاً سبب آخر ساعد على سقوط الدولة الاشورية وهو ان المملكة الاشورية كانت محاطة بقبائل كثيرة من جميع الاطراف والجهات ، ومع ان وجود هؤلاء الاقوام كان خطراً على المملكة المجاورة لهم ، إلا ان وجودهم كان نافعاً لانهم كانوا جداراً يدرأون عن اشور هجمات البرابرة النازحين من آسيا الى الارض الخصبة ما بين النهرين .

وقد قام ملوك اشور واحداً بعد الآخر بتخضيد قوة هذه القبائل ، وضمها اليهم فهدموا بعملهم هذا الخط الدفاعي الذي كان بينهم وبين البرابرة ، وحين ضعفت اشور ، وجلس على العرش ملوك ضعفاء اتحد البابليون والماديون

والعيلاميون على اشور واقتحموا نينوى العاصمة وبسقوطها سنة ٦٠٧ سقطت المملكة كلها معها .

كان الاشوريون في عهد سلطانهم بقسون جداً في اخراج هذه الشعوب من بلادهم بيد ان الشرق القديم قد استفاد من هذا النقل فقد كان سكان المدينه الواحدة لا يعرفون عن عادات جيرانهم شيئاً ، وكان تمدن كل بلد متعلقاً متصلاً بنفسه لا يتعداه الى غيره ، وبهذه الواسطة انتشر تمدن الأمم المتفرقة بعضها عن بعض فتعلم قوم من قوم ما كان مجهولاً عندهم ، وما كان خاصاً بأمة دون أخرى فنشطت المدنية ، وظهرت فائدة هذا العمل باحتكاك الافكار وما نشأ عن هذا الاحتكاك من فكرة جديدة ورأي طريف

ولقد يذهب القارئ بعد ان طالع اخبار ملوك اشور الى ان هؤلاء قد صرفوا كل حياتهم في الحروب واخماد الثورات فلم يتفرغوا الى غير ذلك من مظاهر الحياة والوان الحضارة ، وهو خطأ فكما هدم هؤلاء الملوك بنوا ، وكما اماتوا احيوا ، وقد يكون نفعهم اكثر من ضررهم وهذه الجملة التي كتبها مؤرخ شهير عن سرجون قد تصدق عن الكثيرين من ملوك اشور قال :

« لم تكن اشور مثلها اليوم قبلاً في الغنى المفرط ، والاراضي الواسعة وعظمة الاعمال وكثرة الفتوحات ، وتدل الحفريات الحديثة ان سرجون الثاني رغماً عن اعماله العظيمة التي كان يقوم بها في كل انحاء مملكته من تخفيد الثورات وتوسيع الحدود والاثخان في الممالك كان يتوفر كثيراً الى ما ينفع امته ويغنيها وما ينمي الزرع في المواطن القاصية القاحلة هذا مع بنائه لما يهدم من المدن اثناء الحروب وجلب الماء الى الاراضي البائرة لتصبح ناضرة زاهرة ، وحفر الترع للري وغيره ، وبناء الجسور فيها ، وغير ذلك مما يستغرب سماعه الآن ، ويشك في وقوعه فعلاً لو لا هذه الآثار التي تنطق بين ايدينا واعظم من ذلك كله ارساله بعثة من العلماء الاشوريين الى كل مدينة يفتحها لتعليم الشعب وتنويره »

ولا بد من ذكر زيارة الملك فيصل لمواطن الحفريات الاخيرة في (اور) وغيرها فقد زارها في ساعة باكرة من ساعات النهار وسر جداً مما شاهده ، ولكنه لما اشتد الحر كر راجعاً الى بغداد .

ومن الحق ان يقال ان ما ظهر في (اور) يدل على تمدن بعيد المدى في الحضارة والعمران ، وهذا يدل على ان التمدن (السومري) كان ارقى من التمدن المصري في ذلك العهد السحيق في تاريخ الحياة ، وكان الاغريق لا يزالون في همجية بربرية في ذلك العهد ومن العجيب ان نشاهد امة نشطت فيها الحضارة الى هذا القدر في ماضيات الايام ثم في عهد الخلفاء العباسيين تصل الى ما وصلت اليه اليوم من ضعف الشأن ، وتفكك القوى ، ولكن الحقيقة الرائعة هي ان الممالك تندثر وتنهار ، واما الشعوب فتظل وتبقى

لقد تداول على العراق امم عديدة من السومريين والساميين والعيلاميين والفرس وغيرهم ، ومن الصعب تحديد عنصرية سكان العراق كل التحديد والقول بانها تتصل بهؤلاء السكان القدماء . ولكن الامر الثابت هو ان بعض السكان الحاليين يتصل بالاقدمين ، ومن هؤلاء الاشوريون

- ١٤ -

الاشوريون !!

من هم الاشوريون ؟ هل هم بقية شعب بائد ، ام فرقة من الفرق الكاثوليكية المسيحية ؟ والذي يغلب على الظن انهما الاثنان معاً !!

لقد رأينا كيف يكون بطوق جماعة غلبت على امرها ان تظل في ارضها بعد زوال سلطانها ، وانهيار ملكها ، ومن المؤكد ان هذه الجماعة التي تسكن حول الموصل وبالقرب من اطلال نينوى عاصمة الاشوريين الغابرة ، هي من نسل الاشوريين السابقين وقد ذهب يؤيد هذا الرأي الاستاذ ويغرام في كتابه(الاشوريون وجيرانهم) فهم يتفقون في عاداتهم وتقاليدهم وملامح وجوههم مع الاشوريين السابقين، فهموالحالةهذه بقايا ذلك الشعب الحربي اقوي وهم وان كانوا من المسيحيين اليوم ، فلا يبعد ان يكونوا ما يزالون يعبدون (اشور) رب الحرب وحامي الامبراطورية القديمة السالفة .

وتاريخ الاشوريين في الاجيال الماضية وبعد سقوط نينوى

العاصمة (٦٠٧ق م) لا يضطرب في كبير امر ، وقد دخلت اليهم المسيحية بعد مائتين وخمسين سنة من نشأتها ، وكانوا لا يزالون يعيشون في مواطن امبراطوريتهم الغابرة ، وكذلك كان مصير بقايا الشعب الكلداني او البابلي الذين كانوا يعيشون على مقربة منهم فقد اعتنقوا المسيحية مثلهم ، ولما كان الاشوريون شعباً تواقاً للاستقلال والحرية حتى في شؤونه الدينية فقد راحوا ينفصلون عن الكنيسة الكاثوليكية ويقيمون لانفسهم كنيسة خاصة ، وما يزال هذا حالهم حتى العصر الحاضر ، فان لهم بطريركاً خاصاً هو زعيمهم الديني والسياسي معاً .

وظل الاشوريون اغراباً عن الجماعات التي تعاقبت على حكم بلادهم ، وقد تناولتهم بعض هذه الجماعات بالعسف والظلم ولكنهم كانوا يتركون في اكثر الاحايين يعيشون حياتهم ، ويتوفرون على المحافظة على تقاليدهم وعقائدهم ، وكان اكثر ما نزل بالاشوريين من العسف ايام تيمورلنك لما غزا البلاد العربية ، وقد هرب الاشوريون منه الى بعض الجبال وظلوا فيها حتى الحرب العامة

وبرغم ما كان يصيبهم من اضطهاد وعسف فقد تمكن هذا الشعب من المحافظة على نفسه من الانقراض ، وكانوا قوماً اشداء يغزون جيرانهم اذا كان الى ذلك سبيل ، وكانت المعارف والعلوم قبل الفتح الاسلامي متوفرة عند المسيحيين فاخذها المسلمون عنهم

وحملوا هذه الشعلة العلمية اجيالاً عديدة و كانت جامعاتهم في اسبانيا مراكز للعلم والفلسفة في العهد الاسود الذي كان يغمر اوربا ، واذا كان من الحق ان يذكر فضل العرب على المعارف فلا يجب على المؤرخ المنصف ان ينسى كذلك فضل هذه المدارس المسيحية الصغيرة التي اخذ العرب عنها علومهم وفلسفتهم

وقد انقسم الاشوريون الى قسمين لما كثر الاضطهاد والعسف فيهم فذهب بعضهم الى جهات فارس يسكنون فيها وظل الباقون في بعض الجبال العراقية ، ولكنهم لم يفقدوا مزاياهم العنصرية وملامحهم الاشورية القديمة ، حتى ان من يراهم لاول وهلة ، كان يحكم بانهم من الاشوريين وان كان لا يعرفهم ولا التقى في روعه شيء عنهم ، وقد ظل الاشوريون يحافظون على اللغة السريانية في كنائسهم وحوارهم وهي لغة نعتقد انها مزيج من اللغتين الاشورية والعبرية .

وهم لا يزالون يعيشون عيشة بداوة ويختلفون في بعض اميالهم عن الكرد ، والزعامة عندهم وراثية تنتظم لعائلة واحدة ويصار الى انتخاب الزعيم او البطريرك من هذه العائلة شرط ان يكون عازباً لان زواج البطريرك محرم عندهم

فلما اشتعلت الحرب وقف الاشوريون يترددون باديء الامر ولكنهم لما علموا باعلان الترك للجهاد العام اعتزموا النزول الى

المعركة ومساعدة الحلفاء ، ومشى بعض رجال الدعاية الروسيين يحملونهم على حمل السلاح ويعدونهم بوفرة الذخائر والاموال وغير ذلك ، و كان الترك قد وعدوهم بالاصلاح يوم اعلان الحرية ثم لم يفوا بوعدهم ، مما حمل الاشوريين على الاعتقاد بان مصايرهم ليست تتفق مع مصاير الترك في سبب من الاسباب ، وانهم اذا ساعدوا الحلفاء فقد ينالون منهم ما لم ينالوه من اسيادهم الغابرين ، فرفعوا راية الثورة ونزلوا الى المعركة ، فلم يوفقوا في اول الامر كل التوفيق بسبب الثورة الروسية وانقطاع المعونة عنهم من الروس ، وعدم تمكنهم من توحيد صفوفهم مع البريطانيين في بغداد ، وراح الترك يهاجمون معاقلهم في الجبال الواقعة على الحدود التركية العراقية بشدة وعنف ، فلما رأى الاشوريون غاية الترك في تطويقهم اعتزموا مغادرة مواطنهم مهما كلفهم الامر ، والقدوم الى العراق حيث ينتظرهم الجيش الانكليزي

وكان عملهم شاقاً ومسيرهم الى العراق في ارض تركية امراً صعباً محفوفاً بالمخاطر ، وكان عددهم يبلغ السبعين الفاً فوصل نصفهم الى بغداد ، فانزلهم الانكليز في منازل خاصة وقطعوا لكل فرد منهم عطاء جندي وظل الحال كذلك مدة ثلاث سنوات حتى انتهاء الحرب العامة

وكان مصير هؤلاء الاشوريين من الامور الصعبة التي لم يوفق الانكليز الى ايجاد حل لها ، فاسلموهم الى الحكومة العراقية تنظر في امرهم ، والعراق وان كان ليس كثير الاهتمام بشأنهم الا ان مساعدتهم له في الحرب العامة، ومغادرتهم مواطنهم بسببه حمله على العناية بهم ، ولكن سوء التفاهم وعدم الالفة كان امراً واقعاً بين الشعبين .

وقد فكر بعض الاشوريين في ان تعطى لهم ارض على الحدود التركية العراقية يقيمون فيها، ويؤسسون بها دولة خاصة بهم ، ولكن هذا المشروع سقط من اساسه لصعوبة تطبيقه ، ولرفض الحكومتين العراقية والتركية له ، ولم يكن من الممكن ابقاء الاشوريين في المنازل التي انزلهم فيها الانكليز مدة الحرب ، فارسل بعضهم الى بلاد الكرد يعيشون فيها ، فلم تنجح الخطة لاختلاف الذهنية بين الشعبين ، وراح جماعة آخرون يعيشون عيشة هادئة في اراض اعطيت لهم مما حمل الحكومة العراقية على الظن بان المسألة الاشورية قد انتهت ، وان الايام ستعمل عملها بشأنها

ولكن تدخل جمعية الامم بالامر اثار المسألة من جديد، اذ راح رجال الجمعية يقولون ان الاشوريين قوم ثائرون وان الحق يقضي برجوعهم الى البلاد التركية ، وكانت مواطنهم فيها لا تزال دون ما سكان ، ولو اعطيت هذه الارض للعراق لانتهى الامر واستقر

العدل في نصابه

اما بطريرك الاشوريين (مار شمعون) الذي تثقف في انكلترا تحت اشراف رئيس اساقفة كنتربري فقد كان يريد الاستقلال لامته ، وهو استقلال كان من الصعب ان ترضى به العراق ، اذ لا يجوز قيام دولتين مستقلتين في موطن واحد

وليس اهتمام العالم بالاشوريين ومصايرهم يرجع الى وجود هؤلاء بين المسلمين ، بل ان السبب في ذلك يعود الى التضحية التي قام بها هؤلاء ايام الحرب في سبيل الحلفاء ، وبسبب هذه التضحية فقط كان العالم ينظر اليهم نظرة عطف ورحمة .



- ١٥ -

الدولة الجديدة

ليس القيام بانشاء دولة جديدة وتعهدها بالعناية وحسن الادارة من الامور السهلة ، خصوصاً وان الترك لما تركوا البلاد العراقية حملوا معهم كل شيء تقريباً ، حتى المعاملات الادارية والتجارية وغير ذلك ، وقد كانت هذه تكتب بالتركية وهي لغة لم يكن يفهمها جمهرة السكان ، والعراقيون الذين كلفوا القيام بشؤون الدولة الجديدة كان فيهم جماعة من المتعلمين ، الا انها كانت قليلة العدد ، ومن يصح ان يعهد له بالحكم والوظائف من هؤلاء كان قليلاً ، ولكنهم اظهروا رغبتهم في ان يتولوا اكبر الوظائف الحكومية ، وان يتحملوا مصاعبها وتكاليفها وواجباتها بصدر رحب وافئدة مطمئنة

وحب السياسة والتورط في الوانها صنعة عليقة بسكان بغداد ، ولكنها صنعة كانت تنعم باخطاء كثيرة منها تعدد الاحزاب والجماعات ، وتطاحن هذه الاحزاب والجماعات في سبيل الحكم والعقائد السياسية ، وكان من نتائج هذا التطاحن ان راح ينقلب

الى عداوات شخصية وحزازات خاصة ليس يصح ان تجد لها مكاناً في الاحزاب السياسية التي تعمل للخدمة العامة ، وللخدمة العامة فقط

***

لما فشلت حكومة لندن في الوصول الى تسوية حبية بشأن الحدود العراقية التركية مع حكومة انقرة ، عرضت الامر على جمعية الامم وفاقاً لمعاهدة لوزان ، فعينت العصبة لجنة من قبلها زارت العراق في اوائل سنة ١٩٢٥ وقضت ثلاثة اشهر تستكشف الحدود الشمالية وتنصرف للتحقيق فيها ، وتستمع الى مطالب الاقليات واغراضهم .

وكان الاشوريون اكثر الاقليات العراقية اغراقاً في مطالبهم والحاحاً وصخباً ، ولم يكن هناك ما يبرر شكواهم بعد ان عطفت عليهم الحكومات العراقية المختلفة كل العطف وتولتهم بكثير من السخاء والعطاء والكرم ، وتعهدت بان تقدم لهم الاراضي اللازمة لسكناهم ، وان تنشيء ادارات محلية تضمن لهم الحد الاقصى من الحرية في مزاولة اعمالهم وفي المحافظة على تقاليدهم وثقافتهم ، وقد شكرت لجنة جمعية الامم العراق لموقفها ، وراحت تخطط الحدود التي ضمنت ولاية الموصل للعراق :

وقد ثار الترك لقرار اللجنة لما اعلنت الحدود الجديدة التي

دعيت (بخط بروسل) فاخترقت جنودهم تلك الحدود وهجمت على بعض القرى تنتقم من اهلها الاشوريين والكرد ، فراحت جمعية الامم ترسل لجنة جديدة لدراسة المسألة وتقديم تقرير بشانها .

وقدم الى العراق في هذا الحين المستر هيلتون يونغ والمستر فرنون ليدرسا المسائل المالية المعلقة ، وجاء ايضاً السر صموئيل هور وزير الطيران والمستر امري وزير المستعمرات فدرسا الحالة وطارا الى الموصل ثم ذهبا الى البصرة ، وقبل ان يغادر الوزيران العراق الى انكلترا اعلن الدستور الجديد الذي كان قد تأخر اصداره ريثما يصار الى حل نهائي بشأن الحدود العراقية التركية ، ولما كانت اللجنة قد حكمت للعراق بالموصل فلم يبق من سبب للتأجيل فاعلن الدستور فاستقبلته البلاد بالابتهاج والفرح ، وانتخب العراق مجلسه النيابي الاول

وقد اغتنم الملك فيصل وجود الوزيرين الانكليزيين في العراق ليتحدث واياهما بشأن موقفه كملك دستوري ، ذلك انه بعد اعلان الدستور كان يريد ان يكون موقفه كملك وفاقاً لموقف غيره وسواه من الملوك الدستوريين ، وقد تحدث اليه المستر امري بواجبات صاحب الجلالة البريطانية ، وكيف انه دائماً على اتصال باعمال الوزارات المختلفة ، والواقع ان الملك فيصل كان اقرب علاقة مع وزرائه من ملك الانكليز ، وكانت الوزارة تجتمع في

كل اسبوع مرة واحدة ، فكان لا يصار الى بحث فيها الا بعد عرضه على الملك فيصل ، وكان هو الذي يعين رئيس الوزارة وبواسطته كان يسيطر حتماً على تعيين الوزراء الباقين . ولما سافر الوزيران استقالت وزارة ياسين باشا الهاشمي وحلت مكانها وزارة جديدة برئاسة عبد المحسن السعدون باشا

اما المجلس النيابي الجديد فقد افتتحه الملك فيصل في ١٦ تموز ١٩٢٥ وهو مستبشر بما تم في العراق من اعلان الدستور واجتماع المجلس الجديد وتحديد الحدود ، ومطمئن الى دخول العراق في العصبة في القريب العاجل .

وفي آب سافر الملك الى اوربا ، بعد ان اصدر مرسوماً اناب فيه الامير زيداً ليقوم مقامه مدة غيابه ، وكان الملك متوعكاً متعباً منهوك القوى ، فسافر مستشفياً من جهة ومستكشفاً جو السياسة من جهة اخرى .

وكان مجلس العصبة يدرس في ذلك الحين تقرير لجنة الحدود الثانية فأيد في جلسة كانون الاول ما قررته اللجنة الاولى من ضم الموصل الى العراق ، ولكنه اشترط شيئاً جديداً وهو ان تعقد انكلترا والعراق معاهدة ثانية لمدة خمسة وعشرين سنة ، الا اذا دخلت العراق جمعية الامم قبل هذا الموعد

وحملت بريطانيا قرار العصبة الجديد ، وسارعت في تنفيذه

فوصلت المعاهدة الجديدة الى بغداد في اواخر كانون الاول، فوقعها
رئيس الوزارة السعدون بعد ان وعده المندوب السامي الوعود في ما
يتعلق بالاتفاق المالي وبدخول العراق في عصبة الامم ، ثم جاء
الرئيس بالمعاهدة الى المجلس فتصدت لها المعارضة بزعامة ياسين
باشا الهاشمي ، وطلبت ان تحال الى لجنة خاصة تدرسها ، فرفض
السعدون الطلب ، وطلب ان تكون المناقشة سرية ، فايد
اقتراحه رجال حزب التقدم ، وكانوا قد رفعوا طلباً يلحون
فيه بالاسراع في المناقشة ، وعندما اخرج المتفرجون خرج رجال
المعارضة معهم .

واقفلت ابواب المجلس ، واستؤنفت الجلسة بكلمة وجيزة
صريحة من الرئيس قال فيها :

— ايها السادة ، اذا رفضنا ان نقر هذه المعاهدة ، خسرنا
الموصل وما زال الامر كذلك ، فلا بأس اذا جاملنا المندوب السامي
في طلبه ، بل في طلب وزير المستعمرات المستر امري ، وهو ان يتم
اقرار هذه المعاهدة قبل افتتاح دورة المجلس النيابي البريطاني في اول
شهر شباط .

وكان المجلس بعد خروج المعارضة مؤلفاً من حزب الحكومة
فاقر المعاهدة في ١٨ كانون الاول سنة ١٩٢٥ بما يقارب اجماع
الحاضرين .

ثم تلت ذلك المعاهدة الثلاثية بين العراق وتركيا وبريطانيا
والتي عقدت في انقرة في الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٢٦
فاعترفت فيها تركيا بخط بروسل وسلمت للعراق بولاية الموصل .

***

ورأى (١) الملك فيصل احتفالا بهذا الحدث الجديد وتفاؤلاً
به ان يأدب في بلاطه مأدبة رسمية ، خطب فيها فاعرب عن رغبته
الشديدة بالسلم مع جيرانه كلهم وانه عامل ما استطاع للوصول الى
هذه الغاية، ولكن البلاد كلها كانت غاضبة على الانكليز ، ناقمة
عليهم بسبب هذه المعاهدة الجديدة التي خلقوها خلقاً ، والتي لم
تكن بالحسبان ، وكان العميد البريطاني الجديد السر هنري دوبس
يشعر بذلك ويعلمه ، وكان يعرف ان المعاهدة الجديدة قد
تركت كل المسائل المعلقة دون ما حل ، وكل ما فعلته انها
حلت مسألة الحدود فقط ، فظلت الاتفاقات الاضافية من
مالية وعسكرية وغيرها مفتوحة للبحث ، مما حمل وزارة السعدون
على الاستعفاء .

تألفت وزارة جديدة برئاسة جعفر باشا العسكري ، واخذ
السر هنري دوبس يخابر لندن بشأن التعديلات المطلوبة فقبل

(١) اجملت مؤلفة هذا الكتاب الحوادث التي تلت فرأينا نظرا لخطورة
الحدث واهمية الحوادث ان نتلطف في تفصيلها وان نعتمد في ذلك بعض
المؤلفات الاخرى

الوزراء بعد طول عناء ، وبدأت المفاوضات في بغداد ثم انتقلت الى لندن ، وتبعهم الملك فيصل اليهـا بعد ان مضى اياماً في فرنسا للاستشفاء والراحه

فوجد فيها شيئاً جديداً ، وجد المندوب السامي السر هنري دويس يكتب لوزارة المستعمرات تقريراً يقول فيه ان الملك يناصر المعارضة ويشجعها سراً ، وان عليه ان يعلم انه ملك دستوري لا يجوز له التداخل في شؤون الاحزاب فيترك حكم المملكة للوزارة والمجلس .

لم يكن في هذا التقرير ما يدل على بعد النظر ودقة السياسة ، وكان العراق في هذه السنوات المنصرمة قد تقدم تقدماً يذكر في السياسة والاقتصاد ، وهبطت فيه النفقات البريطانية من ادارية وعسكرية هبوطاً محسوساً ، وكانت كفاءة العراق لدخول العصبة اليوم وفي هذه السنة (١٩٢٦) اظهر منها يوم وقف احد رجـال الحكومة الانكليزية في عصبة الامم سنة (١٩٢٥) يؤيد دخولهـا الى العصبة ، ولكن الوزارة الانكليزية رأت ان من حسن السياسة ونظراً للعلاقات الحاضرة بين الترك والعراق ، ان يترك امر دخول العراق الى عصبة الامم حتى سنة ١٩٣٢ وقد حاول الوفد العراقي حمل الوزارة على تعديل موقفها فلم يوفق ، فغضب جعفر باشا وغادر لندن .

وحصل ان اقيمت للملك فيصل مأدبة وداع حضرهـا بعض

الوزراء الانكليز وخطب فيها فيصل خطبة بليغة ، مشيراً الى المعاهدة والى انه يفضل ان يعود الى العراق صفر اليدين عن ان يحمل اليهم معاهدة ليست اصلح واحسن ، فاظهر له بعض الوزراء ان الامل لم ينقطع ، فابرق الملك عندئذ الى جعفر باشا بالرجوع وقبلت المعاهدة بعد تعديل طفيف

ولكن قبول الملك ورئيس وزرائه لهذه المعاهدة الجديدة التي لم يكن ليرضى بها احد في العراق دلت بعد ذلك على ان القبول كان لباقة سياسية لتعلم بريطانيا ان العراقيين هم الذين يرفضون المعاهدة ، خصوصاً وان جعفر باشا كان مصمماً على رفض المعاهدة منذ عودته الى العراق ، فما كاد يعود الى بغداد حتى نشرها بين الناس فثارت عليها البلاد من كل جانب ثم استقال !

وقام السعدون مقامه ، وحل البرلمان ، وكان لحزب التقـدم اي حزب السعدون فيه الاكثرية الساحقة وكان الملك فيصل اميناً من السعدون ويعلم انه رجل نصوح لبلاده خادم لامتـه ، وكان السعدون ينوي ان لا يطرح المعاهدة على المجلس الا بعـد ان يتم التعديل في الانفاق المالي والعسكري ، وهو ما كان المندوب البريطاني يجهله ، والسعدون اذا اصر على طلبه هذا فستظل المعاهدة مدفونـة في مكتبه .

لقد ظن المندوب السامي البريطاني انه قد ظفر باستقالة جعفر

باشا العسكري ، وانه قد نجح في قيام وزارة السعدون ، والسعدون كما هو معلوم صديق للبريطانيين ، وقد ايد حزبه معاهداتهم غير مرة ، ولكنه لم يكن يعلم ان السعدون مخلص لمليكه مخلص لبلاده ..

وما كاد يعرض الاتفاقين على لجنة المجلس حتى رفضت هذه نصوصها وطلبت مزيداً ، واصرت الوزارة بدورها على تعديل جوهري ، وتمرد المجلس الذي اصبح حزب الحكومة فيه اشد تطرفاً من المتطرفين ..

وبذلك اخفق السر هنري دوبس ، واخفقت معاهدته ، ولما استقال السعدون ظلت البلاد بلا وزارة مدة ثلاثة اشهر ، وعندئذ استرجع الانكليز المعاهدة ، وقد كانت اصل البلاء والاضطراب واضطر العميد السامي البريطاني السر هنري دوبس الى مغادرة المعتمدية قبل انتهاء مدته



- ١٦ -

نجاح سياسي

لقد جاهد العراق كل الجهاد في سبيل استقلاله وحريانه (١) جهاد كان للملك فيصل فيه كل الفضل فهو الذي كان يسير الوزارات المختلفة ، وهو الذي كان يهيء الخطط ويرسم صور الحصون والخنادق ، وهو الذي كان يتحمل شكوك الانكليز وشكوك الوطنيين وهو الذي كان يسير الى اغراضه غير هياب ولا وجل ، ثقة منه انه يعمل لشعبه ، وانه يخلص كل الاخلاص في هذا العمل ، فكان يتقدم لا يبالي ولا يأبه حتى مكنه الله من الظفر ، وحتى قدرت له الاقدار ان ينال ما يتمناه ويرغبه

خلف الجنرال كلايتون السر هنري دوبس في المعتمدية البريطانية في العراق . وهو رجل ينعم بفطنة وذكاء ، وكان ذا علم وافر بالعرب وبلاد العرب ، فكان ملما باغراضهم واقفاً على نياتهم عالماً بمطالبهم وما يريدون

ووصل العميد الجديد الى بغداد في اذار من عام ١٩٢٩ والجو

---

(١) وهذا الفصل ايضا للمعرب ولا علاقة لمؤلفة الكتاب به

السياسي متلبد مضطرب شديد ، فقد كانت البلاد دون ما وزارة وكان اهل البلاد يسيئون الظن بالوعود الانكليزية ولا يطمئنون الى شيء منها ، فقد كان الجيش الوطني بيد الانكليز وكان المستشارون الانكليز يسيطرون على الدوائر المختلفة والبلاد لاتبرح تدفع نصف نفقات المندوب السامي ودوائره العديدة ، ثم اين الوعود الانكليزية واين ما قاله رجال الحكومة الانكليز من اعتزام لندن التوسط لدخول العراق في جمعية الامم ؟ اليست كل هذه الاقوال هراء منثوراً ، أوليس من حق العراقيين والحالة هذه ان يسيئوا الظن ببريطانيا العظمى وهو ما اشار اليه السر هنري دوبس نفسه المندوب السامي السابق – لما كتب في احدى المجلات الانكليزية يقول « ان تهمة الوطنيين العراقيين ايانا بنقض العهود لا تخلو من الحق »

لقد كانت الشكوك بنيات انكلترا متولية حتى على البلاط ، فقد احسن الملك فيصل الظن كثيراً بالوعود التي قطعها الحلفاء اولاً في الحرب العامة ، ثم في الوعود الانكليزية للعراق ، لذلك رأيناه حين قدوم المندوب السامي الجديد يسير متئداً فامر بتأليف الوزارة الجديدة في (٢٨ نيسان ١٩٢٩) وعهد برياستها الى توفيق السويدي ثم راح ينتظر موقف المندوب السامي الجديد وسياسته الجديدة .

وكان المندوب السامي الجديد لبقاً حاذقاً فما كاد يتفهم هذا الجو المضطرب الذي غمر العراق حتى راح يشمر عن ساعد الجد لازالته ، فقال في خطبة له « قبل ان تنتهي مدة وظيفتي آمل ان ارى العراق يتبوأ الكرسي الذي هو جدير به في عصبة الامم » وزاد ندى فكتب الى حكومته يقترح عليها : « ان تلغي الشرط الذي يقيد وعدها بالتوسط لدخول العراق في عصبة الامم » وكان العمال يقبضون على زمام الحكم في بريطانيا ذلك العهد

ورأى الملك الفرصة سانحة لابدال الوزارة بغيرها فاستقالت وزارة السويدي وكلف السعدون تأليف وزارة جديدة .

وكانت وزارة العمال الثانية في لندن قد اخذت تنظر في المطالب العراقية ومقترحات المندوب السامي الجديد نظرة جديدة فرأت فيها كثيراً من العدل والانصاف ، ووجدت ان العراق قد تقدم حقاً تقدماً يذكر في السنوات المنصرمة ، فوعدت رسمياً – دون ما شرط ولا قيد – ان ترشح العراق للعضوية في عصبة الامم عام ١٩٣٢ وانها ستعلم مجلس العصبة بذلك في جلسته المقبلة كما انها قررت العدول عن معاهدة ١٩٢٧

وبذلك كان فوز العميد السامي الجديد باهراً في الاشهر القليلة التي قضاها في العراق ، ومن المؤسف انه مات قبل

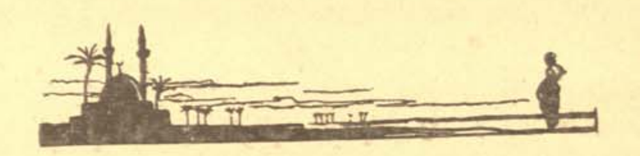
التي كانت لا تزال في طور النشوء والطفولة ، وكانت تحتاج الى وزير قوي جريء يتوفر على اقرارها وابرامها ، وحمل الوطنيين والغلاة على قبولها ، وكان الملك فيصل يعرف ذلك ، فراح يتحين الفرصة لتبديل الوزارة حتى تم له ما اراده فعهد الى نوري باشا السعيد بتأليف الوزارة الجديدة (١٩ اذار ١٩٣٠) وفي الشهر التالي اتفق والعميد البريطاني على بنود المعاهدة الجديدة ، وبعد شهرين تمت المفاوضات ووقعت المعاهدة الجديدة ، معاهدة التحالف البريطاني العراقي

وصارت الانتخابات الجديدة واجتمع المجلس النيابي الجديد في تشرين الاول ١٩٣٠ واقر المعاهدة .

وكان ابرام المعاهدة الجديدة فوزاً باهراً للملك فيصل ، فقد كانت هذه المعاهدة الحكم المبرم على الانتداب ، وهو حكم صادقت عليه جمعية الامم فيما بعد لما قبلت العراق عضواً فيها ، ولولا فيصل مليك البلاد لما استطاع العراق ان ينال ما ناله وان يوفق هذا التوفيق الباهر العجيب ، وهذه امصار العربية وبلدانها ، وهي ليست اقل من العراق عمراناً ولا ثقافة ولا وطنية ما تزال مكانها وفي ارضها

لقد كان الملك فيصل شعلة ينير الظلمات في مصاير العراق السياسية كلما ادلهمت السحب ، وتجهمت الايام بين المتطرفين من

جهة وبين الانكليز من جهة اخرى ، وقد وفق في حمل الشعلة مدى سنوات عديدة حتى نالت العراق اغراضها ، وخلصت الى استقلالها ، فما كاد يؤدي هذه الامانة ، ويقوم بهذه المهمة حتى فاجأه القدر المحتوم ، فانتقل الى ربه وقد اوفى بالعهد وقام بالواجب



- ١٧ -

العلاقات الخارجية

لقد ظهرت لباقة الملك فيصل وحسن سياسته وبراعته في تدبير علاقات مملكته ، بهذا الجو المشبع بالاتفاق والسلام الذي خلقه في جو العلاقات السياسية العراقية الخارجية ، ولما جلس جلالته على العرش كانت العلاقات متوترة بين العراق وجيرانه فما هي الا الاعوام تساير الزمن حتى انقشعت الغيوم وهدأت الافكار ، وحلت الوان الصداقة والتآلف مكان التنابذ والتقاطع ، ومما يجب ان يصار الى الاشارة اليه هو ان هذه الروح الطيبة نفسها كانت تضطرب في العلاقات العراقية النجدية ، واذا ذكرنا اقتحام النجديين للحجاز وتمكنهم من الغلبة عليه ، وجدنا في علاقات العراق ونجد دليلاً جديداً على اخلاص فيصل لبلاده الجديدة ، وكيف انه كان ينظر الى مصلحتها ويعمل على تقويتها وتغذيتها دون ما نظر الى مصالح عائلته ، وعواطفه الخاصة

ولقد تحسنت العلاقات الخارجية السياسية بين العراق وتركيا بعد اتفاقية الموصل فخفت الغارات على الحدود ، وتبادلت الدولتان

القناصل والسفراء ، وكان لا يزال في الافق بعض امور اختلفت الدول الثلاث تركيا وفارس والعراق في النظر اليها ، ومنها مسألة الكرد ، فقد راح الترك والفرس يعملون على اضعاف النفوذ الكردي في مواطنهم ، وابوا ان يسمحوا للغة الكردية بان يكون لها شأن في الحياة الادارية في بلادها ، واما العراق فقد ذهب يعمل خلاف هذا ، فاعطى الكرد بعض الصلاحية وتساهل في شأن اللغة فاعطاهم بعض الامتيازات وغيرها مما حمل الترك والفرس على انتقاد هذه السياسة التي تختلف عن سياستها

وفي سنة ١٩٢٩ صار الاتفاق بين فرنسا وتركيا على مسألة الحدود السورية التركية ، وكذلك تم الاتفاق بين تركيا واليونان على عقد معاهدة تحالف وصداقة كما عقد الوهابيون اتفاقاً مع الفرس سنة ١٩٢٩ ايضاً

وكان جلالة ابن سعود في هذه الاثناء يعمل على توطيد الحالة في الجزيرة العربية ، في بلاده ومملكته وفي ما يليها من امصار ومواطن ، وكان المال ينقصه ، لان الواردات من الحج لم تكن وفيرة كما يجب ، والاعانة الانكليزية التي كانت تعطى له مدة الحرب العامة قد قطعت ، وكانت القبائل تنصرف الى بعض الغارات التي تعودتها منذ فجر التاريخ ، فكان ذلك مما يبعث على القلق والاضطراب في العراق ونجد معاً ، فاعتزم ابن سعود ان يضع

حداً لهــذه الغارات وايدته القوات العراقية ، وسقط الشيخ فيصل الدويش بطل هذه الغارات اسيراً في يد سلاح الطـيران الانـكليزي .

ورأى ولاة الشأن ان الوقت مناسب لاجتماع الملـكـين فيصل وابن سعود على ظهر الطراد (لوبين) في الخليج العجمي

كانت حاشية الملك فيصل في هذه الفترة تضطرب في شيء من القلق في ما يتصل بهذا الاجتماع ، ذلك ان الملك فيصلاً لم يكن قد اجتمع بابن سعود منذ سقوط الحجاز سنة ١٩٢٢ وانهيار ملك عائلته فيــه ، فكيف يكون موقف الملك والحالة هذه في الاجتماع المقبل .

وكانت اهم مسائل الخلاف بين الدولتين تتعلق بالمخافر التي اقامها الملك فيصل على الحدود العراقية النجدية لرد غارات البدو والقبائل ، وقد انكر الوهابيون هذه المخافر واختلفوا والعراق على ارض فيها بئر تقوم على الحدود ، وكان لدى كل من الملكين كتاب يتضمن تسوية حبية لهذا الخلاف ، واما فيما يتعلق بالاجتماع نفسه فان الموقف كان غامضاً مقلقاً

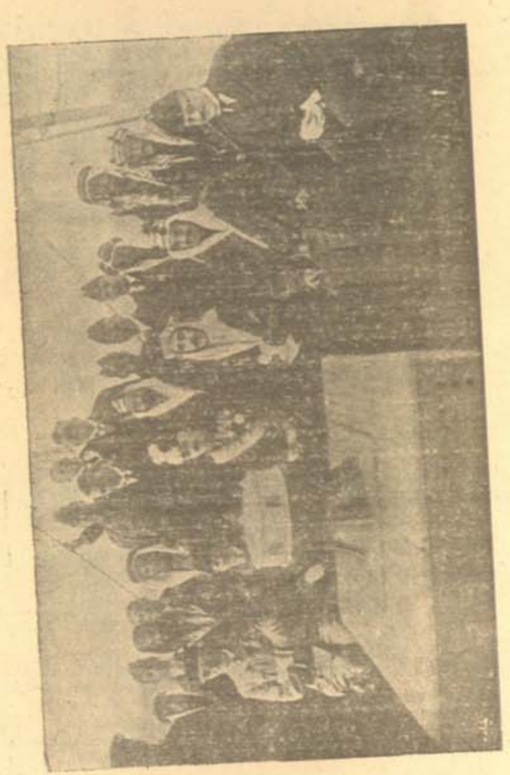
وصار الاجتماع على ظهر الطراد المذكور في شهر شباط من سنة ١٩٣٠ وكان السر فرنسيس همفريس حاضراً واجتمع الملكان فقبل الواحد الاخر ، ثم راحا يتناولان الطعام ، ثم اخذا يسيران

جيئة وذهوباً على ظهر الطراد وهما يتبادلان الحديث كاحسن ما يكون الاصدقاء والاحباء ، فدل ذلك على رغبة الملكين بالتفاهم والاتفاق ، وفي شهر نيسان من السنة نفسهـا ذهب رئيس الوزارة العراقية الى مكة وامضى اتفاق صداقة وحسن جوار بين الدولتين

وفي شهر آب من هذه السنة ايضاً عقدت اتفاقية بين العراق وفارس ، ازالت كثيراً من سوء التفاهم الذي كان عالقاً بين الدولتين بسبب موقف الشيعة في العراق وتحريض الفرس لهم ، وتعضيدهم في موقفهم هذا ، خصوصاً وان مجتهدي الشيعة في العراق اكثرهم من الفرس ، فهم يمتون والحالة هذه الى الفرس باسباب قوية شديدة

وفي سنة ١٩٣٣ زار الملك فيصل الشاه في طهران فاستقبل فيها استقبالاً فخماً عظيماً

هذه الاتفاقيات والمعاهدات التي اشرنا اليها في هذا الفصل وطدت من نفوذ العراق وحسنت احواله مع جيرانه وساعدت على رفع سوء التفاهم الذي كان عالقاً بالنفوس وفتحت للعراقيين ابواباً جديدة من الامل في المستقبل والاطمئنان اليه



الملك فيصل والملك ابن سعود على ظهر الطراد الانكليزي مع حاشيتهما

- ١٨ -

يوم من حياة ملك

قال لي احد رجال الملك فيصل « انه لم يخلق ليكون ملكاً وانما ليكون عاملاً » وهو يريد بذلك ان الملك يعمل كثيراً ويشتغل كثيراً ، وهي صفة لا تتوفر في كثير من الملوك خصوصاً في ملوك الشرق !

ينهض الملك من نومه باكراً ، ويذهب اغلب الاحايين يعمل في مكتبه في الساعة الثامنة صباحاً ، ومتى ابتدأ عمله فلا ينتهي اذ يروح يستقبل من يريد الاجتماع به من الوزراء والنواب ورجالات البلاد واصحاب الحاجات

والمقر الملكي مؤلف من بناية ذات طبقة واحدة واقعة على طريق الاعظمية جنوباً من دار البرلمان ، فيها يشتغل الملك وفيها يستقبل الناس ، تدخلها فاذا انت في رواق صغير الى شماله مكتب لرئيس التشريفات الذي يستقبل الزائرين ثم يقدمهم للملك او يعين لهم وقتاً للمقابلة ، والى جانب مكتبه غرفة الحرس الملكي ، والى الجهة الاخرى من الرواق مكتب السكرتير الاول تحاذيه غرفة الانتظار

لرجال العشائر ومشايخ العرب ، وبين المكتبين باب كبير يفتحه حاجب ، فاذا انت في ردهة مربعة هي مكتب الملك ومجلسه ، وفرش غرفة الملك يغلب فيها الذوق على الفخامة وهي مزيج من الفرش الغربي والشرقي ، فالسجاد عجمي ، والديوان عربي ، والمنضدة مع الكرسي المنجدة بالجلد اورية ، وخزانة المكتب عراقية وعلى الحائط فوقها رسوم لبعض امراء البيت الهاشمي . والملك يجلس على الديوان في الصدر والى جانبه مائدة صغيرة فيها بضعة ازرار للاسلاك الكهربائية المتصلة بدواوين موظفي البلاط .

والملك في استقباله على جانب عظيم من اللطف والرقة والبشاشة والديموقراطية ، فعندما يدخل الزائر يقف جلالته ، فيخطو بضع خطوات ويتقدم في بعض الاحايين الى وسط الردهة مرحباً و كانت هذه عادته مع كل زواره افرنجياً كان او عربياً وضيعاً كان اورفيعاً بدوياً كان او حضرياً ، ثم يأمر بالقهوة والسجاير او يقدم للزائر سيكارة من علبته الخاصة ، وهو يذهب عن الزائر روعة الملك وابهة السلطان ، فيحس انه عند احد اصدقائه لا في حضرة مليك العراق ويخرج معجباً بهذه الروح الشريفة روح الخلفاء الراشدين .

ويسأل سائل وملاهي الملك اين هي وما هي ؟ والواقع ان

الملك فيصل لم يكن لديه الوقت الكافي ينصرف فيه الى شيء من الراحة الرياضية بعدعناء الاشغال ، هو صياد ماهر كما قدمنا وبفضل هذا النوع من الرياضة على سواه ، وهو يحب لعبة البريدج في المساء ، ولكن اكثر ساعات نهاره وليله تذهب للعمل وتنتهك في سبيل المصالح العامة ، وهذا هو سبب نجاحه كملك دستوري .

و كثيراً مايفكر الملك بالمشاريع الجديدة التي يريدباقرارها فمن بناء بغداد الجديدة ، الى عمارة جسر وتوسيع طرق وحفر ترع للري وغيرها ، وهي مسائل كان يبحثها في كل يوم ، و كان يدرسها في كل ساعة من ساعات النهار ، خصوصا ما يتعلق بالمال اللازم لهذه المشاريع الحيوية الضرورية لعمران العراق وازدهاره .

وقد يذهب الملك احياناً وبعد الغداء لزيارة سباق الخيل حيث يكون قد وعدبان يقدم للفائز هدية او ما شابه ذلك ، وسباق الخيل لا يبعد الا بعض اميال عن بغداد ، وهو مركز تجتمع فيه الجالية الانكليزية برجالات العراق ، كما ان عدداً عظيماً من الفلاحين ومشايخ العرب يحضرونه للاستمتاع واللهو

فاذا انتهى السباق تقدم الفائز الى الملك يأخذ منه الجائزة ويكون الملك في هذه الاثناء قد تحدث الى الشخصيات البارزة من

انكليزية وعراقية وغيرها ، فاذا مـا قدم الجائزة غادر السباق الى
مكتبه ينظر في اعمال الدولة ومصالح الامة

وعلى مقربة من قصر الملك منزل آخر ذو طبقة واحدة ايضاً
هو منزل الملك في النهار ، يتناول فيه طعام المساء ويقيم فيه المآدب
الرسمية والاستقبالات العامة ، وفي هذين البيتين الذين توفرنا على
وصفهما كان الملك فيصل يشتغل ويقضي معظم يومه ، يشتغل
فيهما ما يقرب من اثنتي عشرة ساعة وما يزيد عن ذلك في بعض
الاحايين ، حتى يختلط شغله بطعامه ، وقلما كان الملك يأكل وحده
وكان شغله مزدوجاً في ضيافاته على اختلاف الضيوف فاذا كانوا
من مشايخ البدو او من الاوربيين او من الوطنيين من اصحاب
الشكوى او الامتيازات او المشاريع الاصلاحية فعليه ان يستمع
اليهم ويتبصر في ما يعرضون فلا يفوته شيء مما قد يكون فيه
منفعة للحكومة او خير للامة.

اما المنزل الملكي الخاص فهو يقع في شارع صغير في قلب المدينة
في شارع الميدان ، فهو لا يختلف وغيره من البيوت الملتصقة به
وفيه تقيم جلالة الملكة زوجة الملك فيصل الوحيدة وابنه الوحيد
الامير غازي — الذي ظل يقيم في هذا البيت البسيط بعد تتويجه
ملكاً حتى زواجه — وكريماته الاميرات الثلاث في هذا المنزل
كان يقضي الملك فيصل بعض ساعات من يومه

والى مقربة من منزله كان يقيم الاستاذ ابراهيم الدباس
— المسيحي اللبناني — استاذ الملك فيصل ومعلمه الافرنسية
والانكليزية ، لان الملك فيصل كان يدرس الافرنسية والانكليزية
في داره ايضاً ، وكان لديه دروسه يطالعها ويقرأها ويحفظها ، وقد
بلغ الشأو في الانكليزية على قصر وقته بدراستها ، وعندما زار
انكلترا زيارته الاخيرة خطب خطبة بهذه اللغة ، وكان مسروراً
وفخوراً بحسن وقعها ، وقد قال لمعلمه الدباس :

« كنت اتمنى يا استاذ ان تكون معي في لندن لتسمع تلميذك
يخطب باللغة الانكليزية كابناء الانكليز انفسهم فانك ولا شك
كنت تفتخر بتلميذك[1] »

***

اما ولي العهد فهو في الحادية والعشرين من عمره — سنة
١٩٣٣ — والآمال عظيمة به» وهو خيال ماهر ورياضي يذكر
وقد ذهب الى جامعة (هارو) في انكلترا وهو صغير ، الا ان
دراسته كان اكثرها في المنزل ، وقد ظهرت على الامير امارات
الاهتمام بالعلوم الهندسية ولو ترك الامر له لتعلمها وراح يركب
طيارته الخاصة ويسوقها بنفسه كما يفعل ولي عهد الانكليز مثلاً ،
ولكن والده افهمه بان للملك جورج اربعة اولاد ، واما هو فليس

(١) فيصل الاول — الاستاذ الريحاني

لديه غيره

وللملك فيصل قصر في الحارثية ظاهر البساطة ، جميل الترتيب كثير الورود والملك مغرم بانواع الورود يعمل ،على العناية بها بنفسه ويعمل على تنظيم حديقة قصره بيده ، وقد يكون جلالته قد اراد بذلك ان يلفت نظر شعبه الى ضرورة العناية بزراعتهم وحقولهم بعد ما فشا امر هذه الدعاية في اوربا واخذت الحكومات والصحافة فيها تنادي بالعودة الى الحقول والمزارع تخلصاً من ضوضاء المدن ومزاحمة الناس بعضهم بعضاً .

وقد كان جلالته يذهب في بعض الاحايين الى الحارثية — والقصر كائن على النهر — يتناول فيه طعام الغداء ، ثم يعود منه في المساء لتناول طعام العشاء في المنزل المجاور للبلاط . وقد الف جلالته الثوب الرسمي في المساء ، فان كان ضيوفه من الوطنيين تناول العشاء معهم في ثوبه العادي ، واذا كانوا من الاوربيين ارتدى ثوبه الرسمي او ثوبه العسكري ، ولكنه لم يكن متشدداً في ذلك ولا دقيقاً ، فقد راح شخص اراد مقابلته يسأل رئيس ديوانه عن الثوب الذي يجب ان يرتديه فقال له هذا :

— تعال في الثوب الذي تشاء فجلالته لا يسأل ...

والواقع ان جلالته كان وسطاً في كل احواله ، كان وسطاً في معاملته لرجال شعبه وموظفي قصره ، فلم يحلق فوقهم ، ولا راح

يغرق في الديموقراطية اغراقاً غير مشكور ، فكان في كل اعماله مثال البساطة والاتضاع واللطف والدماثة والخلق ، كان يخرج للصيد وبعض صحبه ، وكلهم في المطاردة اخوان لا تفاضل بينهم بغير المهارة ، وكان يفضل اصطحاب رئيس تشريفاته تحسين بك قدري ومستشار داخليته الكولونل كورنواليس ، والاثنان اذا حدثا عن الملك الصياد لا يغمطان حقه كما انهما لا يسترسلان في الغلو ، فكورنواليس كان يعترف بمهارة الملك في الاصابة ولكنه يسمح لنفسه بالبسمة الانكليزية اذا سئل عن قوة الملك في المطاردة فلا يستطيع العراقي ولو كان ملكاً ان يماشي الانكليزي خصوصاً اذا كان هذا الانكليزي عملاقاً ككورنواليس مثلاً ؟؟

اما تحسين قدري فيعترف انه لا يستطيع ان يماشي جلالته واما انه دونه في الصيد فمسألة فيها نظر ، كذلك كان الرجلان يفاخران الملك وهو يسمع ويبتسم ..

اما جوده يوم العودة من الصيد فقد كان يبعث نشوة المرح والسرور في قلوب الكثيرين من اصدقائه في بغداد

-١٩-

الطيران، البترول، الطرق، التعليم

وكان فيصل ملك العراق رجلاً يحب الهواء وركوبه وكان لديه طيارة خاصة لا يترك فرصة سانحة الا حلق بها وطار فيها مفضلاً ركوبها على البحر والارض

وليس من ينكر اليوم تقدم الطيران وتغلبه على كل مرافق النقل في ما يتصل بالصحراء والمواطن البعيدة، ومرد ذلك يتعلق طبعاً بطبيعة هذا الزمن الذي يتطلب السرعة في كل شيء، فانشئت في العراق وعمان مراكز للطيارات التجارية ووسائل النقل الهوائية، وهناك اليوم خط جوي افرنسي من دمشق الى بغداد وآخر هولاندي من امستردام الى شرقي الهند .

ولما رجع الملك فيصل الى بغداد بعد زيارة قام بها الى لندن اجتمع جمهور غفير لاستقباله وكان في استقباله الملك علي والامير غازي ولما سار الى بغداد في سيارته الخاصة وجد الشوارع تغص وتعج بالناس، والرايات العراقية تخفق فوق كل المنازل والدور والمصانع .

ومن الحق ان يقال ان احداً من زائري بغداد لا يغادرها قبل ان يزور مركز الطيران في الهنيدة وهو كما يقولون من اهم المراكز الهوائية في العالم

***

اما البصرة فتبعد ستة وخمسين ميلاً عن شط العرب في الخليج العجمي، وهي فينيس الشرق، ومركز تجارة البلح والثمرات، وهي تتصل كذلك بمنابع البترول الانكليزية الفارسية

وكل شيء في البصرة يجري بواسطة الماء، وفيها اسطول من الزوارق الصغيرة ينقل الناس من مكان الى آخر، وينقل المتاجر من موضع الى موضع، وارض البصرة خصبة جداً يزرع فيها اي شيء، وينمو فيها كل ثمر، حتى انهم راحوا مؤخراً يزرعون القطن فنجح نجاحاً حسناً، ولكن تجارة البترول التي صار الاهتمام بها مؤخراً ستصبح في المستقبل القريب ثروة العراق واهم ما يصدر عنه من انواع التجارة

كان اول من اهتم بتجارة البترول واستخراجه شركة البترول الانكليزية الفارسية، وتمتد منابع البترول الى ما يقرب من اربعمائة ميل بين العراق وفارس، ثم الى مئة وخمسين ميلا من نهر كارون الى عبادان على الخليج العجمي، وقد اصبحت عبادان

مصب البترول بلداً عظيما بما انشيء فيها من منازل لسكنى العمال ، ومن معامل لتكرير البترول وتنظيفه قبل شحنه الى البلاد الخارجة .

اما مواطن البترول العراقي فتقع في الشمال ، وقد بدأت شركة العراق للبترول اعمالها سنة ١٩٢٠ بعد الاتفاقية التي صار اقرارها في مؤتمر سان ريمو ، لما تنازلت فرنسا عن حقوقها في الموصل مقابل الاعتراف بصنيبها من البترول ، وقد نصت الاتفاقية على ان تكون مدة الامتياز سبعين عاماً ابتداء من سنة ١٩٢٥ ولا بد من القول ان منبع كركر يعد اليوم اكبر الآبار في العالم ، فان البعثة التي راحت تسبر غوره ، وقبل ان وصلت الى المائة والثمانين قدماً في قلبه انفجر انفجاراً هائلا ، وقذف بخيره عالياً ، وعلا عن سطح الارض مئة وستين قدماً ، و الارض التي يقوم فيها هذا الجبل المليء بالخيرات كبيرة جداً ، ومن المنتظر ان تخرج منه كميات وفيرة من البترول ، وسيصب بتروله في مكانين الواحد في طرابلس ، والثاني في حيفا

***

ولا بد من الاشارة في هذا الفصل الذي أريد تخصيصه لبحث المنافع العامة في العراق ، الى طريق (روندس) الذي سيعمل على تقريب المواصلات بين العراق وفارس ، والواقع ان بلاد فارس

كانت صعبة المواصلات الا عن طريق روسيا ، ففتح هذا الطريق الجديد والحالة هذه سيعمل اولا على تحضير القبائل التي لا تزال بدوية في نزعاتها والوان حياتها ، وسيعمل على التقريب بين شعبين متجاورين فيستطيع المسافر بواسطته ان يقطع المسافة بين فارس وباريس في اسبوع واحد . وقد اهتمت الحكومتان الفارسية والعراقية في هذا الطريق ، وصار الاتفاق على ان تقوم كل حكومة بتعبيد القسم الذي يقع في ارضها وكان ذلك امراً مقضياً .

ولقد انتهى عمل هذا الطريق العظيم في خمس سنوات وصادف المهندسون فيه صعوبات جمة ، فقد اضطروا في بعض الاحايين الى شق الجبال الوعرة والتلال القائمة ، وصرفت الحكومتان العراقية والفارسية مبالغ عظيمة في هذا السبيل ، ولكن فوائد هذا الطريق لا تعد ولا تحصى ، ويكفي انها فتحت للحضارة مواطن جديدة لم تكن قد طرقتها ولا سارت فيها .

***

وليس من ينكر خطورة التعليم في كل بلد من بلاد العالم ، وان هذا التعليم يجب ان يكون عاماً لا خاصاً ، تضطرب منافعه في الاغنياء والفقراء والمتحضرين والبدو ، وقد ثبت اليوم مضار الاقلية المتعلمة والاكثرية الجاهلة في امة من الامم ، والحالة في روسيا

واسبانيا نؤيد هذا الرأي، وتجعله امراً واقعاً، وتمنع البلد التي
يكون هذا حالها من الاستقرار السياسي، وتدفع ابنائها الى
الشغب والفساد .

وقد عمدت الحكومة العراقية لمحاربة الامية في بلادها ولنشر
التعليم بين البدو والحضر معاً، ان راحت تكلف الاستاذ مونرو من
جامعة كولومبيا درس هذا الامر وتقديم تقرير بهذا الشأن،
وقد قام الاستاذ بعمله هذا مع ثلاثة من الاساتذة الذين عرضوا
خدماتهم هذه مجاناً كما راح يساعدهم الاستاذ فضل الجمالي العراقي
المتخرج من جامعة كولومبيا

وليس هناك مجال للتبسط في تقرير هذه اللجنة الصغيرة التي
راحت تزور جميع المدارس في بغداد وغير بغداد من مسلمة ومسيحية
ويهودية وغيرها، ولكننا نقول ان وزارة المعاوف قد نظرت الى
تقريرها بعين الاعتبار وراحت تقره وتطبقه في المقررات التي
اصدرتها بعد ذلك، وقد جاء في تقرير الاستاذ الجمالي ان القبائل
تؤلف اكثرية الشعب العراقي، وان الضرورة تقضي بتلقين الفتى
البدوي شيئاً من العلوم يزيد على ما تلقاه في مدرسة القرية، ويجب
ان يصار الى تلقينه العلوم الضرورية له في حياته، من قراءة
وكتابة وامور صحية تحمله على الاعتناء بنظافة جسمه والعناية
بصحته .

وقد اخذت بعض القبائل ترسل اولادها الى المدارس بعد
ان وجدت الضرورة ملحة في تعليم الفتيان وتنوير اذهانهم، ولكن
بعد المدارس عن مواطن القبائل يجعل التعليم صعباً، ويساعد التلميذ
على ان يزهد به وينصرف الى غيره .

وهم يدرسون الان طريقة لسد هذا النقص بانشاء مدارس رحالة
تضرب في الارض بين القبائل المختلفة، وهي فكرة جريئة كثيرة
الفوائد عظيمة المصاير .

***

اما مسألة تعليم المرأة فان الملك فيصل نفسه يؤيدها، وهو يعلم
خطورة هذه الخطوة وضرورتها، ويعلم ايضاً ما للمرأة المتعلمة في
الغرب من شأن في تربية اولادها والمحافظة على منزلها، وخلق جو
هادئ نقي في الحياة البيتية، ولكنه يعلم ايضاً ان الوقت ليس
مناسباً لحمل الامة بالقوة على تأييد هذه الحركة، وهو لا يريد
الوقوع في الخطأ الذي وقع به الملك امان الله فلذلك تراه يؤيد
الفكرة وينتظر الفرص لتحقيقها .

والواقع ان نساء العراق سيوفقون مع الايام الى اقرار
مصايرهم، فان احتفظوا بالحجاب او رفعوه فهذا امر معلق بالايام
المقبلة، ولكن الامر الذي اريد بحثه هو ان الفتيات العراقيات
اللاتي يتلقين العلوم العصرية ينكرن حياة امهاتهن ويريدن لهن

ولانفسهن حياة جديدة، وقد يكون في هذا الامر بعض الصعوبة، ولكن المستقبل للفتيات، والفتيات المتعلمات في هذا الجيل اكثر من زميلاتهن في الجيل الماضي، ومع ذلك فان غير المتعلمات من الزوجات والفتيات في العراق لا يرون في حياتهن الحاضرة نكداً ولا سوءاً، بل لقد رأيتهن راضيات، قانعات وان سيدة البيت — في البيوت المرفهة طبعاً — مطلقة التصرف في شؤون المنزل لا يعرض الزوج لامورها وزياراتها واستقبالاتها، كما انها بدورها لا تعرض له فلها صالون خاص تستقبل فيه صويحباتها، كما ان له مثل ذلك لاصحابه واصدقائه

والمرأة المسلمة غير متحجبة الا في الاسواق، فان وصلت الى منزل صديقة لها رفعت حجابها، وهذه هي العادة المتبعة في قصر الملكة نفسها، فان السيدات المسلمات اللاتي كنت معهن رفعن حجابهن عند دخولهن القصر وسلمنه الى الخدم، ثم دخلنا سوية الى الردهة الواسعة التي كانت الملكة والاميرات يستقبلن فيها

استقبلتنا الملكة بلطف، وكان في قاعة الاستقبال كثيرات من السيدات الانكليزيات، اما الاميرات فيتكلمن عدة لغات بينما الملكة لا تتكلم غير العربية وان كانت تحسن فهم الانكليزية والافرنسية.

وفي اليوم التالي حضرت رواية قام بتمثيلها تلميذات مدرسة

حكومية فوجدت اميرات البيت الملكي ومعهن مربيتهن الانكليزية في المقصورة الملكية، وقد عرفت بعد ذلك شدة اهتمام الاميرات بالتعليم النسائي وترقية حالة المرأة، وهذا يدل على رغبة مليك البلاد طبعاً، ولكن هذه الرغبة التي يؤيدها جلالته كل التأييد لا يريدها بعنف وقوة بل يفضل ان يترك للايام مؤونة ترويجها واقرارها.



- ٢٠ -

استقلال العراق

لقد كان انتهاء الانتداب في العراق حدثاً تاريخياً عظيماً ، وإذا ما نظرت بريطانيا العظمى الى الاعوام المنصرمة التي قامت فيها على تثقيف العراق وتدريبه فانها واجدة فيها ما يسرها ويرضيها ، من قيامها بواجبها حق القيام ، خصوصاً وان دخول العراق لجمعية الأمم لم يتم بسهولة بل لقد اضطرت فيه بريطانيا الى الدفاع عن هذه المملكة الفتية حتى تم لها ما تريده ، والذين يستطاعون محاضر الجمعية التي تتعلق بدخول العراق الى العصبة يجدون في هذه المحاضر كثيراً من الاخذ والرد والرغبة في التسويف والتأخير ، خصوصاً وقد سبق للجنة الانتدابات ان طلبت تمديد المعاهدة الى خمسة وعشرين سنة ليتم فيها التوفيق بين اماني سكان شمالي العراق وابناء العراق فيما يتصل بحقوق الاولين وواجبات الاخرين

وقد ظهر من احتجاجات الكرد والاشوريين وثورة الكرد ان النار لم تخمد تماماً في هذه المناطق ، وان الجو فيها لا يزال مفعما بالخطر ، ولكن ظهر ايضاً ان هذه امور يجب ان

تحلها العراق نفسها لانها مسائل داخلية لا تتصل علاقاتها بغير حكومة البلاد نفسها، خصوصاً وان من مصلحة الحكومة العراقية ان توفق بين رغبات الكرد والاشوريين ونزعاتهم ، كما انه من مصلحة هؤلاء أن يعملوا للاتفاق مع حكومتهم والعمل معها لتحسين شؤونهم وترقية مصالحهم .

ولقد استقبل العراقيون انتهاء الانتداب بفرح زائد وسرور عظيم ، كما استقبله الانكليز برضى وارتياح ، وقد عبر عن العواطف الانكليزية في هذا الشأن السر دافيدسون الذي كان مستشاراً قضائياً لحكومة العراق، ومستشاراً للمندوب السامي لسنوات خلت حيث قال في خطاب القاه امام الجمعية الملكية للشؤون الدولية :

« ليس لي علاقة في السياسة الانكليزية في العراق ولا في مراميها وتطوراتها لسنوات خلت ، ولكني اقول أن الساسة الانكليز على اختلاف مذاهبهم واحزابهم كانوا يعملون دائماً الامرين: القيام بواجباتنا وتعهداتنا نحو العرب و تخفيف الاعباء عن المكلف الانكليزي ، و كانت كل خطوة ترمي الى اقرار هذه الخطة نؤيد من جمعية الأمم ولجنة الانتداب فيها .

وكل معاهدة في العالم هي عبارة عن اتفاق موقت ، فان كثيرين من العراقيين ينظرون بعين الحذر الى صلاحية السفير الانكليزي في العراق ومركزه الممتاز ، والى هذه المراكز الهوائية

التي صار الاتفاق على اعطائها لانكلترا وهناك جماعة من الانكليز ينكرون نفض ايدينا من العراق وتركه لاهله وسكانه، ويذكرون الضحايا العظيمة التي أُصيب بها الجيش الانكليزي لتخليصه وتحريره ولكن علينا ان نكون متفائلين، وان نقول بان قيامنا بتعهداتنا نحو عرب العراق وفاقاً لمطالب جمعية الامم سيحمل لنا اثماره الزكية ، وان نفوذ بريطانيا في الشرق لن يصاب بأي ضرر من هذه الخطة التي تدل على اننا لا نمنع عن قوم استقلالهم وحرياتهم ، واننا لا نحتل المدن ونحكم الشعوب رغبة منا في حب الاستعمار والتبسط في السلطان واننا ابداً نترك الشعوب التي نحكمها وشأنها حين نعتقد انها اصبحت في حالة تمكنها من الاستقلال وحكم نفسها »

ثم راح يتكلم عن الملك فيصل فقال :

« ومهما قال الناس في ترشيح فيصل لعرش العراق وفي طريقة انتخابه ، فقد ظهر اليوم لكل شخص لا يعتور عواطفه واحكامه اغراض واهواء بان الملك فيصل قد تمكن في سنوات قليلة من أن يجعل لنفسه نفوذاً كبيراً ومركزاً ممتازاً ومن ان يكتسب رضاء شعبه واخلاصهم له لا فرق في ذلك بين اهل السنة والشيعة ، وإذا كان مرد ذلك الى مساعدة الانكليز له ومشورتهم ، أو الى استعداده الشخصي ومقدرته الادارية والسياسية أو الى نسبه وغير ذلك فان الذي اعتقده ان هذه الامور كلها قد عملت على

توطيد عرشه ، وتثبيت ملكه ، حتى اصبح ملك العراق حقاً تعترف بذلك طبقات من الناس ليس لها علاقة بالانكليز ولا بغير الانكليز .

وهذه التصريحات لها خطورتها في اثبات ما ذهبت اردده من مركز فيصل في العراق ، وبلوغه الغاية من حب شعبه له وتقديرهم لاخلاصه وحسن درايته ، ومما يجب ان يشار اليه في هذا الصدد ما اجمعت عليه الجمعية التأسيسية من جعل الملكية في العراق وراثية في ابناء فيصل بعد ثلاث سنوات من تسنمه العرش وهي سنوات اعترضتها صعوبات ، واستطارت فيها مشاكل واحقاد وفساد وريبة وغير ذلك ، فان هذا التأييد لعرشه بعد هذه السنوات الثلاث يدل على اخلاص العراقيين لمليكهم وتقديرهم للظروف المحيطة به ، وايمانهم بحسن سياسته وبعد نظره ، وحبه لشعبه ، وسعيه في سبيل تحريره واستقلاله .

وقد كان سرور الملك عظيماً بانتهاء الانتداب بعد هذه السنوات العديدة من السعي والجهاد للوصول الى هذه الغاية ، وقد تناول جلالته التهاني بهذا الحدث العظيم من جميع الجهات ، ولم يكن بينها اكثر اخلاصاً وصدقاً من تهاني جلالة الملك جورج الخامس ورجال حكومته .

وكان الملك فيصل قد زار لندن بصورة رسمية مرات عديدة ،

فكان دائماً يعمل في هذه الزيارات على توطيد الصداقة بينه وبين الملك جورج والشعب الانكليزي الذي كان لا يزال كثير الاهتمام ، شديد الحب له بسبب جهاده في الحرب العامة في سبيل استقلال بلاده .

ولما اعلن رسمياً ان الملك فيصل سيزور الملك جورج زيارة رسمية ، وان الحكومة الانكليزية ستستقبله استقبالاً رسمياً يليق بمقامه كملك دولة مستقلة صديقة ، فقد راح الشعب الانكليزي يتقبل هذا الخبر بسرور عظيم .



- ٢١ -

العراق في لندن

وصل جلالة الملك فيصل الى دوفر في اليوم الواحد والعشرين من شهر حزيران (١٩٣٢) فكان في استقباله صاحب السمو الملكي الدوق اوف يورك الذي راح يرافقه الى لندن

وقبل وصول القطار الملكي الى لندن كانت باحة المحطة تعج بالناس ، وكان المكان المخصص لانتظار اصحاب المقامات مليئاً بالشخصيات الحكومية البارزة ، وكانت المحطة مزينة بالورود والزهور وعليها مظاهر الفرح كأنما هي في عيد من الاعياد .

وما كاد جلالة الملك جورج الخامس وولي العهد والدوق اوف جلوستر يصلون حتى آذن صوت القطار الملكي بوصوله ، وخرج منه جلالة الملك فيصل باسماً هادئاً ، وكان بملابس القائد العام للجيش العراقي وبعد تبادل التحيات استعرض الملك فيصل حرس الشرف الذي انتظم لتحيته ثم استقل العربة الملكية الى يمين الملك جورج وامامهما البرنس اوف ويلس والدوق اوف يورك الى القصر الملكي

وكانت اول اعمال جلالته في لندن ان وضع اكليلاً على قبر الجندي المجهول ، وقد كتبت على الاكليل كلمة لمست مواطن العاطفة من قلوب الشعوب الانكليزية الذين كانوا ينظرون الى فيصل كشخصية جريئة باسلة من شخصيات الحرب العظمى اكثر من نظرهم اليه كملك للعراق

واما الكلمة فكانت ما يأتي :

« من صاحب الجلالة الملك فيصل الى رفيقه في الحرب العظمى »

وليس يهمنا التبسط كثيراً في استقبال جلالته في لندن ولكن ما يجب قوله، هو انه استقبل فيها استقبال الملوك الفاتحين واكرمه الشعب الانكليزي اكراماً عظيماً قل ان يحظى بمثله حتى بعض الملوك المعاصرين

***

لقد اجتمعت به في لندن بعد عودته من سكوتلاندا وزيارته للاسطول البريطاني ، فاعرب لي عن اسفه لاضطراره الى مغادرة لندن ، وعدم تمكنه من انتظار موسم الصيد ، وكانت صحته حسنة وعلى وجهه امارات الراحة والاطمئنان

ولما سألته عن الطقس قال :

— لقد كان الله كثير الاحسان الي فان الطقس كان

بديعاً جداً .

ولما رحت اودعه في فندق (هايد بارك) في صباح اليوم الذي اعتمد فيه السفر من لندن راح يحدثني عن سروره بالحفاوة العظيمة التي لاقاها في لندن ، قائلا : ان الشعب الانكليزي متى احب شخصاً احبه الى الابد

ثم راح يتحدث لي عن صداقة الملك جورج له ، وكيف انها تزداد يوماً عن يوم ، وكيف انه يقدر هذه الصداقة حق قدرها



- ٢٢ -

لندن شهر ايلول ١٩٣٣

يخيم على العراق اليوم حزن عميق

لقد احزن موت الملك فيصل الفجائي اوربا حقاً ، واما في العراق والعالم الاسلامي فان الصدمة كانت عنيفة والفاجعة كانت فادحة جداً .

لقد مضى المدافع عن استقلال العرب ، وذهب ملك العراق المنتصر في ميدان السياسة ، وانتقل الى رحمته تعالى ذلك الرجل الذي رفع من شأن امته ووطنه ، وفعل في السنوات الاخيرة من حكمه ما لم يستطع غيره بعضه في السنوات العديدة .

واما في انكلترا فان الحزن كان عاماً خصوصاً وان ذكراه كانت ما تبرح امام الشعب، وبسمته الحلوة ما تزال ذكراها قريبة منهم وقد كان بينهم منذ اشهر قليلة فقط .

توفي فيصل بن الحسين في برن من اعمال سويسرا في يوم الخميس الواقع في السابع من شهر ايلول ١٩٣٣ وهو في الخمسين من عمره ، وقد كان المرض الذي مات بسببه يلم به منذ سنوات عديدة

ولكن مما لا شك فيه ان موته السريع كان مسبباً عن رجوعه الى العراق في الطيارة في ذلك الحر الشديد المذيب بسبب اضطراب الاسباب بين الاشوريين والحكومة العراقية، وبسبب استفحال الخطب ونشوب الثورة ، وقد كان يفكر في تهدئة الامور وهو في سويسرا حيث يعنى الاطباء بصحته ، ولكن واجبانه نحو بلاده حملته على تحمل هذه المشقات التي كانت فوق طاقة مريض مثله

وليس هنا مجال البحث في اسباب الثورة الاشورية ، ولكن مما يجب ان يقال، هو ان البطريرك مار شمعون لا يمثل الاشوريين كلهم وانما يمثل طائفة منهم ، وقد عرضت عليه الحكومة العراقية بعض الاتفاقات والامتيازات في غياب الملك فيصل فرفضها ،ويعلم قراء الصحف السيارة ما حدث بعد ذلك من ذهاب الاشوريين الى الحدود السورية ورجوعهم منها واصطدامهم مع الجنود العراقية، واسراف هؤلاء في القتل واعمال القمع المزعومة ، وكان الملك فيصل يتلقى اخبار العراق بالبرق ، فلما رأى الحالة حرجة عول على الذهاب الى العراق فسافر اليها ، وكان اكثر سفره بالطيارة

وقد اجتمع الملك عند رجوعه الى بغداد بالسر همفريس السفير البريطاني الذي كان قد عاد الى العراق على وجه السرعة بسبب الحوادث الاشورية، وبعد اسبوع هدأت الاحوال واستتب السلام

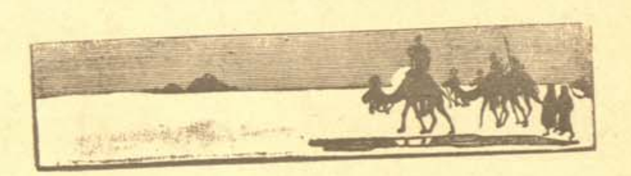


الملك الشهيد على فراش الموت

ونقل مار شمعون وعائلته الى قبرص ، ثم عاد الملك فيصل الى برن لاتمام نقاهته والعناية بصحته .

ولا بد من القول ان الملك فيصلا كان رجلاً كثير الحساسية وان حملات بعض الصحف الاوربية عليه وعلى العراق بسبب الحوادث الاشورية قد اثارت عواطفه ، ولا يبعد ان يكون لها بعض الشأن في اضعاف قلبه الذي لم يعد يستطيع المقاومة لما اصابته السكتة القلبية فجأة فقضى مأسوفاً عليه

وما كاد الخبر المفجع يصل الى بغداد حتى اجتمع مجلس الوزراء حالاً واعلن ملكية ولي العهد الامير غازي الذي اقسم يمين الاخلاص للدستور في اليوم التالي ، والذي راح يستقبل الاف المهنئين من رجالات العراق ومندوبي الدول الاجنبيه ، كما ابرق الملك جورج الى الملك غازي معزياً بالفقيد الكبير الصديق ، راجياً للملك الجديد كل هناء وسعادة وفلاح .



- ٢٣ -

حوار المليك وحديثه

وبعد فقد انتهينا من الحوار عن هذه الحيـاة الفخمة العظيمة التي كانت في عهدها ملء السمع ملء الابصار . فلنحدثنك عن شيء من اخلاق هذا المجاهد الشهيد ، فانك واجد فيها الوانـاً جديدة يصعب ان تنتظم في شخصية واحدة ، وان تجتمع في شخص واحد

ولعل ابرز صفاته شدة تقواه ، وتوفره على القيام بواجباته الدينية ،مااتصلت هذه الواجبات بساعة من ساعات النهار ، كان مسلما سنياً صادقاً ، تقياً نزيهاً متواضعاً ،لا يشرب الاشربة المسكرة ولا يقامر ولا يجنح الى البدع ، وكان لا يغالي بنسبه ولا يحاول الترويج له بين محبيه وقومه ، ولو راح ينصرف الى شيء من هذا لكان شديداً كوالده شاذاً كالامام يحيى

كان متساهلاً في ما يتصل بالديانات الاخرى وعقائد اصحابها فقد كان استاذه مسيحياً من لبنان ، هو ابراهيم الدباس ،وكان يعيش على مقربة منه في بغداد ،لا يفصل بين دار الملك ودار

الاستاذ الا بعض الاذرع والقراريط . وقد رغب الملك يوم حمله معه الى العراق ان يجد له مكاناً في ديوان البلاط ، وفي هذا ما يدل على تساهله واعتداله ورحابة صدره

ولعل ابرز صفاته ترويضه نفسه ، وتقديمه المصلحة العامة في كل ادوار حياته على مصالحه ومصالح عائلته ، وليس ما قام به لتوطيد صلات الصداقة والود بين المملكة العراقية وجيرانها الا دلالة واضحة على ان حب الوطن عنده كان كل شيء ،وانه راح يعمل له دوماً وابداً لا يحاول ان تتصل عواطفه بواجبه نحو مملكته ،فراح يزور انقرة وطهران وباريس عاملا على توطيد الصداقة بين هذه الممالك وبلاده ، مروضاً نفسه مغالباً اهواءه حتى تم له النجاح وكانت هذه الخدمات لبلاده اجل خدماته واعظمها شأناً وابعدها خطراً

***

حدثني فيصل حين اجتماعه بعبد العزيز بن سعود قال (١) :

« لو كان الخلاف شخصياً بيني وبين ابن سعود وتلاقينا واحتربنا وقتل احدنا ، وانتهى الامر فلا بأس ، اما ان نجر العرب لقتال العرب من اجل انفسنا فهذا عيب والله ، بل اثم كبير ، نحن الملوك والاشراف امناء على مصالح هذه البلاد العربية ، واننا اليوم اكثر

(١) فيصل الاول

منا بالامس حراس على هذه المصالح العامة وعلى سعادة الامة . فمن العيب ، بل من الاثم ان نسلك المسلك الذي لا تستقيم فيه غير مصالحنا الخاصة لاننا ملوك واشراف ، من العيب ان نستخدم قوة الامة لنعزز مقام ملك ، او مقام شريف فيها . وعندما تتغلب مطامع الملك الشخصية على وطنيته يحق للامة اذ ذاك ان تحاسبه بل ذلك واجب عليها »

عندما اجتمع فيصل وعبد العزيز بن السعود على المركب الحربي البريطاني في خليج العجم في شهر شباط سنة ١٩٣٠ — وقد اتينا على ذكر هذا الاجتماع في الفصل الذي عقدناه عن علاقات العراق الدولية — سلما سلام الاحباب الاخوان ، وقبل الواحد الاخر على الطريقة العربية ثم قال فيصل لعبد العزيز :

— لست الان فيصل بن الحسين يحدث عبد العزيز بن سعود ، انما انا ملك العراق وانت ملك الحجاز ونجد ، فاذا كنت تنظر الي في اجتماعنا هذا بصفتي الشريف فيصل بن الملك حسين الذي كان بينك وبينه ما كان ، فانك تحتقرني ، ولكن اجتماعك هو بفيصل ملك العراق وبصفتي هذه احب وآمل ان تكون بلاد الحجاز ونجد سعيدة وان تكون على ولاء وبلاد العراق

ومما قاله بخصوص المخافر التي بنيت قرب الحدود بين العراق ونجد :

= ما بنيناها عداوة لاهل نجد بل مساعدة لكم .. اخي ، بنيناها لردع القبائل قبائلكم وقبائلنا ، عن الغزو والتجاوز ، فاذا جاء الاخوان صائلين نردهم خائبين ، فيتعودون الطاعة للنظام فيهون عليكم اذ ذاك ضبطهم ، وكذلك اقول في قبائل العراق والمخافر هي لمصلحة بلادكم والله وبلادي .

فقال الملك عبد العزيز :

— اقسم بالله ان ليس في قلبي ذرة من البغض لفيصل ، وما فيه لفيصل غير الحب والاكرام ، والله وبالله ورب البيت ، جئت تابعاً قلبي الى هذا الاجتماع ، واني اسأل الله ان يوفقنا جميعاً الى ما فيه خير العرب

ولما زار الاستاذ الريحاني الملك عبد العزيز في جدة قال له جلالته :

— ان الملك فيصلا صديق مخلص ، وعربي شريف كريم الاخلاق وزعيم مقتدر حكيم

وقال له مرة اخرى وهو يجنح الى الدعابة :

— فيصل يقول انه يجب ان نزور اميركا واياه وكيف نسافر الى اميركا وحدنا ؟ والحريم .. لا والله ، النساء هناك سافرات ، ونحن متبعون في الحجاز سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، نسافر ونترك الحريم ، هذا لا يصير ... نأخذ الحريم معنا ونحجبهن .. هذا صعب

والله ... ولسنا من الذين يقولون بهذا الذي يسمونه روح العصر فنكتفي بواحدة لا غير . انامتبعون السنة النبوية ، نأخذ ما يجيزه النبي، وقد اجازلنا الزواج بغير واحدة اما غيرنا من الحكام المسلمين فلهم ما يشاؤون ، فقد لا يلزم بعضهم اكثر من واحدة ، واما نحن فاننا نتمسك بالحقوق التي يتنازلون عنها ...

والواقع ان فيصلاً لم يكن له غير زوجة واحدة ، وكانت جلالة الملكة والاميرات لا ينتقلن من مكان الى آخر الا محجبات وقد كان جلالته وسطاً في منازعه الدينية وغير الدينية بين زعيم الترك وسيد الجزيرة فان رأى في بعض اعمالهما ما يوافق العقلية العراقية اقره ، وان رأى الوقت غير ملائم لذلك تركه وفكر في سواه .

***

وكان الملك فيصل كثير السؤال عن ما يعرض له من مسائل او يبسط امامه من احاديث وحوار ، وكان له في كل امر غير رأي واحد ، وهو ما يدل على رجاحة عقل وحب للتعمق ، هذا ما يختص بالحياة نفسها والوانها ، فاذا كان الامر سياسياً يتصل بسياسة المملكة ومصالحها فقد كان له في ذلك رأي حاسم مفيد يعمل على اقراره بقوة وجراءة

***

وقد حدث مؤلف **فيصل الاول** عن اجتماع جرى بينه وبين صاحب الجلالة العراقية في بغداد فقال :

— زرناه ذات ليلة للعشاء ، فوجدناه جالساً يطالع بعض الاوراق ، وهو مكشوف الرأس والسدارة على الطاولة الصغيرة امامه ، وبعد أن انتهى من قراءة مابيده وضمها الى غيرها من الاوراق ووضعها على الطاولة قلت :

— لا نهاية على ما يظهر لشغل جلالتكم

فقال : يجيئنا كل يوم شغل يومين

— ايعني ذلك انه يجب عليكم ان تشتغلوا ليل نهار ؟

— إذا اقتضى الامر ، ولكن المعدل عشر ساعات ، واحياناً اثنتا عشرة ساعة .

— هذا مخالف لنظام العمل .

— سجلها إذن لهذا العامل الذي لا يرعى نظام العمل ، وما رأيك يا امين في الحكومة البلشفية ... ؟

فلما جلسنا على المائدة قصصت عليه قصة كارل ماركس يوم كان مقيماً في لندن ، وكيف انه فكر في السفر الى اميركا ثم عدل عن ذلك قائلاً :

— لو انني سافرت لصرت غنياً ، ولما تسنى لي ان اكتب كتابي واؤدي رسالتي .

ثم انتقلنا الى فن التصوير ، فسألت جلالته عن رسميه الزيتيين الذين رسمهما اثنان من الفنانين المصورين في انكلترا ـ مستر لزلوس المحافظ ـ واغسطوس جان المجدد .

فاجاب الملك وهو يبتسم ابتسامة من تذكر اشيئاً يسر ويحزن معاً :

— لا يزال الرسمان في لندن ، ويظهر ان الفنان يريد ان يغتني دون ان يسافر الى اميركا . . . اجل ليس في طاقتي أن ادفع الف ليرة انكليزية ثمن الرسم الواحد [1] ، ملك ليس عنده الف ليرة ذهبية لشراء رسمه وما يزال الرسم في لندن !!!

وانتقل الحوار الى مواضيع مختلفة ثم قص جلالته قصة طريفة عن تأليف وزارة من الوزارات فقال :

— بعد الجلوس الاول ، كنت انا والمندوب السامي السر بروسي كوكس مشتغلين في تأليف الوزارة الا واحداً حرنا في امره ، بقي عندنا بضعة اشخاص من المستوزرين وليس فيهم من يمتاز عن الآخر بشيء ، كلهم واحد ، من منهم نعين ياحضرة المندوب ! . . من منهم نعين ياجلالة الملك ؟ ، حرنا والله في امرنا ، ثم خطر لي خاطر فقلت للمندوب : عندي اقتراح وقد يضحكك ولكن كن

(1) لقد نشرنا في هذا الكتاب صورة الفنان لزلوس

مسلماً لدقيقتين وتوكل على الله ، تعال نعمل يانصيب على الوزارة الباقية ، وهذا ما كان ، كتبت اسماء المستوزرين على وريقات ، وضعناها في علبة وجلت يدي قائلاً للمندوب : قل معي : توكلنا على الله . . ثم سحبنا الورقة الاولى وفتحناها وكان صاحبها الوزير الذي عين . . . وزير اليانصيب .

***

لما اضطر الملك فيصل الى الوقوف امام النحات الايطالي الذي كان يصنع له تمثاله ، كان ضيق الصدر حائراً قلقاً على عادته ، لا يدري مايكون مصير الشؤون السياسية التي كان يتعهدها بالعناية اخرج من جيبه علبة السيكارات فاذا هي فارغة فمد يده الى صفوة باشا العوا وكان واقفاً في زاوية القاعة مكتوف اليدين كانما هو تمثال من الرخام ـ وقال له :

— الي بسيكارة . . انقذني . . .

فاسرع صفوة باشا يملاء له العلبة .

ثم قال الملك :

— هل يمكننا المحافظة على ثقافتنا ، نحن غائصون الى الركب في الثقافة الاوربية ، وهل يصح ان نبيد ثقافتنا القومية ونقبل ثقافة الغرب . . . كلها بحذافيرها ؟

ان مدارسنا الدينية قديمة عتيقة ، هي مدارس العمائم وللعمائم ،

تلف وتلف مثل العامة حول موضوع واحد، ولكننا بحاجة اليها فاذا ابطلناها اليوم وعلمنا اولادنا العلوم الكونية لا غير يصيرون ملحدين دهريين، الولد المسيحي او اليهودي تعلمه امه شيئاً من الدين فتغرس في صدره الاعتقاد بالله، ولكن الاولاد المسلمين لا يتعلمون شيئاً في بيوتهم، امهاتهم جاهلات، وآباؤهم في اشغالهم، واكثرهم كذلك جاهلون، فيجيء الاولاد الى مدرسة البلد وعقولهم فارغة فيملأها الامام بقشور الدين .. ولكننا نستصلح مدارسنا الدينية وسيصير عندنا ائمة عصريون ان شاء الله .. سيتعلم طلاب مدرسة التجهيز العلوم الدينية ويتشربون في الوقت نفسه الروح العلمية العصرية، فيصير عندنا علماء عصريون مجددون

***

ثم انتقل الحديث الى الاستانة فحدثنا جلالة الملك فيصل قصة عن نفسه يوم كان صفوة باشا العوا المعلم الخاص لاولاد الشريف حسين هناك، ثم قال:

= انا اعرف طعمة القضيب واكثر من الطعمة، ما كنت مجتهداً مثل اخي عبد الله، بل كنت متأخراً دائماً في العلم وكان معلمنا — (هز صفوة باشا رأسه مبتسماً) — يعلمني انا هكذا — وضم الملك اصابع يده بعضها الى بعض وطفق يضربها بكف اليد الاخرى — وهذا صفوة امامك فاسأله ..

وكان صفوت باشا الشيخ الجليل المكلل شعره الابيض بسدارة سوداء، الضام يديه الى صدره، الواقف في الزاوية كتمثال للحشمة والوقار، قد احنى رأسه ثانية وابتسم ...

وانتقل الحديث بعد ذلك الى باريس، وكيف راح يستقبله الفرنسيون سنة ١٩٣١ استقبالاً حاراً ويشرب المسيو برتلو مدير الشؤون الخارجية في وزارة الخارجية الافرنسية نخب الملك فيصل — ملك العراق وسورية — والظاهر ان الافرنسيين رأوا ان الحكمة كانت تقضي بالاتفاق مع الملك فيصل وتعضيده في سورية، ولو تم ذلك لما حدث ما حدث، ولما ظلت القضية السورية دونما حل الى الان.

ولا بد في هذه المناسبة من بسط موقف الحلفاء ازاء الثورة العربية والوحدة العربية فنقول:

«لما دخلت الدولة العثمانية الحرب وخشي الحلفاء مغبة اعلان الترك والالمان الجهاد المقدس بين المسلمين انتدبوا هم من ناحيتهم بريطانيا العظمى لمفاوضة شريف مكة فيما اذا كان بالامكان ان يساعد الحلفاء في الحرب العظمى ولكن هذه المفاوضة لم تثمر شيئاً قاطعاً لان الاحوال لم تكن تسمح له وللحلفاء بايضاح الموقف تماماً الا ان قيام جمال باشا بما قام به في سورية من حركة الوثائق والمؤاخذات قد جلا موقف شريف مكة في عين الاتراك فاضطر

ان يفتح باب المفاوضة من جديد مع بريطانيا العظمى عن طريق ممثلها بمصر سنة ١٩٢٥

وقد طلب الحسين في هذه المفاوضات الاعتراف باستقلال البلاد العربية داخل حدود تمتد شمالاً بين مرسين واطنه وماردين وخليج فارس وشرقاً بين حدود العجم وخليج البصرة وجنوباً حذاء المحيط الهندي خلا عدن التي تبقى بريطانية ، وغرباً الى البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط ، وتأسيس خلافة عربية ترفع عنها الامتيازات الاجنبية وتفضل فيها المشروعات الاقتصادية البريطانية عن سواها ، وعقد معاهدة عسكرية دفاعية مشتركة بين الدول العربية الكبرى وبريطانيا العظمى

فاجابته بريطانياالعظمى جواباً مبهماً ضمنته الاعتراف باستقلال البلاد العربية والموافقة على تأسيس الخلافة العربية لكنها نصحت بتأجيل البحث في مسألة حدود البلاد العربية لانها مسألة سابقة لاوانها ، فالح الحسين وانتهى الحاحه بان تبلغه بريطانيا العظمى نظريتها « العربية » وهي تقضي بان « مقاطعة مرسين والاسكندرونة والبلاد الشامية الواقعة غربي دمشق وحماة وحلب ليست عربية صرفة فيجب اخراجها من التخوم » وانها تقبل بقية التخوم اذا لم تمس المعاهدات القائمة بينها وبين بعض امراء الجزيرة ، وانها في المناطق التي يمكن لها ان تعمل منفردة ومطلقة اليد « دون ان تمس

بمصالح حليفتها فرنسا » تؤيد استقلال العرب فيها وتضمن سلامة الاماكن المقدسة وحفظها من كل تعد خارجي ، وتقدم للعرب معونتها ومشورتها وتساعدهم على تأسيس افضل شكل للادارة واوفق حكومة تناسب الاحوال ، على ان يكون المستشارون الفنيون والاداريون اللازمون لتأسيس ادارات صحيحة ثابتة في المناطق المختلفة من «البريطانيين» وان تكون ادارة « بغداد والبصرة » ادارة بريطانية موضعية

فرد الحسين على هذه الاجابة بكتاب تنازل فيه عن مرسين واطنه وتمسك بحلب وبيروت ووافق على بقاء الاصقاع التي احتلتها الجنود البريطانية تحت الادارة البريطانية موقتاً

لكن بريطانيا ابانت للشريف في كتاب آخر « ان مصالح فرنسا في بيروت وحلب هي مما يجب مراعاته وتركه معلقاً الى حين فاجاب الشريف بما يفيد استعداده للسكوت عن هاتين المنطقتين « محافظة على وحدة الحلفاء »

لكن على ان يعود للمطالبة بما قد يكون وعد بالتنازل عنه في اول فرصة ممكنة . فاكدت له بريطانيا ان ليس في نيتها « ان تعقد صلحاً لا تضمن مواده الاساسية تحرير الشعوب العربية من سيادة الترك وتسلط الالمان

***

ثم عادت بريطانيا الى حليفتيها فرنسا وروسيا وتم الاتفاق في اواخر سنة ١٩١٥ واوائل سنة ١٩١٦ على توزيع تركة الدولة العثمانية : بان تأخذ روسيا القسطنطينية وارمينيا وكردستان . وتأخذ فرنسا كيليكية واواسط الاناضول وسواحل سورية ، وتأخذ بريطانيا العراق وحيفا وعكا وعقدت بعد ذلك فرنسا وانكلترا في مارس سنة ١٩١٦ اتفاقية اضافية متممة لهذا الاتفاق بين الحلفاء ابرمت بمكاتبات تبادلتها الحكومتان في تموز من السنة عينها وذكرت فيها انكلترا وفرنسا على انهما « الحاميتان للدولة العربية »

وظلت انباء هذه الاتفاقية والمراسلات المتممة لها مكتومة الى ان قامت الثورة الروسية وظهر البلشفيون على مسرح السياسة الدولية سنة ١٩١٧ فاذاعوا من الوثائق ما اذاعوا ضمنه اتفاقية « سيكس – بيكو » وملحقاتها ، كما اذاعت انكلترا في تشرين الثاني من السنة عينها ، وتبعتها فرنسا وايطاليا ، وعد بلفور المعروف بان « تنظر حكومة جلالة الملك بعين الرضا الى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين » وكما اذاعت فرنسا وانكلترا بالاتفاق في تشرين الثاني من سنة ١٩١٨ تصريحاً جاء فيه « ان المقصد السامي الذي دعا فرنسا وبريطانيا العظمى ان تمتشقا الحسام وتثيرا حرباً عواناً في الشرق هو رغبتهما في تحرير شعوبه من ظلم

الترك واستعبادهم وخلاصهم من عسف الالمان ومطامعهم ، وميلها لتأليف حكومات وادارات وطنية حرة تنتخب حسب رغائب الامة وتستمد سلطانها منها ، ولتأييد هذه المقاصد وابرازها الى عالم الوجود . واتفقت فرنسا وبريطانيا العظمى على ان تساعد الاهلين لتأليف هذه الحكومات في الشام والعراق وفي جميع البلاد التي حررها الحلفاء »

***

ثم جاءت الهدنة وجاءت مفاوضات الصلح لاجل عقد معاهدة « فرساي » فدخل المتفاوضون المؤتمر واضعين نصب اعينهم – فيما يختص بشؤون الشرق الادنى – الامل الشديد بتحقيق مطالبهم ولخص « لودر » هذا الموقف – وقد كان احد الذين اتصلوا بحوادث الشرق اثناء الحرب عن قرب ، اذ كان يعمل في قلم الاستخبارات السياسية للحملة المصرية كل مدة الحرب واذ عمل سنتين كاملتين في قسم الشؤون الشرقية بوزارة الخارجية البريطانية – لخص « لودر » في كتابه هذا الموقف بقوله :

« اراد الفرنسيون الحصول على ارثهم الشرعي الاقتصادي وعلى التهذيب الفني في سورية ، واراد البريطانيون ضمان المصالح التجارية البريطانية وتوسيع نطاقها في العالم اجمع ، وتطلب العرب

المسلمون تحقيق رغائبهم في نيـل استقلالهم التام حسب مقدرتهم
وفهمهم اياه، ورغب اليهود في بعثهم احياء للعالم مرة ثانية والاعتراف
بانهم امة مدنية ، وطالب المسيحيون الشرقيون باسترداد حقوقهم
التي اغتصبها المسلمون »

وجاء « ويلسون » وجاءت معه مبادوءه الاربعة عشر ، وفيها
مبدأ تقرير المصير وتمخض ذلك كله عن « نظام الانتداب »
استنبطه « الحلفاء » والدولة «المشتركة» معهم ، وتمخض كذلك
عن نظام « عصبة الامم » ووضعت لهذا ولذاك بنود ضمن نصوص
معاهدة « فرساي » التي حررها الحلفاء وحدهم وطلبوا الى المانيـا
امضاءها دون مناقشة فاذعنت آخر الامر

و كان الامير فيصل قد حضر مؤتمر الصلح مندوباً رسمياً من
قبل والده ملك الحجاز ، وقر القرار في المؤتمر على « اتخـاذ نظـام
الانتداب دستوراً للعمل في التوفيق بين مصالح بريطانيا العظمى
ومصالح فرنسا وضمان استقلال العرب » وندبت بريطانيا العظمى
لادارة فلسطين بدلاً من جميع الحلفاء ، وتنازل منسيو كلمنصو عن
ولاية الموصل لبريطانيا . واعترف الامير فيصل بامتيازات جبـل
لبنان وحماية فرنسا له ، وايد ايجاد اسلوب خاص للحكم في فلسطين
واقر موقف بريطانيا العظمى الممتاز في العراق

***



الشاعر الهندي المشهور رابندرات تاغور يزور الملك فيصل في قصره
ويرى في الصورة ايضاً جلالة الملك علي الى يسار شقيقه ملك العراق

وتلا ذلك اجماع آلاراء على اتباع نصيحة « ويلسون» ان تجري تحقيقات في سورية قصد الوقوف على رغائب الاهلين . ثم دار ما دار في هذ السبيل وما اليه مما يعرفه الناس من قيام مملكة عربية في دمشق يرأسها الملك فيصل ، كما دار ما دار بين الحلفاء في موتمر سان ريمو الذي عقد في نيسان من سنة ١٩٢٠ وقرروا فيه انتداب فرنسا لسورية ولبنان وانتداب انكلترا لفلسطين والعراق ، على اعتبار ان نظام الانتداب« يقوم مقام الحكم المباشر اوالاساليب الاستعمارية التي كانت تتخذها الدول المستعمرة وسائل للمحافظة على نفوذها وعلى اعتبار ان امر الانتداب امانة يسئل المنتدب عنها أمام هيئة دولية هي عصبة الامم التي نصت المادة الثانية والعشرون من دستورها الذي وضعه الحلفاء ضمن معاهدة فرساي بخصوص جاراتنا الشرقية على ما يأتي : « ثم ان بعض الشعوب التي كانت سابقاً تحكمها الدولة العثمانية وصلت الى درجة من الرقي يمكن معها الاعتراف بانها امم مستقلة على ان تقدم لها المعونة والاستشارة الادارية دولة منتدبة الى ان يصبح بامكانها ان تقف بنفسها وتعتبر ادارة هذه الشعوب على جانب عظيم من المكانة في انتخاب الدولة المنتدبة »

وحدد موقف عصبة الامم ازاء هذا الانتداب الذي وزعه الحلفاء في موتمر سان ريمو على قاعدة ان « امر سلخ بعض الاراضي

عن الدولة المعادية في نهاية الحرب انما هو من شأن الدول الغالبة ولذلك فان حق توزيع الانتدابات يكون لهذه الدول وحدها وتكون وظيفة مجلس عصبة الامم ان يصادق على التوزيع مجرد مصادقة او ان يعرضه على الجمعية العمومية للعصبة كي توافق عليه.

وجاء مشروع معاهدة « سيفر » بعد ذلك في آب سنة ١٩٢٠ فنص في صدد سورية والعراق على الاعتراف مقدماً باستقلالهما « تابعتين لمشورة دولة منتدبة تراقب شؤونها الادارية الى ان تصبحا قادرتين ان تقفا وحدها » ونصت في صدد فلسطين على ان تكون « ادارتها ضمن الحدود التي تعينها دول الحلفاء الى دولة منتدبة تنتخبها تلك الدول بشرط ان تحقق الوعد الذي قطعته بريطانيا العظمى لليهود بخصوص تأسيس وطن قومي لهم فيها »

وجاءت صكوك الانتداب على سورية وفلسطين والعراق مصدقاً عليها من عصبة الامم وفيها كلها تمهيد يرجع امر الانتداب الى « دول الحلفاء الكبرى » التي « وافقت على ان تعهد الى دولة منتدبة تختارها الدول المذكورة في ادارة شؤون البلاد »

***

وعاد جلالة الملك يقص ما جرى له من حوادث في باريس، فذكر العقبات التي اقامها المسيو بيشون وزير الخارجية الفرنسوية في طريق الوفد العربي، وكيف انه انكر عليه حق التمثيل في

المؤتمر، وبذل ما في طاقته ليقفل الابواب كلها دون فيصل، وكان الكولونل لورانس يومئذ مع فيصل فراح يحتج لدى الوفد البريطاني، فاهتم لويد جورج للامر وخاطب وزارة الخارجية الافرنسية، وفي اصيل ذلك اليوم قرع جرس الهاتف في منزل الامير فيصل :

— وزير الخارجية المسيو بيشون يريد ان يكلم الامير فيصل!

— تفضلوا فيصل يخاطبكم

— قد منحنا العرب حق التمثيل في المؤتمر

وكان الامير قد علم الخبر من لورانس، فراح يثأر لنفسه من المسيو بيشون قائلاً

— لقد عرفنا ذلك، وعلمنا ايضاً ان المؤتمر منح العرب الحق بممثلين اثنين ...

ثم ادرك ثأره ثانية في موقف آخر بباريس فرمي الوزير الافرنسي بسهم نافذ، ذلك عندما وقف في المؤتمر يبسط القضية العربية واتى على ذكر المساعدة التي جاءتهم من الحكومة البريطانية فقال المسيو بيشون متغيظاً :

— والحكومة الافرنسية، اليس عند الامير ما يقوله عن مساعدتها للعرب ؟

فوقف فيصل هنيهة وفيه نزوة الى الصراحــة ، فاومأ اليه الرئيس ويلسن مشجعاً فقال :

— نعم قد ساعدتنا الحكومة الافرنسية ببضعة مدافــع من زمان نابليون !

***

ووصف الملك فيصل كيف كان يدخل ووالده المغفور له الملك حسين على السلطان عبد الحميد فقال :

— كنا في الاستانة نذهب مع الوالد لنسلم على السلطان ، فندخل ردهة العرش في طولمه بغجه ، مكتفين حانين الرؤوس ، فنجثو امام البادیشاه ونقبل يده ، ثم نرجع بضع خطوات مواجهين العرش ونقف ساكتين ، وبعــد ذلك نخرج كما دخلنا ، والقلوب تنبض بالخوف والله والخشوع ، ولت الايام وولى السلطان ، وعدت بعد الحرب ازور هذا القصر ، قصر طولمه بغجه ، الذي كنا ندخـله خائفين مرتجفين بين صفوف من الجند ، لنقف مثل العبيد امـام البادیشاه ، فدخلناه هذه المرة بسلام ، وكانت الاروقة والقاعات كلها خالية خاوية ، اما ردهة العرش فقد هالني فراغها عند مـا وقفت في الباب ، ولكن العرش ، العرش الفارغ المهجور لا يزال فيها ، فمشيت اليه هذه المرة بخطوات ثابتة وصعدت درجاته وجلست على الكرسي ، وحمدت رب العروش مشيدهــا وهادمها ، وقلت

لنفسي : لقد ادركت ثأرك اليوم ..

***

وكان جلالته يروي اخباره هذه دون ما تحفظ وبسذاجـة رائعة ، فلا يتعمل في اخباره ، ولا يتكلف في حواره

حدث مرة عن ايام البادية الحجازية عندما كان يخرج وشقيقه عبد الله لتأديب البدو قال :

ـ اذكر اني كنت اشرف مرة على تموين الحملة ، فجهزناها بمـا يلزم من البن والسكر والشاي والدقيق والسمن والارز ، ثم طلبت شيئاً من العدس ، وكان الوالد رحمه الله يفحص كل شيء قبل الرحيل ، وكان قاسياً في احكامه ، قاسياً والله ، لا يريدنا الا مثل البدو في عيشنا ، فلا يكون لنا ما ليس لهم فعندما جاء بفحص المؤونة وقف عند كيس العدس وسألني :

ـ ما هذا ؟

قلت : عدس

فقال : وهل يأكل البدو العدس ؟

قلت : لا

فقال : وهل أنت احسن من البدو ؟

وامر بان يعاد الكيس الى بيت المال .

ما أذن لنا بالعدس ، ولكن المرء لا يسأل وهو في الغزو ، كنا

تأكل خبزنا معجوناً بالتراب، والله، ومخبوزاً بالرماد، ولانبالي بل كنا نلتذ به، كأنه الكعك بعينه

***

هذه فقر من النوادر التي كان يقصها جلالته توفرنا على اختصارها لانها تصور صاحب الجلالة العراقية في الوان مختلفة من تفكيره واهتمامه بشؤون بلاده ورغبته في ان تكون لها الحضارة القائمة والعمران المنبسط

انتهى الكتاب

فهرس الكتاب



البحث عن الله !!

اسلام نبيلة انكليزية

وحجها الى مكة والمدينة

لماذا أسلمت ؟؟ الاسلام دين الانسانية ،
وصف المسجد الحرام والحرم النبوي
الحياة الاسلاميه وما فيها من طرافة
وجمال واخلاص

تأليف

النبيلة الانكليزية اللادي ايفلين كوبولد

— زينب —

هذا كتاب نعتقد بحق انه فريد في نوعه ، فلم يسبق قبل اليوم ان تمكنت سيدة اجنبية وان كانت مسلمة من الدخول الى مكة والمدينة والقيام بشعائر الحج والاحرام ، ولا سبق ان تناولت واحدة منهن ما يعتور عواطفها ويتولى جنانها من اضطراب العواطف وثورة القلب ، حين تعتنق الاسلام ديناً ، وتؤمن بالله رباً .

ولعل اطرف فصول الكتاب هذا الاخلاص الذي يظهر مجسماً في كل فصل من فصوله وفي كل فقرة من فقراته ، ثم هذا الاطمئنان الذي غلب على عواطف الكاتبة ، فراحت تطمئن الى انها قد وفقت الى السبيل القويم حقاً ، وانها قريبة من الله ابداً ، ما تتصل به بواسطة ولا سبيل ، وانه كائن في كل

مكان ، قريب منها بل اقرب من انفاسها اليها

خذ مثلاً هذه القطعة الممتازة من مقدمة المؤلفة نزوج بها لما في الكتاب من وصف طريف لما يلم بهذه النفس الانسانية القلقة ، وهي تبحث عن الله وتنشده في كل مكان ، فلا توفق الى الوصول اليه ، ومعرفته حقاً ، الاحين تعتنق الاسلام ديناً وتتخذ الاسلام مناراً

***

قالت المؤلفة :

قال غوته فيلسوف الالمان الشهير : اذا كان هذاهو الاسلام ! نكلنا من المسلمين

وقال كارليل كاتب الانكليز الاشهر : نعم ' ان كان كل فرد ينعم بهذه الحياة الخليقة ' يعيش وفقاً لاوامر الاسلام

***

سألني كثيرون كيف ومتى اسلمت ؟

وجوابي على هذا انه يصعب علي تعيين الوقت الذي سطعت فيه الحقيقة امامي فارتضيت الاسلام ديناً

ويغلب على ظني انني مسلمة منذ نشأتي الاولى

وليس هذا غريباً اذا ما راح المرء يفكر بان الاسلام هو الدين الطبيعي الذي يتقبله الطفل فيما لو ترك لنفسه

ألم يصفه احد مشاهير النقاد في اوربا قائلا : « الاسلام دين العقل والانسانية »

لقد مضيت الشتاء وانا طفلة في قصر عربي في الجزائر مشى والدي اليه ينشدان فيه الشمس والراحة

وهناك تعلمت العربية وكنت كثيرة الرغبة في الهرب من مربيتي والذهاب الى المسجد مع بعض الرفاق المغاربة ، وانني لاعلم اليوم انني كنت مسلمة في قلبي ذلك الحين ، وان كان هذا امر لم يدر في خلدي ولا القي في

روعي ، يوم كنت اقصد المسجد واستمع الى الصلاة فيه

وبعد سنوات ثلاث غادرنا الجزائر الى لندن ، فاسفت لذلك ، ثم تناسيت مع الايام اصدقائي المغاربة وصلاتي في المسجد وذهبت الاعوام بما كنت قد تلقنته من مبادىء العربية

وحدث بعد سنوات عديدة ان نزلت (رومة) ضيفة على بعض اصدقائي الايطاليين ، فراح يسألني مضيفي يوماً : اذا ما كان يروق لي الذهاب لزيارة البابا .

سررت طبعاً وعرتني هزة فرح عميق ، ومضيت ارتدي من الملابس ما هو بعيد عن مظاهر التأنق والتبرج ، ثم اسدلت على وجهي حجابا ، وذهبت مع صديقي وشقيقته الى الفاتيكان

فلما مثلنا بين يدي قداسته سألني فيما اذا كنت كاثوليكية ام لا؟

فاسقط في يدي اول وهلة ، ثم رحت اقول له انني مسلمة ..

لا ادري والله ما الذي تولاني في هذه الفترة ، ولا اعلم الدافع الذي حملني على هذا الجواب ، وقد كنت في ماضيات الايام ، وبعد عهد الجزائر ما اعلم اني رحت افكر بالاسلام او ما يتصل به في كثير ولا قليل

نور اضاء ما امامي ، فكان حتماً علي ان اندفع الى قراءة كل ما يتعلق بهذا الدين بسبب مكين

ورحت اقرأ ما شاء الله ان اقرأ وكلما امعنت في القراءة ، واغرقت في التقصي والبحث ، زاد ايماني واعتقادي بان الدين الاسلامي اكثر الاديان طواعية وامكانا ، وانه الدين الوحيد الذي يستطيع تفسير النظم الحاضرة والعقيدة الفردة التي يكون بطوقها ان تجد حلا لكل المشاكل العالمية المعلقة والمذهب الاوحد الذي يصار بواسطته الى توفير السعادة والطمأنينة بين شعوب الارض قاطبة

وما يبرح ايماني منذ ذلك الحين ثابتاً وطيداً ، انه ليس هناك غير الله

الواحد الاحد ، وما موسى وعيسى ومحمد وغيرهم من الانبياء الا رسله وعباده وانه سبحانه وتعالى قد ارسل لكل امة رسولا ، واننا لم نخلق في المعصيـة ، ولسنا بحاجة لان يضحي شخص بنفسه في سبيلنا ، ولا ان يكون وسيطاً بيننا وبين ربنا، الذي نستطيع التقرب اليه في الوقت الذي نشا. ، كانه ليس هناك من يشفع لنا عنده الا باذنه ، ان خلاصنا متعلق بنا موقوف علينا

والاسلام كلمة تعني التسليم لله ، وهي تعني الاسلام ايضاً والمسلم الرجـل الذي يسير في حياته وفاقاً لمشيئة خالقه واوامر ربه . والذي يعيش بسلام مع الله وعباده

ولعل اجمل ما في هذا الدين وحدانية الله ، والاخوة الانسانية ، وخلوه من التقاليد والبدع وما لا يفهم .. وهو قبل كل شيء دين عملي

سئل محمد عليه السلام يوماً : ما هو الاسلام؟

فقال : اطاعة الله ومعاملة الناس بالحسنى والانصاف

وسئل مرة اخرى : ما هو المسلم ؟

فقال : من سلم الناس من يده ولسانه

والايمان في القرآن ابداً هو العمل الصالح

وليس هناك في الاسلام ايمان دون ما عمل صالح ابدا . الخ

هذا الكتاب يصدر قريباً فلينتظره القراء

